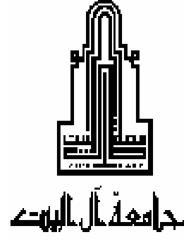


كلية الدراسات الفقهية والقانونية

قسم أصول الدين/ تخصص التفسير وعلوم القرآن

النبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب

ـ دراسة موضوعية ـ

The prophet in the light of surah al-ahzab

ـ Thematic Study ـ

إعداد الطالب:

بولقصاع محمد

٠٨٢٠١٠٥٠٠٩

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد علي الــزغــول

الفصل الثاني:

٢٠١٠ م/ ١٤٣١هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٥٦] .

وقال أيضا: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب: ٧١] .

النبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب

ـ دراسة موضوعية ـ

The prophet in the light of surah al-ahzab

ـ Thematic Study ـ

إعداد الطالب:
بولقصاع محمد

٠٨٢٠١٠٥٠٠٩

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد علي الزغــول

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
أ.د: محمد علي الزغــول / مشرفا ورئيسا	....
أ.د: محمد خازر المجالي / عضوا	....
د: سامي عطا حسن / عضوا	....
د: عماد عبد الكريم الخصاونه / عضوا	....

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن في كلية الدراسات الفقهية والقانونية في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها: بتاريخ: ١٩/ ٠٥/ ٢٠١٠م.

الإهداء:

إلى أولئك الذين أحبّوا النّبي ﷺ فنبضت قلوبهم بحبِّه، ولهجت ألسنتهم بذكره، وامتلأت عقولهم بفكره، وشغلتهم سيرته عن كل سيرة، فآمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه.

إلى من أرشداني ودعياني إلى حبّ هذا النّبـــي العظـــيم ﷺ والتَّأسِّـــي بـــه، وسمَّياني باسمه، فكانا لي نعم المربّيان، فربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا.

إلى زوجتي المخلصة التي صبرت على ألم الفراق من أجل طلب العلم، وقرّة عيني بُنيّتي مريم، أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وإلى إخوتي وأخواتي الأعزّاء.

إلى كل من أعانني في هذا البحث ليبلغ مبلغه ولو بالكلمة الطيِّبة، ومن علّمني بالكلمة القيِّمة.

إلى كل من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأحبّ أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إلى كل هؤلاء جميعًا، أهدي لهم قبسًا من نور هذا النّبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب.

شكر وتقدير:

الحمد لله والشّكر لله، ما خاب عبد قصد مولاه، والصَّلاة والسَّلام على محمد الأوّاه، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أمَّا بعد:

فمن باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾[1].

وقوله ﷺ: «من لَا يَشْكُر النّاس لَا يَشْكُر اللَّهَ»[2].

فإنّي أتوجّه بالشكر الخالص إلى الأستاذ الدكتور محمد علي الزغول المحترم، الذي شرّفني بالإشراف على هذه الرّسالة، أسأل الله أن يشرّفه بشرفات في جنَّاته يوم القيامة، فمدّ إلي يد العون، وأفادني بعلمه وتجربته فكان نعم المعلّم حتى استوت الرّسالة على ما هي عليه.

والشّكر موصول أيضًا إلى الأساتذة الفضلاء الذين تكرّموا بقَبول مناقشة هذه الرِّسالة فبذلوا الوقت لتقييم البحث وتحكيمه للرَّفع من سويَّته.

كما أتوجّه بالشكر والامتنان إلى كل المشايخ والأساتذة الذين علّموني ولم يضنوا عليّ بشيء مما آتاهم الله، وأخصّ بالذكر أساتذتي بالجزائر بمؤسّسة الشيخ عمّي سعيد، وفي الأردن في كلٍّ من الجامعة الأردنية، وجامعة آل البيت سائلاً المولى عز وجل أن يجزي هؤلاء أجر ما علَّمونا خير ما جازى به عباده.

وإلى كلِّ من أسهم من قريب أو بعيد لإنجاح هذا البحث.

فهذا جهد المقلِّ، وأسأل الله الغفران، وعليه التكلان.

---

[1] البقرة: ٢٣٧.

[2] الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى (٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، حققه أحمد محمد شاكر وآخرون، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ج٤، ص ٣٣٩، حديث رقم ١٩٥٤، قال: هذا حديث حسن صحيح.

فهرس المحتويات

ملخص الرسالة باللغة العربية

النبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب

ـ دراسة موضوعية ـ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد:

فإنَّ هذه الدِّراسة اعتمدت على منهج تتبّع الآيات القرآنية التي تناولت موضوع النَّبي ﷺ من خلال سورة الأحزاب، ثمّ تقسيم تلك الموضوعات إلى عناوين حسب ما تمليه السّورة، ثم تحليلها ودراستها دراسة علمية أكاديمية مع استنباط الحِكم والفوائد منها.

وتتجلّى أهمِّية الموضوع ومسوِّغاته في كثرة وروده في القرآن، مع قلّة الدِّراسات الموضوعية فيه، وكذا ظهور الأحداث الأخيرة في العصر الحاضر والتي تمسّ شخص النَّبي ﷺ، فكان لزامًا على الدَّارسين إفراد دراسة تظهر فيها الصُّورة الصَّحيحة لهذا النَّبي ﷺ.

قدمت إشكالية الدِّراسة أسئلة مفادها: ما قدر النَّبي ﷺ عند الله؟ وبين إخوانه من الأنبياء؟ ما حقوقه؟ ما الأحكام الخاصَّة به؟ ما أخلاقه؟

فاقتضت طبيعة الدِّراسة أن تكون الرِّسالة مُقدَّمة بفصل تمهيدي، ثم ثلاثة فصول مع خاتمة وتوصيات.

ففي الفصل التَّمهيدي تناولت مباحث تختصُّ بعلوم القرآن والمتعلّقة بسورة الأحزاب من تعريفات، ومناسبات، وموضوعات، بينما تناولت في الفصل الأول إبراز مكانة النَّبي ﷺ من خلال السُّورة، وتطرَّقت في الفصل الثاني إلى بيان حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته، وما يترتَّب عليها، أمَّا الفصل الثالث والأخير فقد تضمَّن الحديث فيه عن الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ، وأخلاقه وبشريَّته، وبيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة، كل ذلك في ضوء سورة الأحزاب.

ومن النَّتائج التي توصَّلت الدِّراسة إليها: أنَّ سورة الأحزاب من السُّور التي عُنيت ببيان قدر النَّبي ﷺ، وأنَّ الإساءة إليه والسُّخرية منه لن تنقِصَ من قدره مهما بلغت، مع توعّد السُّورة لهؤلاء المؤذين له بسوء العاقبة في الدُّنيا والآخرة.

كما توصَّلت الدِّراسة إلى أنَّ المتحزِّبين في العصر الحاضر على النَّبي ﷺ ومنهجه سيؤول بهم الأمر كما آل بأسلافهم في وقعة الأحزاب زمن النَّبي ﷺ.

وتوصي الدِّراسة: بالاهتمام بموضوع النَّبي ﷺ مـــن خـــلال الـــسُّور المدنيَّـــة المتبقيَّـــة كالأنفال، والتَّوبة ... كما توصي بدراسة الموضوعات الأخرى من السُّورة نفـــسها كموضـــوع النِّفاق، والأحكام الواردة في السُّورة لأنَّها أيضًا هي محلّ تحزُّب عليها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم على من صلّى عليه ربّه وثنّى عليه بملائكة قدسه حيث قال:﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾[١]، فاللهم صلّ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كما صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيم، وَبَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، ومن اتّبع النّور الذي أنزل معه إلى يوم الدّين، وبعد:

فإنَّ الله ﷻ لمَّا أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا؛ خصَّه في هذا الفرقان بالذّكر والثّناء عليه في مواضع عديدةٍ، من أهمِّها سورة الأحزاب، فقد جاء ذكره في ثناياهَا ليشمل جوانب وجهات عديدة من شخصه ﷺ.

ومن جهة أخرى فإنَّ الأمَّة الإسلاميَّة تمرُّ بأحداثٍ جليلة ليست بعيدة عن جوِّ هذه السُّورة؛ إذ تداعى عليها أعداؤها بالتآلب والأذيَّة لهذا النَّبي ﷺ بنبرةٍ عصريّةٍ جديدةٍ وذلك من خلال رسوماتهم الكاركاتورية، وإنتاج فيلم "الفتنة" الذي يقدح في شخص النَّبي ﷺ وأزواجه، ومن خلال تعتيمهم الإعلامي بتشويه دعوته ووصمها بالإرهابيَّة، إضافةً إلى ذلك ما يقوم به أذناب هؤلاء المستشرقين ممّن ينكر شقًّا من الوحي وهو السنَّة، يزعمون بذلك الاكتفاء بالقرآن وهو حسبهم.

كل هذا وغيره جعل الباحث يُقدم على الكتابة في هذا الموضوع بصبغةٍ عصريةٍ جديدةٍ من خلال تناوله من جانب التَّفسير الموضوعي؛ ليوضِّح لهؤلاء وغيرهم الصُّورة الحقيقيَّة لهذا النَّبي ﷺ كما عرضتها السُّورة، لا كما تعرضها لنا صور الشَّاشات المعادية له، واقفًا في كلّ ذلك على تفعيل آياتِ السُّورة وفهمِها فهمًا صحيحًا من خلال ما ذكره العلماء في هذا المجال لينعكس على واقعنَا المعاصر حلولًا، وملتزمًا عند حدود الآيات ومعالمِها دون التَّخطّي إلى الإطراء

---

[١] الأحزاب: ٥٦.

والغلوِّ في وصف النَّبي ﷺ، فقد قال عن نفسه: "لا تطروني كما أطرت النَّصارى ابن مريم، فإنَّما أنا عبده ورسوله، فقولوا عبد الله ورسوله"[١].

مسوغات اختيار الموضوع:

أوَّل مسوِّغ لدراسة هذا الموضوع هو ارتباطه ارتباطًا وثيقًا بحياة الفرد والجماعة في الدُّنيا والآخرة، إضافةً إلى وروده في معظم سُور القرآن، ولشدَّة ظهوره، وقلَّة البحث فيه، فإنَّ الدَّارسين لم يفردوا له مؤلفًا مستقلاً يعكسون فيه النَّظرة الحقيقيَّة للنَّبي ﷺ كما يصوِّرها القرآن الكريم دراسة موضوعيَّة.

لذا فأهمية الدِّراسة تنبعث من الواقع الذي يعيشه النَّاس اليوم؛ إذ تؤصِّل وتؤكِّد الرَّابطة بين المسلمين وقائدهم، وتلِحُّ على اتِّباع منهجه في غدوِّهم وآصالهم، في مقابل ذلك تفنيد الشُّبهات التي أثارها أعداء هذا النَّبي ﷺ ودحضها.

وممَّا يستدعي الضَّرورة للكتابة في هذا الموضوع أيضًا ما يلي:

ــ تعلق الدِّراسة بالتَّفسير الموضوعي المتميِّز بالدِّقة والعمق وتلبيته لحاجة العصر.

ــ حاجة الأمَّة الإسلاميَّة إلى الالتفاف بالنَّبي ﷺ والاقتداء به، في عصر تردَّت فيه القِيَم والمُثل الأخلاقيَّة.

ــ بروز الأحداث الأخيرة على السَّاحة الإعلاميَّة من أعداء الإسلام من خلال نشرهم لهذه الرُّسومات المسيئة لسمعة الرَّسول ﷺ وشرعه، فحبًّا لهذا النَّبي ﷺ ونصرةً له ولشرعه أحببت أن أقابل هؤلاء ببحث أبيِّن فيه قدره ومنزلته من خلال هذه السُّورة.

ــ انتشار فكر الذين تسموا بـ "القرآنيُّون[٢]" وهم ينكرون حجِّية السُّنَّة النَّبويَّة فأردت أن أصوِّب موقفهم هذا من خلال موضوعات السُّورة.

---

[١] محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله (ت: ١٩٤/٢٥٦هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، ت: مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم...، ج٣/ ص١٢٧١، حديث٣٢٦١.

[٢] في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت تغزو الهند الدعوة إلى الاعتماد على القرآن ونبذ السنة في التشريع الإسلامي، وعرف هؤلاء باسم (أهل القرآن أو القرآنيون)، وإن كان منهج إقصاء السنة النبوية قد عرف بعض الشيء في عصور مبكرة، وتحديداً في القرن الثاني الهجري عند المعتزلة والخوارج.

قام فكر القرآنيين أساساً على إنكار السنة، ونبذها، وعدم اعتبارها مصدرًا للتشريع الإسلامي، فتخبطوا وضلوا، وجاءت أحكامهم ناقصة مشوشة، إذ رفعوا شعار (حسبنا كتاب الله) متناسين أن السنة جاءت موضحة لكتاب الله ومفسرة له، وقد مهد لظهور جماعة القرآنيين، حركة العصرنة والتجدد التي قادها أحمد خان، وكان يدعمه الاستعمار البريطاني. [انظر: القرآنيون، موقع موسوعة الساحات الإلكترونية، تاريخ الدخول: ٢٠١٠/٠٥/٢٠م].

ــ ثراءُ السُّورة بموضوعاتٍ مميَّزة وحسَّاسةٍ في عصرنا الحاضر؛ إذ تحــزّب الأعــداء على النَّبي ﷺ ودعوته واتَّهموا منهجه وتعاليمه بالتَّطرُّف والغلوِّ.

ــ تزويد المكتبة الإسلامية بهذا البحث في مجال موضوعات القرآن الكريم.

ولهذا كان هدفي من الدِّراسة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: مُتعلق بشخص النَّبي ﷺ، والمتمثّل في إظهار مكانته وقدره عند الله، وبــين إخوانه من الأنبياء، وبيان بعض ما وجب علينا تجاهه ﷺ، ثمَّ إبراز جوانب فذّة من شخصيته ﷺ من خلال سورة الأحزاب.

الأمر الثاني: مُتعلق بالأمَّة الإسلاميَّة خاصَّةً، وبالإنسانية عامّةً: وذلك بإظهار حقيقة هذا النَّبي ﷺ في شخصه، ومنهجه، ورسالته، وأخلاقه، وغير ذلك من سماته، وهذا تثبيتٌ للمــؤمن، وتذكيرٌ للنّاسي، وتعليمٌ للجاهل، وتبكيتٌ للمعاند، وإفحامٌ للمسيء.

الأمر الثالث: مُتعلق بشخص الباحث: من حيث أداءُ أقلِّ ما يتوجَّب عليَّ من حقٍّ تجــاه النَّبي ﷺ، لئلاَّ أخلَّ منه، فخصصَّت دراسةً تبيِّن قدره ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى، وتُظهــر جوانب من خصوصيَّاته وأخلاقه.

الدِّراسات السَّابقة:

حسب اطّلاع الباحث حول الدِّراسات السَّابقة التي تناولت موضوعات معيَّنة من القــرآن الكريم؛ فإنَّه تبيَّن له بعد البحث أنَّه لا يوجد دراسة أكاديمية تناولت هذا الموضوع بنظرةٍ قرآنيــة موضوعية، تجمع مفرداته ومواضعه المبثوثة وذلك من خلال سورةٍ أو أكثر.

والذي وجده الباحث أنَّ هناك مواضيع كُتِبت حول شخصيَّة النَّبي ﷺ لكنَّها تناولتــه مــن جانب التَّفسير التَّحليلي أو السِّيرة أو مقارنة الأديان أو غيرها، ولم تكن جميعها بنظــرة التَّفــسير الموضوعي، ومن هذه الدِّراسات مثلاً:

١ــ النَّبي ﷺ في القرآن الكريم، لجاد الحق علي جاد الحق، ط١، دار الفاروق، مــصر، ٢٠٠٥م.

تكلّم ــ رحمه الله ــ على قضايَا عديدة مثل: معجزات النَّبي ﷺ، والغلــوّ فــي الــدِّين، والتَّدين ومعناه، والقرآن والإنسان، القرآن والمرأة، والمساواة بين الرَّجل والمــرأة والاخــتلاط، ومشكلات الشَّباب وغير ذلك، ويلاحظ الباحث أن هذه الموضوعات لم تستوف العنــوان الكبيــر للكتاب "النَّبي ﷺ في القرآن الكريم" خاصَّةً وأنَّها ليست متخصِّصة في التَّفسير الموضوعي.

٢ــ الرّسول في القرآن الكريم، لمحمد الراوي، د ط، مطبوعات أخبار اليوم، د.ت.

والملاحظ في كتاب المؤلف أنَّ منهجه حَدِيثِي يُعنى بسَوق الأحاديث والآثار، وذكر أحداث السِّيرة، فتطرَّق مثلاً في مباحثه الثَّلاثة الأولى إلى: الرَّسول في القرآن (خصَّص لها صفحتين)، القرآن يصف لنا الرُّوح الأمين (خصَّص لها سبع صفحات)، القرآن كأنَّما نزل الآن(خصَّص لها ست صفحات)،...الخ، وباقي موضوعاته تدور حول الكلام عن الرَّسول أو القرآن، وليس عن الرَّسول في القرآن، والكتاب كلُّه يقع في ١٦٣ صفحة، مع المقدمة والخاتمة والفهارس.

٣ــ القرآن والنَّبي ﷺ، لعبد الحليم محمود، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

قسَّم الكاتب كتابه إلى ثلاثة كتب، عنون الكتاب الأول بـ: القرآن الكريم، الكتاب الثاني بـ: النَّبي ﷺ، وتكلّم فيه على نسبه الشَّريف والوحي والإسراء والمعراج وغير ذلك، والكتاب الثالث: السُّنَّة الشَّريفة ومكانتها.

هذه بعض الدِّراسات السَّابقة التي تحصَّلت عليها، والجديد في هذه الدِّراسة إن شاء الله أنَّها تتناول الموضوع بدراسةٍ قرآنيَّة موضوعيَّة من خلال سورةٍ معيَّنةٍ [١].

ونظرًا لغزارة الموضوع وكثرة وروده في سور القرآن؛ ارتأيت أن أركّز على أكثر سورةٍ ورد فيها ذكر النَّبي ﷺ والأمور المتعلّقة به، فكانت سورة الأحزاب هي اللاَّفتة للنَّظر في تركيزها على النَّبي ﷺ وقضاياه، ومن الموضوعات التي كتبت في سورة الأحزاب هي:

ــ " دراسة النَّظم القرآني في سورة الأحزاب" من إعداد الطالب حسن عثمان يوسف عدوان.

قُدِّمت هذه الرِّسالة استكمالاً لمتطلَّبات الحصول على درجة الماجستير في جامعة النَّجاح الوطنيَّة قسم أصول الدين بفلسطين المحتلَّة، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

تحدَّث الطَّالب في الفصل الأول عن تعريف سورة الأحزاب، وتعريف النَّظم القرآني، ثمَّ تناول في الفصل الثاني الجملة الخبريَّة، ثم الذي يليه الجملة الإنشائيَّة، ثم الأخير بلاغة التَّركيب.

ومع أنَّ الباحث عرَّف بسورة الأحزاب، إلاَّ أنَّه مرَّ على هذه التَّعاريف بشكل سريع، وغفل عن جوانب مهمَّة تتعلَّق بالسُّورة، فمثلاً في علم المناسبات لم يتوسَّع في ذكرها، كالتي

---

[١] اقترح علي بعض أساتذة الكلية حفظهم الله أن تكون الدراسة شاملة أي: النبي ﷺ في القرآن الكريم، دراسة موضوعية، لكن أجبتهم أن هذه الدراسة ستكون في مجلدات إذا درست في جميع القرآن الكريم، وأن الدراسات الحديثة حاليا تميل إلى الدراسة العمودية التي تتسم بالتعمق، والدقة في النتائج بدل الأفقية التي تتصف بالشمول والعموم.

تتعلَّق بالسُّورة بما قبلها وما بعدها، ولم يذكر المناسبات في مقاطع السُّورة، وكذلك أغفل ذكر المناسبة بين افتتاحيَّة السُّورة وختامها، ونفس الشيء في موضوعات السُّورة وتعريفات السُّورة.

إشكالية الدِّراسة:

تتمثَّل إشكاليَّة الدِّراسة فيما يلي:

ـ ما قدر النَّبي ﷺ عند الله ﷻ، وعند إخوانه من الأنبياء عليهم السَّلام؟

ـ ما حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته، وما يترتَّب عليها؟

ـ ما الخصائص التي اختُصَّ بها النَّبي ﷺ دون سائر أمَّته، وما دلالتها؟

ـ كان خلق النَّبي ﷺ القرآن، فما أخلاقه من خلال سورة الأحزاب؟

ـ فيم تتمثَّل بشريَّة النَّبي ﷺ؟

ـ ما منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة؟

كلّ هذه الإشكاليات وغيرها سيجيب عنها الباحث، في ضوء هذه السُّورة.

منهجيَّة الدِّراسة:

تعتمد هذه الدِّراسة الموضوعيَّة على المنهج العلمي القائم على:

ـ الاستقراء الكلِّي لما ورد في موضوع النَّبي ﷺ وجزئياته من خلال السُّورة، وحصر هذه المواضيع المتقاربة تحت عناوين معيَّنة والتَّدليل عليها من السُّورة، ومن غيرها بما يخدم الموضوع مباشرةً وبإيجاز.

ـ الاعتماد على الأسلوب التَّحليلي لفهم الآيات والوقوف على معانيها ودقائقها من خلال الرُّجوع إلى أمَّاتِ كتب التَّفسير.

ـ التَّركيز على الاستنباط وإيضاح وجه الرَّبط بين مواضيع هذه الآيات، وإثرائها بذكر الحِكم والفوائد بما يجعلها تلبِّي غرض الدِّراسة.

والمنهج أيضًا فيه تركيز على تفسير القرآن بالقرآن قدر الإمكان، والتَّنويع بين مناهج مختلف المفسِّرين ومدارسهم، وذكر ما صحَّ من الأحاديث النَّبوية بما يخدم الموضوع مباشرةً، والابتعاد عن الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، وإذا ذكرت حديثًا رواه الشَّيخان فإنِّي أكتفي بذكر الصَّحابي فقط، لصحَّة رجال الشَّيخين، بخلاف غيرهما فإنِّي أذكر السَّند كاملاً.

الرُّموز المستخدمة:

د. ط: دون طبعة./ د.ت: دون تاريخ. / د.ن: دون ناشر. /د.م: دون مكان نشر.

هـ: السنة الهجرية. / م: السنة الميلادية./ ص: الصفحة. / ص ص: عدة صفحات.

ت: تحقيق، وتعني أيضًا إذا كانت مقرونة بتاريخ: سنة الوفاة. ج: الجزء.

تحليل المصادر والمراجع

١ ـ صحيح البخاري:

لأمير المؤمنين في الحديث: محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخـاري(ت: ٢٥٦هـ)، الإمام الحافظ صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، وهو أوّل كتاب ألّف في الحديث الصَّحيح المجرَّد، رتَّبه صاحبه على أبواب الدِّين، بطريقةٍ فريدةٍ، جمع فيه نحوًا من: ٧٣٩٧ حديثًا مع المكرَّر، و ٢٧٦١ حديثًا بدون تكرير (في موضوع المتن).

تلقَّته الأمَّة بالقَبول، وعدَّه العلماء أصحَّ كتابٍ بعد كتاب الله ﷻ، وقد نال عنايةً فائقةً من العلماء على مدار الزَّمان، شرحًا وبيانًا، ومن أحسن شروحه وأهمِّها هو: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ).

وقد اعتمدت عليه اعتمادًا أوَّليًّا في تخريج الأحاديث، فإن وجدت الحديث فيه اكتفيت بصحَّته، وإلا انتقلت إلى غيره.

٢ ـ صحيح مسلم:

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ)، يعدُّ صحيحه في المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري، أخرج فيه الإمام مسلم (٧٢٧٥) حديثًا بالمكرَّر، و(٣٠٣٠) حديثًا بدون المكرَّر(في موضوع المتن).

اعتمد مؤلِّفه فيه على الصَّحيح من الأحاديث، ورتَّبه على أبواب الدِّين، وامتاز بصناعة الأسانيد من خلال جمع طُرق الحديث وجمع الشيوخ في مكانٍ واحد، وتحويل الأسانيد.

وقد تلقَّاه العلماء بالقَبول والاعتماد عليه، والاهتمام بشرحه، ومن أفضل شروحه: "المنهاج" للإمام النَّووي (ت: ٦٧٦هـ). وقد رجعت إليه في تخريج الأحاديث بعد صحيح البخاري.

٣ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

للإمام محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، يقع تفسيره في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير ويعدُّ من أقدم كتب التَّفسير بالمأثور التي وصلتنا، وكان بمثابة المرجع الأوَّل للمفسِّرين الذين عنوا بالتَّفسير بالمأثور، يقول السُّيوطي عنه: "وله التَّصانيف

العظيمة منها تفسير القرآن وهو أجلُّ التَّفاسير لم يؤلَّف مثله كما ذكره العلماء قاطبةً، وذلك لأنَّه جمع فيه بين الرواية والدراية"[١].

سلك ابن جرير في منهجه عند تفسيره للآيات هذا المسلك، بالبدء بقوله: "القول في تأويل قوله تعالى: "كذا وكذا" ثم يفسِّر الآية مستشهدًا بآيةٍ أو آيات، ثم يستشهد بما يرويه بسنده إلى رسول الله ﷺ وإلى الصَّحابة أو التَّابعين من التَّفسير بالمأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنَّه يعرض هذه الأقوال ثم يرجِّح بينها، وكثيرًا ما يرد على الرِّوايات التي لا تستند على أساسٍ من الصِّحة.

كما نجده يتعرَّض لناحية الإعراب إذا دعت الحاجة إلى ذلك، كما أنَّه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية مع ترجيح ما يختاره، ويهتمُّ بالقراءات.

ولأهمِّية هذا التَّفسير وقيمته العلمية فإنَّه وجد العناية والاهتمام من قبل المفسِّرين وطلاَّب العلم، وقد أفدت منه كثيرًا في تفسيره للآيات، وخاصَّةً عند إيراده الأقوال وترجيح الرَّاجح منها.

٤ ـ الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل:

للإمام أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، الإمام الحنفي مذهبًا، المعتزلي عقيدةً، الملقَّب بجار الله، يعدُّ هذا التَّفسير من أنفس التَّفاسير وأعظمها بلاغةً وإعجازًا وبيانًا، ودقةً في ألفاظه مع الإيجاز فيها والوفرة في معانيها، حتَّى وصفه بقوله:

إنَّ التَّفاسير في الدُّنيا بلا عددٍ وليس فيها لعَمْري مثل كشّافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالدّاء والكشّاف كالشّافي

ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصِّناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي ترجع معظمها إلى ما فيه من اعتزاليات.

فالزمخشري لغويٌّ مهتمٌ بالبلاغة والبيان، وبارعٌ في النَّحو، استخدم جميع هذه المهارات في تفسيره، لكنَّه كان قليل التَّعرض للمسائل الفقهيَّة عند تناوله لآيات الأحكام.

ويؤخذ عليه أنَّه يحتجُّ أحيانًا بالأحاديث الضَّعيفة والموضوعة، والقراءات الشَّاذَّة، والإسرائيليات ولا سيما في فضائل السُّور، إذ كان يورد في نهاية تفسير كلِّ سورة الأحاديث التي تشير إلى فضلها وثواب قراءتها ومعظمها موضوع.

وقد أفدت منه كثيرًا في مجال البلاغة واللُّغة والإعراب.

---

[١] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، طبقات المفسرين، ت: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ، ج١، ص٩٦.

٥ـ التَّفسير الكبير أو ما يسمى بـ: مفاتيح الغيب.

للإمام محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، ويعدُّ تفسيره عمدة التَّفاسير العقلية للقرآن، مستخدمًا فيه الأدلَّة العقلية، والأقوال النَّظرية، وأسلوب الحوار.

اعتمد منهجه على الرَّأي المحمود، فكان يكثر من الاستطراد، والمسائل الكلامية العقدية، وكان يرد بها على المذاهب الزَّائفة من ملحدين وماديِّين، وكان يدحض أقوال أهل الفرق الأخرى من معتزلة وشيعة.

اهتمَّ الرازي في تفسيره، بمسائل العقيدة، وبعلم المناسبات، وباللُّغة، وبالاستطرادات المختلفة كعلم الكلام والفلسفة، والعلوم الكونية.

وقد أفدت من تفسيره في مجال منهجيَّة الأدلَّة العقليَّة.

٦ ـ الجامع لأحكام القرآن:

للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٨١هـ)، وتفسيره هذا يعدُّ أجمع كتب التَّفسير في الأحكام الفقهيَّة، فقد اعتنى فيه عنايةً فائقةً بالمسائل الفقهيَّة، وبيان آراء العلماء ومذاهبهم.

اعتمد منهجه على الجمع بين التَّفسير بالمأثور والتَّفسير بالمعقول، لكن كان تركيزه الأكثر على ما هو منصوص عليه في عنوان تفسيره، أي: على الأحكام الفقهيَّة، فكان إذا ذكر آيةً قال: في هذه الآية كذا وكذا من مسألة، فيبدأ بذكر المسائل مسألةً مسألةً مع بيان الخلافات فيها والتَّرجيح بين الأقوال.

اهتمَّ في تفسيره بالقراءات، وأوجه الإعراب، وأسباب النُّزول، والنَّاسخ والمنسوخ، وكذلك المعاني اللُّغوية والبلاغية.

وقد أفادني تفسيره كثيرًا وخاصَّةً في مجال الفقهيَّات.

٧ ـ تفسير القرآن العظيم:

لأبي الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، ويعدُّ تفسيره من أصحِّ الكتب في التَّفسير بالمأثور، حيث نبَّه فيه على الإسرائيليات وفنَّدها.

اعتمد منهجه على التَّفسير بالمأثور، فكان يفسِّر الآية ويوضِّحها بآيةٍ أو آياتٍ أخر، ويفسِّر القرآن بالحديث، وخاصَّةً المرفوع منه، ويذكر معظم الأحاديث مسندةً، مع ذكر من أخرج الحديث من أصحاب السُّنن، وكان يذكر أقوال الصَّحابة والتَّابعين عند تفسيره للآيات.

كما تعرَّض في تفسيره إلى علم أسباب النُّزول، وعلوم اللُّغة، لكنَّه في جانب الاستنباطات الفقهيَّة مقلّ.

وقد اعتنى العلماء المعاصرون بتهذيبه واختصاره، وحذف الأسانيد منه، وممَّن اعتنى به: محمد علي الصَّابوني والذي قام باختصاره في ثلاثة أجزاء، وسمَّاه مختصر ابن كثير.

وأهمُّ ما ميَّز تفسير ابن كثير الدِّقَّة في إيراد الأسانيد، وبساطة عباراته ووضوح أفكاره، وقد رجعت إليه في بيان كثيرٍ من الآيات.

٨ ـ تيسير التَّفسير:

للشيخ محمد بن يوسف اطفيش (ت: ١٣٣٢هـ)، الإباضي مذهبًا، والجزائري موطنًا.

اعتمد في تفسيره على منهج التَّفسير بالمأثور والمعقول، وكان مهتمًّا أيضًا بالمسائل النَّحوية واللُّغوية والبلاغيَّة اهتمامًا بالغًا، كما اعتنى في تفسيره ببيان أوجه القراءات مع توجيهها، وبالأحكام الفقهيَّة وتفريعاتها، فهو يتَّفق مع أهل السُّنَّة في الأصول، وفي الفروع يختلف، فخلافه كالخلاف بين أصحاب المذاهب الأربعة أنفسهم، كما يعتقد صاحب التَّيسير بالعقيدة الإباضيَّة التي تنفي رؤية الله سبحانه نفيًا قاطعًا، ولا تجيز شفاعة الرَّسول ﷺ لأهل الكبائر من أمَّته، وتقول بخلود أصحاب الكبيرة في النَّار.

وممَّا يؤخذ على تفسيره كثرة ذكره للإسرائيليات مع التَّوسُّع فيها، وإطنابه في القضايَا التي ليس مجالها التَّفسير.

وقد أفدت منه في بعض مسائل البحث.

٩ ـ في ظلال القرآن:

للشَّهيد: سيد قطب (ت:١٣٨٧هـ/ ١٩٦٦م)، ويعدُّ تفسيره من أحسن التَّفاسير في المجال الدَّعوي والتَّربوي.

نهج سيد في كتابه الظِّلال منهجًا جديدًا يختلف عمَّن سبقه في التَّفسير، فكان يعيش في ظلال الآيات القرآنية وما تنطوي عليها من دلالات، فكان يبدأ كلامه بخلاصة عن السُّورة وما تتضمَّنه من موضوعات، ويربط ذلك بأفكارٍ جديدة، ثمَّ يبدأ بعرض إيحاءات الآيات متسلسلاً حتَّى نهاية السُّورة، غير غافل في كلِّ ذلك عن المنهج الدَّعوي التَّربوي، مركِّزًا على توجيه وتفعيل الآيات على حسب الوقائع لتخدم المجتمع والإنسانية.

من أهمِّ ما ميَّز تفسيره إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وتطبيقها على سور القرآن الكريم وآياته، وإظهار التَّناسب الموضوعي في موضوعات السُّورة، والتَّناسق الفنِّي في صياغتها وأساليب عرضها، وإعطائه نظرات جديدة حول الآيات، ولهذا كان اعتمادي عليه كثيرًا في الرِّسالة.

١٠ــ التَّحرير والتَّنوير:

للعلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هــ)، يعدُّ هذا الكتــاب مــن أجــلِّ كتــب التَّفسير المعاصرة.

نهج ابن عاشور في تفسيره منهج الجمع بين التَّفسير بالمأثور والتَّفسير بــالرَّأي، وكــان يفسِّر الآية بعبارةٍ واضحةٍ سهلة، مع اعتنائه بالبلاغة واللُّغة، وكان مهتمًّا ببيان علاقــة الآيــات بعضها مع بعض حسب ترتيبها، وكان اهتمامه أيضًا بالمسائل الفقهيَّة كبيرًا، وباللَّطائف القرآنية، فهو ممَّن جمع بين أصالة الفكر وحداثة الرَّأي.

اعتمدتُ على التَّحرير والتَّنوير اعتمادًا كبيرًا في دراستي لتلبيته ما احتجت إليه في كثير من المسائل، وخاصَّةً في مجال القضايَا اللُّغوية واللَّفتات البيانيَّة، وبتوسُّعه فــي الموضــوعات، لأنِّي رأيت أنَّ معظم المفسِّرين الأوائل يبذلون قصارى جهدهم في التَّوسُّع والبيان فــي بــدايات تفسيرهم، بينما يضعف جهدهم إذا ما قاربوا النِّهاية وأغلبهم كان إذا تطرَّق لبعض المسائل فإنَّــه يحيل بيانها إلى ما أشار إليه في بدايات تفسيره، أمَّا ابن عاشور فكان بخلاف ذلك فقد كان نفــسه طويلاً مستمرًّا على نفس الوتيرة بالشَّرح والبيان إلى آخر سورة.

الفصل التَّمهيدي

بين يدي سورة الأحزاب

ويشمل المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريفات السُّورة.

المبحث الثاني: مناسبات السُّورة.

المبحث الثالث: موضوعات السُّورة.

الفصل التَّمهيدي: بين يدي سورة الأحزاب

جرت عادة الباحثين قبل أن يطرقوا موضوعًا متعلقًا بسورة معيَّنة، أن يمهِّدوا لذلك بالحديث عن تسمية السُّورة، وسبب نزولها، وعدد آياتها، والمناسبات فيها، وموضوعاتها، وغير ذلك.

وتعدُّ هذه الدِّراسة التَّمهيديَّة مقدِّمة أساس في الدُّخول للموضوع المراد دراسته؛ إذ تمكِّننا من الإحاطة بالسُّورة، وتعيننا على فهم موضوعاتها فهمًا دقيقًا، مع إيجاد بعض اللَّطائف والفوائد التي تُضْفِي على الموضوع جمالاً.

المبحث الأول: تعريفات السُّورة.

يقدِّم هذا المبحث نظرةً عامَّة حول ما يختصُّ بسورة الأحزاب من تعريفات، كمعرفة اسم السُّورة، والسَّبب في تسميتها، وعدد آياتها، وزمن نزولها، ومكان نزولها، ومعرفة الأوضاع الاجتماعية قبل نزول السُّورة.

المطلب الأول: اسم السُّورة، والسَّبب في تسميتها.

أولا: الاسم التَّوقيفي:

سمّيت هذه السُّورة باسم سورة الأحزاب ولم يعرف لها اسم توقيفي غيره، وقد وردت هذه التَّسمية في المصاحف، وكتب التَّفسير، والسُّنَّة[1].

فمجيء هذه التَّسمية في المصاحف العثمانية التي تمَّ نسخها، ولم يعرف لها اسم غيره، وإجماع من كتب في التَّفسير على تسميتها بهذا الاسم، وورودها في كتب السُّنَّة بهذه التَّسمية في أحاديث كثيرةٍ هو دليل على أنَّ اسم السُّورة توقيفي.

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن زيد بن ثابت قال:

«فَقَدْتُ آيَةً من الْأَحْزَابِ حين نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ قد كنت أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بها فَالْتَمَسْنَاهَا

---

[1] انظر: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ج٢١، ص١٧٥.

فَوَجَدْنَاهَا مع خُزَيْمَة بن ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[١]، فَأَلْحَقْنَاهَا في سُورَتِهَا في الْمُصْحَف»[٢].

فهذا الحديث الصَّحيح يحمل نصًّا صريحًا من أحفظ الصَّحابة، وأضبطِهم، وهو من كتبة الوحي أيضًا أنَّه فقد آيةً من سورة سمَّاها بالأحزاب.

والنَّاظر في القرآن يجد أيضًا أنَّ أغلب أسماء السُّور قد وردت الإشارة إليها في ثناياها[٣]، فاسم هذه السُّورة ورد ذكرها في ثناياها ثلاث مرَّات [٤]، وهذا ما يؤكِّد أنَّ هذه التَّسمية توقيفيَّة.

يقول السيوطي: «وينبغي النّظر في اختصاص كل سورة بما سمِّيت به، ولا شكَّ أنَّ العرب تراعي في كثير من المسمَّيات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشَّيء من خُلق أو صفة تخصّه أو يكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرَّائي للمسمَّى، ويُسمُّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطَّويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن كتسميةِ سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصَّة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها»[٥].

---

[١] سورة الأحزاب: ٢٣.

[٢] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج٤، ص١٩٠٨، حديث رقم ٤٧٠٢.

[٣] جميع أسماء سور القرآن محتواة أسماؤها في ثناياها، باستثناء سور: الفاتحة والأنبياء والإخلاص، ولو أن لهذه السور الثلاث مدلولاتها، فسورة الفاتحة سميت بذلك لأنها فاتحة هذا الكتاب، وأما سورة الأنبياء فقد ساقت لنا ثلة من الأنبياء ولو أنها لم تذكر لفظة الأنبياء أو مشتقاتها في ثنايا السورة، وأما سورة الإخلاص فقد تحدثت عن إخلاص الوحدانية لله سبحانه.

فنخلص من هذا أن جميع أسماء سور القرآن توقيفية وردت أسماؤها أو اشتقاقها في ثناياها، باستثناء السور الثلاث، والله أعلم.

[٤] وردت لفظة الأحزاب في سورة الأحزاب في ثلاثة مواضع هي: ١ـ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا، ٢ـ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ، ٣ـ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ.

[٥] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ت: سعيد المندوب، ط١، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٦م، ج١، ص١٥٦.

ثانيا: الاسم الاجتهادي.

ذكر الزحيلي اسمًا آخر للسُّورة، وهو: "الفاضحة" لأنَّها افتضحت المنافقين، وأبانت شــدَّة إيذائهم لرسول الله ﷺ في أزواجه وتألُّبهم عليه في تلك الموقعة [١].

فما دام الأمر محلّ اجتهاد ونظر وهو أهل لذلك، فإنِّي أوافقه على هذه التَّسمية منه؛ لأنَّ إيجاد التَّسمية لا يتأتَّى إلاَّ بالغوص والتَّدبُّر العميق في أجواء السُّورة لذا فهو بعيد المنال.

وفي هذا يقول الزركشي: "وينبغي البحث عن تعداد الأسامي هل هــو تــوقيفي أو بمــا يظهر من المناسبات، فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معــاني كثيــرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد" [٢].

ويمكن أن نُدرك اسمًا اجتهاديًّا للسُّورة وذلك من خلال القراءة المتأنِّيــة لهــا ونُــسمِّيها بـــ**السُّورة الفاصلة**؛ وذلك أنَّها فصلت في عدَّة قضايَا منها:

١ ــ أنَّ سورة الأحزاب مدنيَّة وقد فصلت بين واحد وعشرين سورة مكيَّة متفــقٌ علــى مكِّيتها [٣].

٢ ــ أنَّ غزوة الأحزاب تعتبر هي الفاصلة بين المعسكرين كما قال النَّبي ﷺ فــي يــوم الأحزاب: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَا» [٤].

---

[١] انظر: وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط ٢، دار الفكر المعاصــر، دمشق، ١٤١٨م، ج٢١، ص٢٢٥.

[٢] محمد بن بهادر الزركشي، أبو عبد الله (ت: ٧٩٤هــ)، البرهان في علوم القرآن، ت: محمــد أبــو الفــضل إبراهيم، د.ط، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هــ، ج١، ص٢٧٠.

[٣] من سورة الفرقان إلى سورة الأحقاف كلهن مكية، باستثناء سورة الأحزاب فهي مدنية. [انظر: المصدر ذاته، ج١، ص ص: ١٩٣ــ١٩٤. وانظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر ســابق، ج١، ص ص: ٣٨ ــ ٤٠].

[٤] سليمان بن أحمد الطبراني، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هــ)، المعجم الكبير، ت: حمدي بن عبد المجيــد الــسلفي، ط٢، مكتبة الزهراء، الموصل، ١٩٨٣م، ج٧، ص٩٨، حديث رقم ٦٤٨٤.

٣ ــ المفاصلة والتَّباين في المواقف الشَّديدة، فالمنافقون يوم الأحزاب قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[١]، والمؤمنون قالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا ﴾[٢].

٤ ــ أنَّ آيات السُّورة كانت فاصلةً في العديد من القضايا الفقهيَّة، منها:

أ ــ قضيَّة التَّبنِّي: أنَّ الدَّعيَّ ليس ابنًا شرعيًّا بحال، ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾[٣].

ب ــ قضيَّة الظِّهار: فالزَّوجة لا تصير أمًّا مهمَا بلغت، ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ ﴾[٤].

٥ ــ الفصل في تخيير أزواج النَّبي ﷺ بين زهرة الحياة الدُّنيا وزينتها أو بين اختيار الله ورسولِه والدَّار الآخرة.

٦ ــ الفصل في حكم تخيير أوامر الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾[٥].

إذن فتسمية السُّورة بالفاصلة هو مستنتج من أجواء السُّورة؛ إذ نحن مخاطبون بالتَّدبر والتَّعمُّق في آيات السُّوَر، ولا يعني أنَّ هذا الاسم الاجتهادي بديلاً عن التَّوقيفي، أو أن تُنادى باسمه السُّورة.

---

[١] سورة الأحزاب: ١٢.

[٢] سورة الأحزاب: ٢٢.

[٣] سورة الأحزاب: ٤ ــ ٥.

[٤] سورة الأحزاب: ٤.

[٥] سورة الأحزاب: ٣٦.

ثالثا: السَّبب في تسميتها.

الأحزاب: لغة من: "ح ز ب"، "وحِزْبُ الرَّجل أصحابه، والحزب أيضًا الوِرْد، ومنه أحْزَابُ القرآن، والحِزْبُ أيضًا الطَّائفة، وتحزَّبوا تجمَّعوا، والأحْزَابُ الطَّوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء ــ عليهم الصَّلاة والسَّلام ــ"[١].

أمَّا الأحزاب فالمراد بها هنا هم الذين تجمَّعوا على حرب النَّبي ﷺ وأصحابه، مع حصول الشِّدَّة والكرب نتيجة هذا التَّجمع الحاشد [٢].

وقد وردت الأحزاب في القرآن الكريم على ستَّة معانٍ، والمقصود بها هنا: "قبائل من العرب واليهود الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ يوم الخندق فقاتلوا في ثلاثة أماكن"[٣].

إذن فسورة الأحزاب لم تُسَمَّ بهذا الاسم إلا لقرينة وَقعَة الأحزاب، وعظيم مشهدها.

المطلب الثاني: عدد آيات السُّورة، وزمن نزولها، ومكان نزولها.

أولا: عدد آيات السُّورة.

عدد آيات سورة الأحزاب ثلاث وسبعون آيةً باتّفاق أصحاب العدد [٤].

وممَّا هو جديرٌ بالتَّوقف عنده في هذا الصَّدَد بما يتعلَّق بعدد آي السُّورة؛ أريد أن أنقل بعض كلام أهل العلم الذين نقدوا بعض الرِّوايات التي تناقلتها بعض كتب التَّفسير [٥]، وبعض

---

[١] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت: ٧٢١هـ)، مختار الصحاح، ت: محمود خاطر، د.ط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص٥٦. مادة: ح ز ب.

[٢] انظر: عبد الحق بن غالب بن عطية، أبو محمد (ت: ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٣م، ج٤، ص٢٧٧. وانظر: محمد بن أحمد القرطبي، أبو عبد الله (ت: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، د.ط، دار الشعب، القاهرة، د.ت، ج١١، ص١٠٨.

[٣] الحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ت: عبد العزيز سيد الأهل، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، ص١٢٦.

[٤] انظر: محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر (ت: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٢١، ص١١٧. وانظر: الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، معالم التنزيل، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ج٢١، ص١١٧. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص١٧٥.

[٥] يذكر بعض المفسرون هذه الروايات في بداية تفسيرهم لسورة الأحزاب. [انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١١٣. وانظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء (ت: ٧٧٤هـ)، تفسير

كتب علوم القرآن [١]، والتي تعوَّدوا ذكرها دائمًا في هذا المقام، وهي ذكرهم للكمِّ الهائل من النَّسخ الذي وقع في السُّورة، وذكر رواية الرَّجم [٢]، ومن هذه الرِّوايات ما يلي:

الرِّواية الأولى: روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا عبد اللَّهِ ثنا خَلَفُ بن هِشَامٍ ثنا حَمَّادُ بن زَيْدٍ عن عَاصِمِ بن بَهْدَلَةَ عن زِرٍّ قال: قال لي أبي بن كَعْبٍ: «كأين تَقْرَأُ سُورَةَ الأَحْزَابِ أو كأين تَعُدُّهَا؟ قال: قلت له: ثَلاَثاً وَسَبْعِينَ آيَةً. فقال: قَطُّ، لقد رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فيها الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[٣].

الرِّواية الثَّانية: ذكر السُّيوطي في الإتقان رواية عن عائشة قالت: «كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النَّبي ﷺ مائتي آية فلمَّا كتب عثمان المصاحف لم يقدر فيها إلاَّ على ما هي الآن»[٤].

مناقشة الروايتين:

يقول دَروَزة في تفسيره: "حديث عائشة صريحٌ بأنَّها تقصد أنَّ إسقاط معظم السُّورة كان في زمن عثمان.

والحديثان غير موثَّقين ولم يردا في كتب الأحاديث الصَّحيحة والتَّوقف فيهما أولى.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ مصحف عثمان إنَّما نقل عن المصحف الذي حُرِّر في زمن أبي بكر ــ رضي الله عنهما ــ فلم يكن أيّ احتمال لإسقاط معظم السُّورة من مصحف عثمان، ولقد كانت عائشة ذات شخصيَّةٍ قويَّة، ومن مراجع فهم القرآن والسُّنَّة، ولا يعقل أن تسكت عن هذا الإسقاط لو كان واقعًا، ولا يعقل أن يُهمل اعتراضُها.

القرآن العظيم، د.ط، دار الفكر، بيروت، ج٣، ص٤٦٦. وانظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الدر المنثور، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ج٦، ص٥٥٨].

[١] أما من ألف في علوم القرآن فيذكرها في باب النسخ. [الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج٢، ص٣٥. وانظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦].

[٢] الأصل أن نسمي هذه برواية الرجم، وليس بآية الرجم. لأن للآية ميزات وخصائص ليست لغيرها.

[٣] أحمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله (ت: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، حديث زرِّ بن حُبَيْشٍ عن أبي بن كَعْبٍ، ج٥، ص١٣٢، حديث رقم ٢١٢٤٥.

[٤] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦.

...ونحن نشكُّ أن يكون قد وقع نسخ آياتٍ، أو فصولٍ كثيرة من السُّورة في عهد النَّبـــي ﷺ؛ لأنَّ مثل هذا الحادث الخطير لا يُعقل أن لاّ يرد فيه روايات وثيقة تحتوي بيانات وافية"[١].

وممَّا يدلُّ على ضعف الرِّواية الأولى، اختلافها مع كثير مـــن الرِّوايـــات الأخـــرى؛ إذ الأصل أن تحفظ الرِّواية المنسوخة بنصِّها، لا أن تـــروى بزيـــاداتٍ مختلفـــة، فمـــثلاً مـــا رواه الطبراني في معجمه الكبير قال: حدثنا عبد الرحمن بن مُعَاوِيَةَ الْعُتْبِيُّ ثنا يحيى بـــن بُكَيْـــرٍ ثنـــا اللَّيْثُ بن سَعْدٍ عن خَالِدِ بن يَزِيدَ عن سَعِيدِ بن أبي هِلالٍ عن مَرْوَانَ بن عُثْمَانَ عن أبي عُثْمَـــانَ عن أبي أُمَامَةَ بن سَهْلِ بن حُنَيْفٍ عن خَالَتِهِ الْعَجْمَاءِ قالت: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ بِمَا قَضَيَا مِنَ اللَّذَّةِ»[٢].

الرِّواية الثَّالثة: وروي عن عائشة أنَّها قالت: «لقد نَزَلَتْ آيَةُ الـــرَّجْمِ ورضَـــاع الكبيـــر عشرًا فَكَانَتَا في صَحِيفَةٍ تَحْتَ سَرِيري فلمَّا مَاتَ رسول اللَّهِ ﷺ تَـــشَاغَلْنَا بِمَوْتِـــهِ فَـــدَخَلَ دَاجِـــنٌ فَأَكَلَهَا»[٣].

مناقشة هذه الرواية:

يقول الزمخشري والقرطبي: "وأمَّا ما يحكى أنَّ تلك الزِّيادة كانت في صحيفة فـــي بيـــت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ فأكلتها الدَّاجن فمن تأليفات الملاحدة والرَّوافض"[٤].

ويقول ابن عاشور: "ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف، فإنَّه لو صُدِّق هذا لكانـــت هـــذه الصَّحيفة قد هلكت في زمن النَّبي ﷺ أو بعده، والصَّحابة متوافرون وحفَّاظ القرآن كثيرون، فلـــو تلفت هذه الصَّحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفَّاظ، وكون القرآن قد تلاشى منه كثيـــر هـــو

---

[١] محمد عزة دروزة (ت: ١٤٠٤هـ)، التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٧، ص٣٤٦.

[٢] الطبراني، المعجم الكبير، مصدر سابق، ج٢٤، ص٣٥٠، حديث رقم: ٨٦٧. ونفس الحديث ذكره النسائي في السنن الكبرى دون لفظ إذا زنيا.

[٣] سليمان بن أحمد الطبراني، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)، المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله، وعبد المحسن بن إبراهيم، د.ط، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، ج٨، ص١٢، حديث رقم ٧٨٠٥. ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد أبو محمد (ت: ٤٥٦هـ)، المحلى، حققته لجنة إحياء التراث العربي، د.ط، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ج١١، ص ص: ٢٣٥ ــ ٢٣٦.

[٤] محمود عمر الزمخشري، أبو القاسم (ت: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت: عبد الرزاق المهدي، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت، ج٣، ص٥٢٦. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١١٣.

أصل من أصول الرَّوافض ليطعنوا به في الخلفاء الثّلاثة، والرَّافضة يزعمون أنَّ القرآن مستودعٌ عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير"[١].

مناقشة روايات الرَّجم بشكل عام:

يقول صاحب إتقان البرهان بعد عرضه للأدلَّة ما مُلخَّصه:

ــ القول بأنَّ الشَّيخ والشَّيخة آية ليس فيه روايةٌ صحيحة يستند إليها ويعتمد عليها.

ــ ألفاظ القرآن الكريم ألفاظٌ مختارةٌ منتقاة، ومعانيه صحيحةٌ محكمة، والشَّيخ والشَّيخة ليس فيها هذا ولا ذاك: فآية السَّرقة بدأت بالرِّجال، وبالنِّساء في أمر الزِّنا، وفي الشَّيخ والشَّيخة غير هذا (عكس آية النُّور)، وفي القرآن لم تستعمل فيه كلمة الشَّيخة ألبتَّة، والمستعمل فيه كلمة عجوز.

ــ ذكرت رواية الرَّجم (الشَّيخ والشَّيخة) ولم تقيِّد ذلك بالإحصان أو عدمه، ولم تذكر الشَّابَّ والشَّابَّة إذا زنيا، والمعروف أنَّ حدَّ الرَّجم يقام على الزَّاني المحصن المكلَّف بغضِّ النَّظر عن سِنِّه.

ــ القرآن الكريم لا يثبت إلاَّ بالتَّواتر، وهذه أخبار آحاد لا يثبت بها قرآن [٢].

ونزيد أيضًا: ما الضَّابط لمعرفة الشَّيخ والشَّيخة، وخاصَّةً وأنَّ هذا حدٌّ فيه إزهاق الرُّوح، والقرآن قد فصَّل في مثل هذه القضايَا كالقتل والقصاص؟ وهل استدلَّ العلماء على فعل الرَّجم بهذه الآية المنسوخة في زعم من زعم، أم بفعل الرَّسول ﷺ.

ولهذا لا ينبغي أن يتشاغل النَّاس بهذه المرويات لأنَّها لا طائل تحتها، وإحجامهم عنها أفضل وأسلم، وحسبهم في ذلك نصوص كتاب الله المحفوظة، وسنَّة نبيِّه الصَّحيحة.

أرجع وأقول: ولهذا لمَّا كان عدد آيات سورة الأحزاب ثلاثًا وسبعين آيةً عدَّت من المثاني، والمثاني كما يعرِّفها الزَّرقاني: "هي التي تلي المئين في عدد الآيات، وقال الفرّاء: هي السُّور التي آيها أقلّ من مائة آية لأنَّها تثنى، أي: تكرَّر أكثر ممَّا تثنى الطِّوال والمئون"[٣].

---

[١] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص ص: ١٧٦ ــ ١٧٧.

[٢] انظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٧م، ج٢، ص ص: ٥٠ ــ ٥١.

[٣] محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط١، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٦م، ج١، ص٢٤٣.

ثانيًا: زمن نزول السُّورة:

يمكن تحديد زمن نزولها من خلال معرفة تاريخ غزوة الأحزاب، فعلى قـول جمهـور العلماء إنَّ غزوة الأحزاب وقعت في شوال سنة خمس من الهجرة النَّبويَّة، روى البيهقـي فـي سننه الكبرى بسنده عن ابن إسحاق قال: «كانت غزوة الخندق في شوَّال سنة خمسٍ» [١].

وقال ابن كثير: "إنَّ غزوة الخندق كانت في شوَّال سنة خمسٍ من الهجرة على الصَّحيح المشهور" [٢]، فينتفي بذلك قول من قال: "إنَّها في شوَّال سنة أربعٍ للهجرة" [٣].

وسبب الاختلاف راجعٌ كما يذكر ابن حجر إلى أنَّ بعض السَّلف كانوا يعـدُّون التَّـاريخ من المحرَّم الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، ويترتَّب علـى هذا أنَّ غزوة بدر الكبرى كانت في السَّنة الأولى، وأنَّ غزوة أحد كانت في الثَّانية وأنَّ الخنـدق كانت في الرَّابعة، وهذا عملٌ صحيح على ذلك البناء؛ لكنَّه بناءٌ واه مخالفٌ لما عليـه الجمهـور من جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في الثَّانية، وأحدٌ فـي الثَّالثـة، والخندق في الخامسة وهو المُعتمد[٤].

وعليه فإنَّ زمن نزول سورة الأحزاب كان في السَّنة الخامسة للهجرة بعد وقعة الأحزاب لحديث السُّورة عنها.

ومن جملة ما يمكن ذكره في زمن نزول السُّورة أنَّها نزلت شتاءً؛ لأنَّ وقعة الأحـزاب كانت في ليلةٍ شديدة البرد، روى الحاكم في مستدركه بسنده عن حذيفة بن اليمان ــ رضـي الله عنهما ــ أنَّ النَّاس تفرَّقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فلم يبق معه إلا اثنـا عـشر رجـلاً فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جاثٍ من البرد وقال: يا ابن اليمان قُم فانطلق إلى عـسكر الأحـزاب فانظر إلى حالهم، قلت يا رسول الله: والذي بعثك بالحقِّ ما قمت إليك إلا حياءً منك من البـرد»، فلمَّا انطلق إلى معسكر أبي سفيان ورجع قال: «يا رسول الله: تفرّق النَّاس عن أبي سفيان؛ فلـم

---

[١] أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر (ت: ٤٥٨هـ)، سنن البيهقي الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطـا، د.ط، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، كتاب الحجر، باب البلوغ بالسن، ح رقم ١١٠٨٨، ج٦، ص٥٦.

[٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧١.

[٣] قال بذلك جماعة منهم الإمام مالك بن أنس،[ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص١٠٧].

[٤] انظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل (ت: ٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صـحيح البخـاري، ت: محب الدين الخطيب، د.ط، دار المعرفة، بيروت، ج٧، ص٣٩٣.

يبق إلا عصبة توقد النَّار قد صبَّ الله عليه من البرد مثل الذي صبَّ علينا ولكنَّا نرجو من الله ما لا يرجو»[١].

فالشَّاهد في الحديث: قول حذيفة: وأنا جاثٍ من البرد، وكذلك وصفه أبي سفيان لرسول الله ﷺ قائلاً: قد صبَّ الله عليه من البرد مثل الذي صبَّ علينا.

ثالثًا: مكان نزول السُّورة:

اتَّفق العلماء أنَّ سورة الأحزاب كان نزولها بالمدينة [٢].

فسورة الأحزاب كلُّها مدنيَّة، ولكنَّ نزولها لم يكن جملةً واحدةً لأدلَّةٍ أوجزها فيما يلي:

١ـ تأخُّر النَّاسخ على المنسوخ في النّزول وهذا التَّأخر والتَّراخي لا بدَّ له من فاصل زمني وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ [٣]، فهذه الآية متأخِّرة في النُّزول وناسخة للآية: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ﴾ [٤].

ودليل وقوع النَّسخ في هذه الآية الأخيرة هو ما ثبت خبره عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: «ما توفِّي رسول الله ﷺ حتّى أحلّ الله له أن يتزوَّج من النِّساء ما شاء»[٥].

---

[١] محمد بن عبد الله النيسابوري، أبو عبد الله (ت: ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ، كتاب المغازي والسرايا، ج٣، ص٣٣، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[٢] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١١٣. وانظر: محمد بن أحمد ابن جزي الغرناطي، (ت: ٧٤١هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، ط٤، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٨٣م، ج١، ص٥.

[٣] سورة الأحزاب: ٥٠.

[٤] سورة الأحزاب: ٥٢.

[٥] محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، دط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت. ج٥، ص٣٥٦، حديث رقم: ٣٢١٦، قال أبو عيسى هذا حديث حسن. أحمد بن شعيب النسائي، أبو عبد الرحمن (ت: ٣٠٣هـ)، سنن النسائي الكبرى، ت: عبد الغفار سليمان وغيره، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، كتاب النكاح، ذكر أمر النبي ﷺ وأزواجه في النكاح وما أباح الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ وحظره على خلقه زيادة في كرامته وتبيينا لفضله، ج٣، ص٣٦١، حديث رقم ٥٣١٤.

يقول القرطبي: "والإحلال يقتضي تقدم حظر، وزوجاته اللاَّتي في حياته لم يكنَّ محرَّمات عليه؛ وإنَّما كان حرم عليه التَّزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن"[١]

٢ ــ نزول آية آداب الدُّخول على بيوت النَّبي ﷺ مستقلَّةً إثر حادثةٍ وقعت فنزلت الآية بعدها.

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أنَسٍ قال: «لمَّا تَزَوَّجَ النبي ﷺ زَيْنَبَ أهْدَتْ له أمُّ سُلَيْمٍ حَيْسًا[٢] في تَوْرٍ[٣] من حِجَارَةٍ فقال أنَسٌ: فقال رسول اللَّهِ ﷺ: اذْهَبْ فَادْعُ لي من لَقِيتَ من الْمُسْلِمِينَ، فَدَعَوْتُ له من لَقِيتُ، فَجَعَلُوا يَدْخُلُونَ عليه فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، وَوَضَعَ النبي ﷺ يَدَهُ على الطَّعَامِ فَدَعَا فيه وقال فيه ما شَاءَ الله أنْ يَقُولَ، ولم أَدَعْ أَحَدًا لَقِيتُهُ إلا دَعَوْتُهُ، فَأَكَلُوا حتي شَبِعُوا، وَخَرَجُوا وَبَقِيَ طَائِفَةٌ منهم فأطالوا عليه الحديث، فَجَعَلَ النبي ﷺ يَسْتَحْيِي منهم أنْ يَقُولَ لهم شيئا، فَخَرَجَ وَتَرَكَهُمْ في الْبَيْتِ فَأَنْزَلَ الله عز وجل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ عَزَلْتَ.. إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[٤]» [٥].

فهذا الحديث الصَّحيح يحمل الصِّيغة السَّببيَّة الصَّريحة في سبب نزول الآية مستقلةً إثر حادثةٍ واقعة، وهذه الحادثة تدلُّ أنَّ السُّورة لم تنزل دفعةً واحدةً.

٣ ــ ما ورد عن النَّبي ﷺ أنَّه: «كان ينزل عليه القرآن خمسًا خمسًا، إلاَّ سورة الأنعام فإنَّها نزلت عليه جملةً واحدةً» [٦].

---

[١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص٢٠٦.

[٢] الحيس هو: الأقط والتمر والسمن يخلط ويعجن. [انظر: يحي بن شرف النووي، أبو زكريا(ت: ٦٧٦هـ)، شرح النووي على صحيح مسلم، ط٢، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٩٢هـ، ج٩، ص٢٢٢].

[٣] والتور بتاء مثناة فوق مفتوحة ثم واو ساكنة إناء مثل القدح. [المصدر ذاته، ج٩، ص٢٣١].

[٤] سورة الأحزاب: ٥٣.

[٥] مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسين (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب النكاح، باب زواج زينب ونزول الحجاب...، ج٢، ص١٠٥٢. حديث رقم: ١٤٢٨.

[٦] أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر(ت: ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٤٧١، حديث رقم٢٤٣٥. علي بن عبد الملك الهندي الشهير بالمتقي (ت: ٩٧٥هـ)، كنز العمال، ت: محمود عمر الدمياطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص١٣٣، حديث ٤٠٦٩.

وبهذا نخلص إلى الأمور التالية:

ـ عدد آيات سورة الأحزاب: ٧٣ آية، وهي من المثاني.

ـ زمن نزول السُّورة: في شوَّال سنة خمسٍ من الهجرة، ويُرجَّح أنَّها نزلت شتاءً.

ـ مكان نزول السُّورة: المدينة المنوَّرة، ولم تنزل جملةً واحدةً.

المطلب الثَّالث: الأوضاع الاجتماعيَّة التي سبقت نزول السُّورة.

عاش المجتمع المدني قبل نزول سورة الأحزاب أوضاعًا مضطربةً، كان سببها انهزام المسلمين في غزوة أحد، وتعاظم كيد المنافقين واليهود في المدينة بعد هذه الهزيمة، إضافةً إلى ذلك تفشِّي بعض العادات والنُّظم الاجتماعية التي ترجع أصولها إلى المجتمع الجاهلي، وسنبيِّن ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: أوضاع معسكر العدو: وهم اليهود، وقريش، والمنافقون.

ذاق اليهود ألوانًا من الذّلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتِهم ودسائسِهم، وهذا عندما أجلى النَّبي ﷺ يهود بني النضير من المدينة وساروا إلى خيبر [١]، فحينها بدأت مؤامراتهم من جديد، وخاصَّةً وهم يرون أنَّ دولة الإسلام الفتيَّة بدأت في السَّيطرة على قبائل العرب الواحدة تلو الأخرى، وبسط نفوذها في الجزيرة العربيَّة، فهناك حقيقة بدأ التَّآمُر من جديد على المسلمين، وأخذوا في إعداد العدَّة.

فخرج نفرٌ من زعماء اليهود من بني النَّضير حتَّى قدموا مكَّة، فاستنفروا قريشًا لحرب رسول الله ﷺ وقالوا: سنكون معكم حتَّى نستأصله، وقالوا لهم إنَّ ما أنتم عليه خيرٌ من دين محمد ﷺ ففيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾[٢]، فأجابتهم قريش لذلك بعد أخْذٍ وردٍّ [٣].

---

[١] أمر إجلاء بني النضير كان سنة أربع، أي قبل وقعت الأحزاب بسنة. [انظر: عبد الملك بن هشام، أبو محمد (٢١٣هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، ت: طه عبد الرؤوف سعد، د.ط، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ، ج٤، ص١٤٣].

[٢] سورة النساء: ٥١.

[٣] ورد سبب نزول هذه الآية في: [النسائي، سنن النسائي الكبرى، مصدر سابق، ج٦، ص٥٢٤، حديث رقم: ١١٧٠٧. محمد بن حبان، أبو حاتم (ت: ٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، ت: شعيب الأرناؤوط، ط٢، دار الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ج١٤، ص٥٤٣، حديث٢٥٧٢].

ثمَّ خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشًا، فاستجابوا لذلك، ثم التقوا ببني فزارة وبني مُرّة، وتمَّ لهم مع هؤلاء جميعًا تواعد في الزَّمان والمكان، فنجح ساسة اليهود في تأليب أحزاب الكفر على النَّبي ﷺ ودعوته.

أمَّا قريش فقد أخفقت في تحرير طريق تجارتِها إلى الشَّام، رغم أنَّها أوقعت خسائر بالمؤمنين يوم أحد، فكانت ترقب الفُرصة المُواتية للقضاء على المؤمنين قضاءً مبرمًا، ووجدوا الفرصة مواتيةً لمَّا تحالفوا مع يهود بني النَّضير لحرب رسول الله ﷺ[١].

أمَّا عن المنافقين فهم أصحاب الأراجيف والإشاعات في المدينة، وقد بدأ يتعاظم خطرهم من الدَّاخل وينتشر داؤهم السَّرطاني كلَّما وجدوا لذلك فرصةً، ولكنَّ القرآن استمرَّ بفضح خِداعهم كلَّما ازداد نفاقهم حمايةً للدَّعوة الإسلامية منهم [٢]، وازدادت بلبلتهم وإطلاق شائعات التَّخويف والهزيمة في صفوف المؤمنين إثر حفر الخندق، لتنزل سورة الأحزاب [٣]، فتُسلِّط الضَّوء عليهم أكثر، فتفضح مكائدهم وجبنهم وخيانتهم، وتصفهم بأشنع الأوصاف: (المعوِّقين، سلقوكم بألسنةٍ حداد، أشحَّةً على الخير، ينظرون إليك تدور أعينهم، أولئك لم يؤمنوا...).

يقول سيد قطب: "يا للسُّخرية! ويا للتَّصوير الزَّري! ويا للصّورة المُضحكة! وإن يَّأت الأحزاب يودُّ هؤلاء الجبناء لو أنَّهم لم يكونوا من أهل المدينة يومًا من الأيَّام، ويتمنَّون أن لو كانوا من أعراب البادية، لا يشاركون أهل المدينة في حياةٍ ولا في مصيرٍ، ولا يعلمون حتَّى ما يجري عند أهلها.... مع أنَّهم قاعِدون، بعيدون عن المعركة، لا يتعرَّضون لها مباشرةً إنَّما هو الخوف من بعيد! والفزع والهلع من بعيد!"[٤].

---

[١] انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ط٢، دار الدعوة، الاسكندرية، ص٣٣٥. وانظر: صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٣٠هـ)، الرحيق المختوم، ط١٧، دار الوفاء للطباعة، مصر، ٢٠٠٥م، ص٢٦٧. وانظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ط ١١، دار الفكر، دمشق، ص٢١٣.

[٢] انظر موقفهم في أحد: يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٦٧ــ١٦٨].

[٣] لم يتعرض القرآن إلى ذكر المنافقين في غزوتي بدر وأحد في كل من سورتي الأنفال وآل عمران إلا مرة في كل سورة، أما من خلال سورة الأحزاب فقد أطال الحديث فيهم لانتشار وباء النفاق، وتعاظم خطرهم في المدينة، فكلما زاد اتساع النفاق زاد تشخيصه بالوحي لمعرفة أمره وأخذ الحيطة منه علاجا للمصابين، ووقاية لمن لم يصب به.

[٤] سيد قطب (ت: ١٩٦٦م)، في ظلال القرآن، ط٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٧م، ج٥، ص٢٨٤١.

ثانيًا: أوضاع العادات والنُّظم الاجتماعيَّة:

ساد في المجتمع المدني قبل نزول هذه السُّورة بعض الأعراف والأنماط السيِّئة في نِظامه وروابطه، ترجع إلى ما كانت تتمتَّع به قبل الإسلام، من ذلك:

أ ــ العلاقة الزَّوجيَّة: فقضيَّة الظِّهار كانت منتشرةً عندهم، وذلك بأن يحلف الرَّجل على امرأته أنَّها عليه كظهر أمِّه فتحرم عليه حرمة أمِّه.

ب ــ علاقة الأبُوَّة والبُنوَّة: قضيَّة التَّبنِّي غير الشرعيَّة، بأن يدَّعي الأب ابنًا له، وهو في الحقيقة ليس ابنه، فيرثه ويترتَّب عليه كامل حقوقه.

ج ــ علاقة المسلمين بنبيِّهم ﷺ: كالدُّخول على بيوته ﷺ بدون إذنه لتناول طعامه وبدون الدَّعوة إليه، والمكث للحديث بعد الأكل، وإلحاق أنواع الأذى به ﷺ.

هـ ــ حالُ نساءِ أهل المدينة: كالتَّبرُّج، والخضوع بالقول [(١)].

في مقابل ذلك كانت هناك روابط إيجابيَّة كالعلاقة الأخويَّة التي كانت بين المهاجرين والأنصار والتي أبرمها النَّبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة.

إذن: نفهم من الأوضاع الاجتماعية قبل نزول السُّورة أنَّ المجتمع المدني على كافَّة أصعِدته لم يكن يعرف بعد الهدوء والاستقرار التَّام حتى وقعت موقعة الأحزاب، ونزلت بعدها السُّورة التي سمِّيت باسمها، فنظَّمت بيت النُّبوَّة كإبطال تبنِّي النَّبي ﷺ لزيد، وعرض قضيَّة التَّخيير على نسائه، وفرض بعض الأحكام المتعلِّقة بهنَّ، ثم توسَّعت إلى المجتمع فعالجت قضايَا حُكْمِية كالتبنِّي والظِّهار والأخوَّة، وحاربت المشركين واستأصلت اليهود، وفَضَحت المنافقين، ومكّنت المؤمنين،...الخ.

---

(١) وإن كان الخطاب مخصوصا لنساء النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن نساء الأمة تبع لنساء النبي ﷺ في هذه الآداب التي أمر الله تعالى بها. [انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ١٧٩. وانظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢٢، ص٥].

المبحث الثَّاني: مناسبات السُّورة.

الاهتمام بعلم المناسبات يُبرز نظم القرآن، ويبعث على دقَّة فهمِه، وحسنِ تفسيره، وفيه من لطائف القرآن المُودَعة فيه ما يدلُّ على نفاستِه، ووفيرِ ثماره.

ولهذا رغبت في البدء أوَّلا ببيان مناسبة السُّورة حسب موضعها في المصحف، ثم انتقِل إلى السُّورة لنقرأ فيها المناسبات بدءًا بإبراز المُناسبة بين الافتتاحية والخاتمة، ثمَّ المناسبات بين مقاطع السُّورة، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: مناسباتها حسب موضعها في المصحف.

سورة السَّجدة جاءت قبل سورة الأحزاب، وجاء بعد هذه الأخيرة سورة سبأ وهذا حسب ترتيب السُّور في المصحف.

أوَّلاً: مناسبتها لما قبلها.

مع أنَّ سورة الأحزاب مدنيَّة، ومع أنَّ السُّورة التي قبلها وهي السَّجدة مكيَّة، ومع الفاصل الزمني الممتدِّ بينهما، فقد اتَّصلت السُّورتان بعضهما ببعض، والتقى خِتام السَّابقة مع بداية التَّالية، حتَّى لكأنَّهما سورة واحدة، بحيث لا تُشْعِر تَاليَ القرآن أنَّه انتقل من سورةٍ لأخرى، وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ ترتيب السُّور في المصحف توقيفي كترتيب الآيات في السُّور.

وعن المناسبة بينهما يقول البقاعي: "لما خُتمت التي قبلها بالإعراض عن الكافرين، وانتظار ما يحكم به فيهم ربُّ العالمين، بعد تحقيق أنَّ تنزيل الكتاب من عند المدبِّر لهذا الخلق كلِّه، والنَّهي عن الشَّكِّ في لقائه، افتتح هذه بالأمر بأساس ذلك، والنَّهي عن طاعة المُخالفين مُجاهرين كانوا أو مُساترين، والأمر باتِّباع الوحي الذي أعظمه الكتاب تنبيهًا على أنَّ الإعراض إنَّما يكون طاعة لله مع مراعاة تقواه"[١].

أقول ابتدأت سُورة الأحزاب بنداء النَّبي ﷺ له بمداومة تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، بينما اكتفت سورة السَّجدة في نهايتها بالإعراض عن الكافرين فقط، دون المُنافقين، والسَّببُ في ذلك أنَّ مرض النِّفاق وخطره ظهر بالمدينة والسُّورة مدنيَّة، أمَّا السَّجدة فهي مكيَّة ولم يعرفِ النِّفاق بعدُ في مكَّة.

---

[١] إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، أبو الحسن (ت: ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ج٦، ص٦٧.

وظهرَ لِي وجهُ الاتِّصال بينهما من عدَّة جهاتٍ هي:

١ ــ قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[١].

لمَّا بيَّنت الآية على لسان النَّبي ﷺ أنَّ الفرار من المعركة خوفًا من الموت أو القتل لا يؤخِّر الآجال ولا يُقدِّمها، وإن فرُّوا من ميدان الموت والقتال فلن يُمتَّعوا في هذه الدُّنيا إلا بقدر قليلٍ محدودٍ.

والمعنى نفسه سبق بيانه في سورة السَّجدة، حيث بيَّن الله فيها أنَّ للآجال نهايةً قد وُكِّل بها ملك الموت، ثمَّ إلى ربِّكم ترجعون.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

إذن: فالفرار من ميدان القتال خوفًا من الموت لن يُجدِي نفعًا ما دام الله وكَّل للأرواح ملكًا يأخذها في وقتٍ معلومٍ وأجلٍ محدودٍ.

٢ ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[٤].

لمَّا بيَّنت سورة الأحزاب تباين موقِف الفريقين من التَّصديق والتَّكذيب بوعد الله ورسوله، وهذا نابعٌ من عدم استوائهم في الإيمان.

---

[١] سورة الأحزاب: ١٦ ــ ١٧.

[٢] سورة السجدة: ١١.

[٣] سورة الأحزاب: ١٢.

[٤] سورة الأحزاب: ٢٢.

سبق بيان ذلك الفرق وعدم استوائه في سورة السَّجدة، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[١]، مع العلم أنَّ المُنافقين هُمُ الفاسقون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

٣ ــ قال تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ ﴾[٣]. فهذه الآية ٢٤ من سورة الأحزاب مناسبة لما قبلها في سورة السَّجدة من آية ٢٥، وكأنَّهما آيتان متتاليتان؛ حيث بيَّن الله في سورة السَّجدة بأنَّه يفصل بين عباده يوم القيامة، فيجازي الصَّادقين ويُعذِّب المسيئين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٤].

٤ ــ قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ ﴾[٥]، فقد ملَّكَ الله المؤمنين مساكن الذين ظاهروهم من أهل الكتاب وأموالهم، بأن أهلكهُم الله على أيدي المؤمنين ففريقًا يقتلون ويأسرون فريقًا، وهو مناسب لقوله تعالى من سورة السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ ﴾[٦]، والله أعلم بما ينزِّل.

ثانيًا: مناسبتها لما بعدها.

يظهر التَّناسق بين خاتمة سورة الأحزاب، والسُّورة التي تليها من عدَّة وجوه:

١ ــ "لما خُتمت سورة الأحزاب بأنَّه سبحانه عرض أداء الأمانة وحملها – وهي جميع ما في الوجود من المنافع – على السَّماوات والأرض والجبال، فأبين أن يَّحمِلنها، وأشفقن منها

---

[١] سورة السجدة: ١٨.

[٢] سورة التوبة: ٦٧.

[٣] سورة الأحزاب: ٢٤.

[٤] سورة السجدة: ٢٥.

[٥] سورة الأحزاب: ٢٧.

[٦] سورة السجدة: ٢٦.

وحملها الإنسان الضَّعيف، ورتَّب على ذلك العَرض والحَمل العذاب والثَّواب، فعلم أنَّ الكل ملكه، خائفون من عظمته مشفقون من قهر سطْوتِه وقاهرِ جبروته، وأنَّه المالك التّام المُلك، والمَلك المطاع المتصرِّف في كلِّ شيء من غير دفاع، وختم ذلك بصفتي المغفرة والرَّحمة دلَّ على ذلك كلّه بأن ابتدأ قوله بالحمد لله، أي الإحاطة بأوصاف الكمال من الخلق والأمر كلّه مطلقاً"[١].

٢ ــ "اختتمت سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]، وجاء في فاصلة الآية الثانية من سورة سبأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[٣]،"[٤].

٣ ــ جاء في أواخرِ سورة الأحزاب سُؤال الكفَّار عن السَّاعة استهزاءً ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٥]، وفي سورة سبأ حكى القرآن عنهم إنكارها صراحةً ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[٦]،[٧].

ومِمَّا يمكن إضافته لإبراز هذا التّناسق بين ختام سورة الأحزاب وافتتاح سورة سبأ هو:

٤ ــ لمَّا اختتمت سورة الأحزاب ببيان جزاء كلٍّ من المنافقين والمشركين والمؤمنين بقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا قضاءُ الله العادل فيهم، أعْقب ذلك بافتتاح السُّورة التي تليها بالحمد والثّناء لله ﷻ قائلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ

---

[١] البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج٦، ص١٤٤.

[٢] سورة الأحزاب: ٧٣.

[٣] سورة سبأ: ٢.

[٤] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، أسرار ترتيب القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، د.ط، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ج١، ص١٢٦.

[٥] سورة الأحزاب: ٦٣.

[٦] سورة سبأ: ٣.

[٧] انظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج ٢٢، ص١٣١.

﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فناسبت فاصلة هذه الآية ختام السُّورة السَّابقة، بأنَّ الله حكيم بجزائه لعباده، خبير بخلقه في أفعالهم حيثُ جازى كلاً على حسب ما يستحق.

٥ ــ لمَّا قُضِي بين عذاب المنافقين والمشركين، والتَّوبة على المؤمنين، افتتح ذلك بالحمد له سبحانه، وهذا مُطابقٌ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ..﴾[١].

المطلب الثَّاني: المناسبات في السُّورة نفسها.

أوَّلًا: المناسبة بين افتتاحية السُّورة وختامها.

إنَّ الرَّابط الأساسي بين الافتتاحية والخاتمة هو بيان وجوب طاعة الله والرَّسول ﷺ، وتقديم أنموذج لذلك مع بيان جزائهم، في مقابل ذلك بيان من لم يطعهما أو آذاهما مع بيان مآلهم.

يقول ابن عاشور في هذا: "فكان خِتامها من ردِّ العَجُز على الصَّدر لقوله في أوَّلها: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[٢]، وتخلَّل ذلك مستطردات من الأمر بالتَّأسي بالنَّبي ﷺ، وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكرًا له على هديه، وتعظيم قدر النَّبي ﷺ عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمر بالصَّلاة عليه والسَّلام، ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يُؤذي الله ورسوله والمؤمنين، والتَّحذير من التورُّط في إيذاء النَّبي ﷺ كيْلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السَّلام" [٣].

ويُمكن إضافة شواهد أخرى تدلُّ على مدى التَّرابط بين افتتاحية السُّورة وخِتامها، وهي:

١ــ جاء في افتتاحية السُّورة النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٤]،

---

[١] سورة الزمر: ٧٥.

[٢] سورة الأحزاب: ٢.

[٣] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص١٧٧.

[٤] سورة الأحزاب: ١.

وفي خِتامها بيان سبب عدم الطّاعة ببيان مآلِهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾[١]، وقال: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾[٢].

٢ ــ جاء في بداياتها في قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[٣]، وفي خِتامها: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٤]، وكأنَّه تعالى أراد أن يُخبرنا بأنَّ محلَّ هذه الأمانة في الإنسان هو قلبه وهو محلُّ التَّصديق والإيمان.

٣ ــ وافتتِحت السُّورة أيضًا بنداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾[٥]، واختتمت بثواب طاعة النَّبي ﷺ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[٦].

ثانيًا: المناسبات بين مقاطع السُّورة.

يمكن أن تُقسَّم السُّورة على هذا النحو إلى: مقدمة وثلاثة مقاطع رئيسة وخاتمة [٧]، مع ذكر وجهِ المناسبة بين كل مقطعين.

١ــ المقدمة: [من آية: ١ ــ إلى آية ٨]:تحت عنوان: أسس وقواعد عامَّة.

وقد أسلفنا الكلام على ذكر المناسبة بين هذا المقطع مع خِتام السُّورة التي قبلها، ومع ختام هذه السُّورة نفسها.

---

[١] سورة الأحزاب: ٦٤.

[٢] سورة الأحزاب: ٦٣.

[٣] سورة الأحزاب: ٤.

[٤] سورة الأحزاب: ٧٢.

[٥] سورة الأحزاب: ١.

[٦] سورة الأحزاب: ٧١.

[٧] سلك قريبا من هذا المسلك في التقسيم بعض المفسرين: [انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص ص٢٨١٧ ــ ٢٨١٨. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص١٧٧. وانظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٢٦].

٢ ــ المقطع الأول: [من آية ٩ ــ إلى آية ٢٧]: تحت عنوان: النَّبي ﷺ القائد، لتــشمل غزوتــي الأحزاب وبني قريظة.

وتظهر المناسبة بين هذا المقطع وبين المقدمة من خلال:

أ ــ قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾(١)، وهي نتيجة ثوابِ صِدْقِهم الوعد مع الله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(٢)، وهذا مُناسب لقوله تعالى مع المقدِّمة: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٣)؛ لأنَّ في الآية احتباك (٤)، كأنَّه قال تعالى ليسأل الصادقين عن صِدقهم وأعدَّ لهم أجرًا عظيمًا، ويسأل الكاذبين عن كذبهم وأعدَّ للكافرين عــذابًا أليمًــا، إذن فالله سائل الصَّادقين عن صِدقهم ومُجازيهم بصدقهم.

ب ــ جاء النَّهي عن طاعة المُنافقين في أوَّل آيةٍ من السُّورة في قوله تعــالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾(٥)، وجاء في المقطع الأوَّل الحديث مطوَّلاً عن بيان سبب عدم طاعتهم وهذا نتيجــة كــذبهم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(٦)، ونتيجة غدرهم: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ ﴾(٧)، ونتيجة نفاقهم وعدم إيمانهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٨).

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٨.

(٤) الإحتباك هو: من أنواع البديع وهو نوع عزيز وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. كقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء﴾ [النمل: ١٢]، التقدير تدخل غيــر بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء فحذف من الأول (غير بيضاء) ومن الثاني (وأخرجها). [السيوطي، الإتقان فــي علوم القرآن، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٤].

(٥) سورة الأحزاب: ١.

(٦) سورة الأحزاب: ١٣.

(٧) سورة الأحزاب: ١٥.

(٨) سورة الأحزاب: ١٩.

٣ــ المقطع الثاني: [من آية ٢٨ ــ إلى آية ٤٤]: تحت عنوان: النَّبي ﷺ وأهل بيته.

والمناسبة بين هذا المقطع وسابقه يظهر في:

أــ قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[١]، أي في قلبه نِفاقٌ، وهــذا مناسبٌ للمقطع الأوَّل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٢].

ب ــ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[٣]، وهذا مناسبٌ للمقطع الأوَّل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[٤]، فالمقام كلُّه ذكــرٌ لــنعم الله وآلائـــه الظَّاهرة والباطنة.

٤ــ أمَّا المقطع الثالث فهو: [من آية ٤٥ ــ إلى آية ٦٢]: تحت عنوان: النَّبي ﷺ وتنظيم المجتمع.

والمناسبة بين المقطعين الثالث مع الثاني تظهر في:

أ ــ قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾[٥]، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾[٦]، فهُمَــا مناسبتان للمقطع السَّابق في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾[٧]، فهذه الآيات جميعُها سيقت لنفي الحرج والجُناح عن النَّبي ﷺ.

---

[١] سورة الأحزاب: ٣٢.

[٢] سورة الأحزاب: ١٢.

[٣] سورة الأحزاب: ٤١.

[٤] سورة الأحزاب: ٩.

[٥] سورة الأحزاب: ٥٠.

[٦] سورة الأحزاب: ٥١.

[٧] سورة الأحزاب: ٣٨.

ب ــ وقوله تعالى في الذين خلوا من قبل من المنافقين في الأمَم الماضية: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ﴾[(١)]، فقد جاءت الآية مُطابقة في اللَّفظ دون المعنى مع المقطع السَّابق في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾[(٢)]، والمقصود الذين خلوا من الأنبياء من قبلك.

٥ ــ الخاتمة: [من آية ٦٣ ــ إلى آية ٧٣]: تحت عنوان: نتائج ختامية.

وتبقى المناسبة بين الخاتمة مع المقطع الثالث وهي ظاهرةٌ في أمورٍ منها:

أ ــ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(٣)]، فهي مناسبة مع المقطع السَّابق في لعن المُنافقين: ﴿ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾[(٤)].

ب ــ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾[(٥)]، هنا تحذيرٌ عن إيذاء النَّبي ﷺ كما أوذي موسى عليه السلام من قبله، وهو موافق لوعيد الآية مع المقطع السَّابق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[(٦)].

إذن ممَّا يُلحُّ على الاهتمام بعلم السِّياق وملابسات النَّص، وعدم الغفلة عنه، ما أدركناه من تماسُك آيات السُّورة بعضها ببعض حتى لكأنَّها آيةٌ واحدة، انظر مثلاً قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(٧)]، نَاسبَت قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[(٨)]، وهو كلُّه داخلٌ في أدبيَّات الخِطاب بين

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٦٤.

(٤) سورة الأحزاب: ٦١.

(٥) سورة الأحزاب: ٦٩.

(٦) سورة الأحزاب: ٥٧.

(٧) سورة الأحزاب: ٧٠.

(٨) سورة الأحزاب: ٣٢.

النَّاس، ونفس الشَّيء يقال في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[١]، هو مناسب لقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[٢]، ومضاعفة العذاب كان نتيجة: عدم طاعة الله والرَّسول، أو بإلحاق العار بجنَاب النَّبي ﷺ.

ومن خلال هذه الجولة البسيطة في المناسبات بين آيات السُّورة، تبيَّن لنا تلاحُمَها من حيث هذا التَّرابط والتَّناسق والتَّعانق العجيب بين آياتها، وصدق الله حديثًا حين قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٣].

المبحث الثَّالث: موضوعات السُّورة.

بعد عرضنا للمناسبات في السُّورة تأتي مرحلةٌ أخرى وهي معرفة موضوعات السُّورة، وهذا لِنَخلص في الأخير إلى اكتشاف الموضوع الرَّئيس الذي دارت عليه سورة الأحزاب.

المطلب الأوَّل: الموضوعات الأساسيَّة في السُّورة.

موضوع السُّورة لا يختلف عن الطَّابع العام للسُّور المدنيَّة من حيث التَّشريعات والنُّظم، وعن تسليط الضَّوء على المنافقين واليهود، وسرد الحوادث التَّاريخيَّة في بعض السُّور المدنيَّة، وإن كان لكل سورةٍ من السُّور ما يُميِّزُها، ومن هنا اخترت تقسيم موضوعات السُّورة إلى ثلاثةِ أقسامٍ كما قسَّمها الزحيلي [٤]:

١ ــ أخبار السِّيرة:

ــ بيانٌ توضيحي عن غزوة الأحزاب.

ــ بيانٌ إجمالي عن غزوة بني قريظة.

ــ كشفُ فضائح المنافقين والتَّحذير من مكائدهم.

ــ تذكيرُ المؤمنين بنعم الله تعالى عليهم من خلال المُعجزات الباهِرة، ومن خلال ردِّ كيد الكافرين عنهم.

ــ بيانُ قِصَّة زيد بن حارثة مولى النَّبي ﷺ.

---

[١] سورة الأحزاب: ٦٨.

[٢] سورة الأحزاب: ٣٠.

[٣] سورة النساء: ٨٢.

[٤] انظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٢٦.

ــ بيانُ قصَّة زينب بنت جحش زوج النَّبي ﷺ.

٢ ــ الأحكام الشرعية:

ــ الأمر بتقوى الله والتَّوكُّل عليه.

ــ عدمُ طاعة الكافرين والمنافقين.

ــ وجوبُ اتِّباع الوحي.

ــ حكمُ الظِّهار.

ــ إبطالُ عادة التَّبنِّي التي كانت عند العرب في الجاهلية.

ــ إبطالُ عادة التَّوريث بالحِلف أو الهجرة وجعل الرَّحِمِ والقرابة هي أساسُ الميراث.

ــ ذكرُ الأحكام التي تتعلَّق بزواج النَّبي ﷺ وبأزواجه.

ــ فرضُ الحِجاب الشَّرعي وتحريمُ التَّبرُّج.

ــ عدمُ إلزام المطلقة قبل الدُّخول بالعدَّة، ووجوب المتعة لها.

ــ تحريمُ إيذاءِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين.

ــ خطورة وثقل أمانة التَّكليف.

ــ عقابُ المسيء وإثابةُ المُحسن.

٣ ــ الآداب الاجتماعية:

ــ تعظيمُ قدر النَّبي ﷺ في بيته ومع الناس.

ــ آداب الدَّعوة إلى الولائم.

ــ آداب الحجاب وعدم التَّبرُّج.

ــ آداب التَّخاطب بين الناس [١].

وهذه الموضوعات في مُجملها مما اختُصَّت به السُّورة عن غيرها.

المطلب الثَّاني: محور السُّورة وغرضها.

يُقصد بمحور السُّورة وغرضها معرفة الوحدة الموضوعيَّة للسُّورة؛ إذ إنَّها دائمًا تتشكَّل من وحداتٍ منسجمةٍ مترابطة ومحكمة في داخلها مرتكزة على محورٍ واحد تخدمُه وتحيط به،

---

[١] ذكر على هذا النحو تقريبًا بعض المفسرين: انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج ٥، ص٢٨١٧. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص١٧٧.

"ذلك هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحُجَز بعض حتَّى إنَّها لتنتظِم منها وحدة محكمة لا انفصام لها... حتى تتماسك وتتعانق أشدَّ التَّماسك والتَّعانق" [١].

فبالقراءة المُتأنِّية المتكرِّرة، والتَّدبُّر في آيات السُّورة، يُدرك القارئ حتمًا أنَّ الموضوع الرَّئيس الذي دارت وركَّزت عليه السُّورة هو: شخصيَّة النَّبي ﷺ من جوانب عدَّة.

وقد وجدت من سبقني في تبنِّي هذه الفكرة وهو عبد الحميد طهماز في كتابه من موضوعات سور القرآن الكريم إذ يقول: "النَّبي ﷺ الموضوع الأساسي لسورة الأحزاب، والمتدبِّر لسُور القرآن الكريم لا بدَّ أن يُدرك أنَّ موضوع كل سورة من سُور القرآن الكريم يُذكر في الآيات الأولى منها غالبًا، فإذا قرأت الآيات الأولى من سورة الأحزاب تصلُ بعون الله تعالى إلى أنَّ شخصيَّة النَّبي ﷺ والجانب الاجتماعي من حياته عليه السلام هو الموضوع الأساسي لسورة الأحزاب، وفي فلك هذا الموضوع تدور آيات السُّورة من أوَّلها إلى آخرها"[٢].

وأؤيِّد ما ذهب إليه بأدلةٍ من خلال السُّورة، إذ لا تخلو آية في الأغلب إلاَّ وفيها ذكرٌ للنَّبي ﷺ سواءٌ بالعبارة أو الإشارة:

١ـ النَّبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[آية:١]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[آية:٦]، ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾[آية: ١٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾[آية: ٢٨]، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[آية: ٣٠]، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[آية: ٣٢]، ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾[آية: ٣٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾[آية: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾[آية: ٥٠]، ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[آية: ٥٠]، ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[آية:٥٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾[آية:٥٣]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي

---

[١] محمد بن عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، النبأ العظيم، د.ط، اعتنى به أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، ٢٠٠٥م، ص١٧٦.

[٢] عبد الحميد محمود طهماز (ت: ١٤٣١هـ)، من موضوعات سور القرآن الكريم، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م، ص٣٥.

ﵟٱلنَّبِيِّﵞ[آية: ٥٣]، ﵟإِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّﵞ[آية: ٥٦]، ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَﵞ[آية:٥٩].

٢ ــ محمَّد: ﵟمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡﵞ[آية:٤٠].

٣ ــ رسولُ الله: ﵟلَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞﵞ[آية:٢١]، ﵟمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِﵞ[آية:٤٠]، ﵟوَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِﵞ[آية:٥٣].

٤ ــ الله ورسوله: ﵟمَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗاﵞ[آية:١٢]، ﵟهَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥﵞ[آية:٢٢]، ﵟوَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥﵞ[آية:٢٢]، ﵟوَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥﵞ[آية:٢٩]، ﵟوَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓﵞ[آية:٣٣]، ﵟوَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًاﵞ[آية:٣٦]، ﵟوَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗاﵞ[آية:٣٦]، ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥﵞ[آية:٥٧]، ﵟوَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًاﵞ[آية:٧١].

٥ــ أوصافه في السُّورة: ﵟوَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَﵞ[آية:٤٠] فهو الخاتم، ﵟشَٰهِدٗاﵞ[آية:٤٥] فهو الشَّاهد، ﵟوَمُبَشِّرٗاﵞ[آية: ٤٥]، فهو المُبشِّر، ﵟوَنَذِيرٗاﵞ[آية:٤٥] فهو النَّذير، ﵟوَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِﵞ[آية:٤٦]، فهو الدَّاعي وإمام الدُّعاة إلى طريق الله، ﵟوَسِرَاجٗا مُّنِيرٗاﵞ[آية:٤٦] فهو السِّراج المُنير، ﵟوَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَﵞ[آية: ٤٧]، فهو البشير.

٦ــ الضَّمائر العائدة إلى النَّبي ﷺ وهي كثيرةٌ منها:

أ ــ كافُ الخطاب: مثل: ﵟإِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَﵞ[آية:٥٠]، ﵟوَإِذۡ

﴿أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾[آية:٧]، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[آية:٢]،....وهي كثيرةٌ في السُّورة.

ب ـــ تاءُ المخاطب: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾[آية:٥١].

ج ـــ هاءُ الضَّمير: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾[آية:٦]، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾[آية:٥٣].

ومن خلال هذا العرض في أجواء السُّورة وآياتِها يتبيَّن أنَّ النَّبي ﷺ وما يتعلَّق به قد تناول مساحةً واسعةً في مُعظم آيات السُّورة من أوَّلها إلى آخرها.

المطلب الثَّالث: مشابهة السُّورة لبعض السُّور.

لقد أنزل الله تعالى إلينا كتابًا سمَّاه أحسن الحَديثِ ووصفه بأنَّه مُتشابه، ومن تشابُهه أنَّ بعضًا من آياته يُشبه البعض الآخر في الألفاظ فقط [(١)]، أو في الألفاظ والمعاني مع حسن البلاغة والإحكام والسَّلامة من الاختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[(٢)]، والقارئُ لسورة الأحزاب يدرك تشابُهين [(٣)]:

أوَّلاً: التَّشابه في المطلع والخاتمة:

مطلعُ وختامُ سورة الأحزاب يشبه تمامًا مطلع وختام سورة المزَّمِّل:

---

(١) وهذا ما نجده في كتب الأشباه والنظائر.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) ربما يعترض قارئ هذه الرسالة ويقول المقصود من التشابه هو التشابه العام (أي: يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والبيان، و...الخ، ويُصدِّق بعضه بعضًا) والتشابهان اللذان ذكرتهما ليسا من هذا القبيل بدليل أنه مقصور على سورتين وفي جوانب محدودة، وأجيب: بأنه قد يقصد بالتشابه هذا الذي ذكر، وقد يقصد بالتشابه التماثل لأن أدنى مراتب الشبه أن يكون بين اثنين فصاعدا، كمن يشبه شيئا عنده بشيء واحد أو بأشياء عديدة كأن أقول هذه السورة تشبه سورة كذا في مطلعها أو في مطلعها وختامها وهكذا، والدليل قوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ فالمثاني من التثنية، يقول ابن عاشور: «كنى عن معنى التكرير بمادة التثنية لأن التثنية أول مراتب التكرير، فالقرآن مثاني لأنه مكرر الأغراض، وله مقاصده» [ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٤، ص٦٦].

فسورة المزَّمِّل افتتحت بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ وسورة الأحزاب بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمنادى طبعًا واحد.

واختُتمت سورة المزَّمِّل بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[١]، وسورة الأحزاب بـ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

والمتأمِّل في السُّورتين سيدرك أسرارًا ومقاصد أكتفي بذكر ثلاثةٍ منها:

١ ـ قوله تعالى في سورة المزَّمِّل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٣]، وقال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ مِنَ... فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾[٤]، وجاء في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٥]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[٦].

ولقد سمَّى الله القرآن ذكرًا في غير موضع من القرآن منها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[٧]، ولهذا كان أفضل الذِّكر قراءةُ القرآن.

٢ ـ قوله تعالى في سورة المزَّمِّل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٨]، وفي سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ..﴾[٩]، فالكلام كلُّه عن عِظم وثقل أمانة الدِّين والتِّي جاءت عن طريق الوحي وهو القرآن.

---

[١] سورة المزمل: ٢٠.

[٢] سورة الأحزاب: ٧٣.

[٣] سورة المزمل: ٤.

[٤] سورة المزمل: ٢٠.

[٥] سورة الأحزاب: ٤١.

[٦] سورة الأحزاب: ٣٥.

[٧] سورة الحجر: ٩.

[٨] سورة المزمل: ٥.

[٩] سورة الأحزاب: ٧٢.

٣ ــ قوله تعالى في سورة المزَّمِّل: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾[١]، وقوله في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾[٢]. وهذا إخبارٌ عن بيان مهمَّة الرَّسول ﷺ.

ولولا خوف الإطالة لذكرت أشياء كثيرة.

ثانيًا: التَّشابه في موضوعها:

سورة الفتح في مُجمل آياتِها تشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ آيات من سورة الأحزاب، ولعلَّ سرَّ التَّشابه فيما بينهما؛ لأنَّ السُّورتين مدنيَّتان، وأيضًا لوجودِ التَّقارب في الزَّمن بين غزوة الأحزاب وبين صلح الحديبية وفتح مكَّة، وفيهما ذكرٌ للحوادث، ومن جهةٍ أخرى فالقرآن دائمًا يؤكِّد أنَّ بعد العُسر يأتي اليُسر، وبعد الهمِّ يأتي الفرجُ، وأيضًا بعد الأحزاب يأتي الفتحُ.

لذا سأستعرض الآية وفي مقابلها أذكر تشابُهها مع سورة الأحزاب دون تعقيبٍ لوضوح التَّرابط والتَّعانق بين السُّورتين.

ــ قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾[٣]، وفي سورة الأحزاب قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾[٤].

ــ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٥]، وفي سورة الأحزاب قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٦].

---

[١] سورة المزمل: ١٥.

[٢] سورة الأحزاب: ٤٥.

[٣] سورة الفتح: ٦.

[٤] سورة الأحزاب: ٧٣.

[٥] سورة الفتح: ٨.

[٦] سورة الأحزاب: ٤٥.

ـ قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[١]، وفي سورة الأحزاب قال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[٢].

ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾[٣]، وفي سورة الأحزاب قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[٤].

وقد جمعت خمسة عشر تشابه بين السُّورتين، وهو في الحقيقة ملفتٌ للنَّظر والتَّدبُّر، ويستحقُّ دراسةً مستقلَّةً ليُستنتج منها أشياء مفيدة تقال في مثل هذا التَّرابط والانسجام والإحكام المُعجز: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٥].

نخلص في الأخير من سبب تسمية السُّورة بالأحزاب، وبالموضوعات الأساسيَّة التي تضمَّنتها السُّورة في أجوائها، أنَّ تحزُّب الأحزاب في هذا الوقت الرَّاهن لم يكن مقتصرًا على النَّبي ﷺ بإيذائه والسُّخرية منه، بل تعدَّى هذا التَّحزُّب ليشمل الموضوعات الواردة في السُّورة أيضًا، فهي محلّ تحزُّب الجميع من قبل أعداء الإسلام، من منافقين وأهل كتاب: كقضيَّة حجاب المرأة، وتبرُّجها، وزينتها، وقضيَّة عمل وخروج المرأة، وقضيَّة أنكِحَة النَّبي ﷺ وغير ذلك من الأحكام التي تناولتها سورة الأحزاب، وكأنَّ الله يخبرنا بأنَّه سيأتي زمانٌ ويتحزَّب أعداءُ هذا الدِّين على الأحكام الواردة في سورة الأحزاب، كتحزُّبهم على النَّبي ﷺ يوم الأحزاب[٦].

---

[١] سورة الفتح: ٢٣.

[٢] سورة الأحزاب: ٦٢.

[٣] سورة الفتح: ١٧.

[٤] سورة الأحزاب: ٧١.

[٥] سورة هود: ١.

[٦] انظر مثلا: سورة النور: فالأحكام الواردة فيها من: استئذان، وغضِّ البصر، وحفظ الفرج، والحضِّ على الزواج، وغير ذلك، كلها بمثابة نور للمؤمن إذا عمل بمقتضاها، وحتى إقامة حدّ الزنا، وحدّ رمي المحصنات هو بمثابة نور للمجتمع، بحيث يصبح مجتمعا نورانيا عفيفا أهلُه.

الفصل الأول

مكانة النَّبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب.

يشمل مبحثين:

المبحث الأول: مكانة النَّبي ﷺ عند الله ﷻ.

المبحث الثاني: مكانة النَّبي ﷺ بين إخوانه من الأنبياء عليهم السَّلام.

الفصل الأول: مكانة النَّبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب

أوْلى الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمدًا ﷺ عنايةً كبيرةً، ولم يغفل عن ذكره في ثنايا كتابه المنزَّل عليه ﷺ من بدايات نزوله إلى تمامه، بل قد أخبر عنه سبحانه وتعالى مكتوبًا في كتبه كالتَّوراة والإنجيل قبل أن يبعث ﷺ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[1]، وأخذ الله الميثاق على جميع النَّبيِّين بالإيمان به وبنصرته قبل بعثته فأقرُّوا بذلك وشهدوا وشهد الله معهم.

وسورة الأحزاب ليست بمنأى عن هذا، وسنغوص في أجوائها لنرى وندرك مكانة هذا النَّبي ﷺ في ضوء السُّورة، والتي تحدَّثت عن مكانته ﷺ من جانبين:

الجانب الأول: مكانته ﷺ عند الله ﷻ.

الجانب الثاني: مكانته ﷺ بين إخوانه من الأنبياء عليهم السَّلام.

المبحث الأول: مكانة النَّبي ﷺ عند الله ﷻ.

إنَّ مكانة أي شخص في الوجود إذا تعلَّقت بزائلٍ وعارضٍ؛ فإنَّها سرعان ما تزول بزوال ذلك المتعلَّق به، بخلاف المكانة إذا تعلَّقت بمن ملكه دائم سبحانه؛ فإنَّها باقيةٌ دائمةٌ لن تزول، ولهذا فإنَّنا سنرى أنَّ للنَّبي ﷺ مكانة عند من لا يفنى ملكه، وسنقف على هذه المكانة مبيِّنين أوجهها في ضوء سورة الأحزاب.

المطلب الأول: نداءات الله ﷻ لنبيِّه ﷺ وحِكَمها.

إنَّ من أهمِّ ما ميَّز هذه السُّورة عن باقي أخواتها من السُّور كثرة نداءات الله تعالى لنبيِّه ﷺ، فقد اشتمل القرآن الكريم على ثلاثة عشر نداء للنُّبوة بينما خُصَّت سورة الأحزاب بخمسة نداءات فيها، وسرٌّ هذه الكثرة في هذه السُّورة خصوصًا أنَّه مشعرٌ بجانبٍ كبيرٍ من الأنس والطمأنينة للنَّبي ﷺ بجناب الله ﷻ لِمَا نزلت عليه من أحداث كتألُّب الأحزاب، وتغييرات جذرية في بيت النُّبوة كقضية التَّبني والتَّخيير بين زوجاته، وإعادة تنظيم جوانب من المجتمع المدني الناشئ وهيكلته.

وفيما يأتي بيانٌ لهذه النِّداءات مع تعقيب موجزٍ لكلِّ نداء، وأختمها بذكر أهمِّية هذه النِّداءات:

---

[1] سورة الأعراف: ١٥٧.

النِّداء الأوَّل: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١].

فالنَّبي ﷺ لم يؤمر هنا بالتَّقوى الذي مفهوم مخالفته عدم تقواه، وإنَّما جاء الأمر بمداومة التَّقوى بدليل ما يلي:

أوَّلاً: فاصلة الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولم يختمها بقوله إنَّ الله شديد العقاب أو قويٌّ عزيز، كما هو الحال في الأمر بالتَّقوى للمؤمنين حيث قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٢].

ففاصلة الآية تعني: أنَّ الله يعلم إنَّك لرسوله وأنَّك مُتَّقٍ، وحكيمٌ في توجيهه وتنظير الأمور بما يرجع لك بالمنفعة.

ثانيًا: سياق الآيات: فالسِّياق كلُّه سياق العناية الربَّانية بنبيِّه، وسياق مدح وثناء إذ لا يعقل أن يكون هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنَّه الأسوة الحسنة، وأن يصلي الله وملائكته عليه وغير ذلك، ولم يبلغ بعد حقيقة التقوى.

ثالثًا: قوله ﷺ: «أَمَا واللهِ إني لَأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ له»[٣].

والفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتَّقوى وهو سيِّد المتَّقين فيه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه، والثاني: الإكثار مما هو فيه، والثالث: أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته [٤].

يقول ابن جزي: "يا أيُّها النَّبي نداءٌ فيه تكريم له؛ لأنَّه ناداه بالنُّبوة ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم، اتق الله، أي: دم على التقوى وزد منها"[٥].

---

[١] سورة الأحزاب: ١.

[٢] سورة المائدة: ٢، ووردت أيضا في سورة الحشر: ٧.

[٣] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الصيام، بَاب بَيَانِ أَنَّ الْقُبْلَةَ في الصَّوْمِ لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً على من لم تُحَرِّكْ شَهْوَتَهُ، ج٢، ص٧٧٩، حديث رقم ١١٠٨.

[٤] انظر: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أبو الفرج (ت: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، ط٣، دار المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ج٦، ص٣٤٨.

[٥] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ١٣٢.

النِّداء الثَّاني: قوله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾[١].

أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يُخيِّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهنَّ عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصَّبر على ما عنده من ضيق الحال ولهنَّ عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ــ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ ــ الله ورسوله والدَّار الآخرة فجمع الله تعالى لهنَّ بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة[٢].

وفي الآية دليلٌ على انتقاء الله لنبيِّه ﷺ الأنْسب والأصلح له من الزَّوجات، حتَّى يكنَّ على مستوى يليق بمقام النَّبي ﷺ، وأراد أيضًا بذلك أن يُخلِّص بيت النبوة من متع الحياة الدنيا، ليذهب عنهم الرِّجس ويطهرهم تطهيرًا، فبذلك خُيِّرْن، واخترن الله ورسوله والدَّار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها.

كما في الآية لطائف لفظية منها: تقديم اختيار الدُّنيا إشارة إلى أنَّ النَّبي ﷺ غير ملتفت إلى جانبها وكيف وهو مشغول بعبادة ربه [٣]، وفيها تقديم التَّمتيع على التَّسريح إشارة إلى كرم النَّبي ﷺ وحسن خلقه [٤].

والقصَّة الكاملة لسبب التَّخيير، هي ما رواها الإمام مسلم بسنده عن جَابِرِ بن عبد اللَّهِ قال: «دخل أبو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ على رسول اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ النَّاس جُلُوسًا بِبَابِهِ لم يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ منهم، قال: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ له، فَوَجَدَ النبي ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا [٥] سَاكِتًا، قال: فقال لَأَقُولَنَّ شيئا أُضْحِكُ النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ لو رَأَيْتَ بِنْتَ

---

[١] سورة الأحزاب: ٢٨.

[٢] انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج٣، ص١٣٦. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٨١.

[٣] انظر: محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٤هـ)، مفاتيح الغيب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ج٢٥، ص١٨٧.

[٤] انظر: عبد الله بن عمر البيضاوي، أبو الخير (ت: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٤، ص٣٧٢.

[٥] الواجِمُ: الذي أَسْكَتَه الهمُّ وعَلَتْه الكآبةُ، وقيل: الوُجُومُ الحُزْنُ...والواجِمُ الوَجِمُ: العَبوسُ المُطْرِقُ من شدَّةِ الحُزْن. [محمد بن مكرم بن منظور، أبو الفضل (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، د.ت، ج١٢، ص٦٣٠]. مادة: وجم.

خَارِجَة سَأَلَتْنِي النَّفَقَة فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رسول اللَّهِ ﷺ، وقال هُـنَّ حَـولِي كمـا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ، فَقَامَ أبو بَكْرٍ إلى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إلى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كلاهمـا يقول تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ما ليس عِنْدَهُ، فَقُلْنَ والله لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شيئا أَبَدًا ليس عِنْـدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أو تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عليه هذه الْآيَةُ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ حتى بَلَـغَ ﴿لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، قال: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فقال: يا عَائِشَةُ إني أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فيه حتى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ، قالت: وما هو يا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَلَـا عليهـا الْآيَـةَ، قالت: أَفِيكَ يا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً من نِسَائِكَ بِالَّذِي قلت، قال: لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إلا أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لم يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًـا ولا مُتَعَنِّتًا؛ ولَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[١].

النِّداء الثَّالث: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾[٢].

وتحت هذا النِّداء هناك قضيَّة أريد التَّطرق إليها وهي: ما الفرق بين النَّبـي والرَّسـول؟ لكن سأرجئها عند حديثي عمَّا وصف الله ﷻ به نبيَّه ﷺ.

وفي هذا النِّداء تأييدٌ للرَّسول ﷺ ولدعوته، وبيانٌ لصفاته، وسيأتي الكلام عنها في مطلبٍ مستقل إن شاء الله.

وفي الآية تأنيسٌ للنَّبي ﷺ وللمؤمنين وتكريمٌ لجميعهم، وهذه الآية تضمَّنت من أسمائه ﷺ ستَّة أسماء[٣].

النِّداء الرَّابع: قوله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا

---

[١] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنيـة، ج٢، ص١١٠٤، حديث رقم: ١٤٧٨.

[٢] سورة الأحزاب: ٤٥.

[٣] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج٤، ٣٨٩. وانظر: القرطبي، الجـامع لأحكـام القـرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص٢٠٠.

فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١].

وفي هذا النِّداء الرَّباني لنبيِّه ﷺ توسعة له في مجال النِّكاح ما لم يوسَّع لغيره، لئلاً يكون عليه أدنى حرج، أو ضيق في دينه، واختصاص ما هو أولى وأفضل له في دنياه حيث أحــلَّ الله أجناس المنكوحات وزاد له الواهبة نفسها[٢].

النِّداء الخامس: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٣].

وهو نداءٌ أخيرٌ في السُّورة يأمر الله فيه نبيَّه ﷺ أن يــأمر النِّــساء المؤمنــات خاصَّــةً ــأزواجه وبناته لشرفهنَّ ــ بأن يدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ ليتميَّزن عن سمات نــساء الجاهليــة وسمات الإماء[٤].

وقد ذيِّلت فاصلة الآية بمغفرة الله ورحمته كالنِّداء السابق.

أهمِّية هذه النِّداءات الخمسة:

تكمن أهمِّية هذه النِّداءات في التَّشريف والتَّعظيم بمقام النَّبي ﷺ، حيث ناداه من اصــطفاه وبعثه بنداء النُّبوة ولم يناده باسمه المجرَّد كما نادى بقيَّة الأنبياء والمرسلين بأســمائهم المجــرَّدة عن الألقاب في القرآن الكريم [٥].

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٠.

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٦٠. وانظر: محمد بن يوسف أبــو حيــان الأندلــسي الغرناطي (ت: ٧٤٥هــ)، البحر المحيط، ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخــرون، ط١، دار الكتــب العلميــة، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ج٧، ص٢٣٤. وانظر: محمود بن عيسى الألوسي، أبو الفضل (ت: ١٢٧٠هــ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت، ج٢٢، ص٦١.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٩.

(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٦. وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مــصدر ســابق، ج٣٢، ص٦.

لذا فهذه النِّداءات الربَّانية لنبيِّه ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ بوصف النُّبوة دون اسمه العلم تشريفٌ له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، [١].

فإن قال قائل: ولم ذكر في السُّورة باسمه محمَّد في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٢]، ولم يذكره بوصف النُّبوَّة والرِّسالة؟ فالجواب ما ذكره الزمخشري حيث قال: "وترك نداءه باسمه كما قال يا آدم، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامةً له وتشريفاً وربئاً بمحلّه وتنويهاً بفضله، فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النِّداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[٣]، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[٤]، قلت: ذاك لتعليم النَّاس بأنَّه رسول الله، وتلقين لهم أن يسمُّوه بذلك، ويدعوه به، فلا تفاوت بين النِّداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التَّعليم والتَّلقين من الإخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النِّداء ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٥]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾[٦]،"[٧].

أمَّا سبب مجيء اسم النَّبي (محمد) في السُّور التَّالية: آل عمران، الأحزاب، محمد، الفتح، الصَّف؛ فلأنَّ الجامع بينها واضح وهو الجهاد في سبيل الله.

فآل عمران جاء في سياق غزوة أحد، وفي الأحزاب من اسمها، وفي محمد وهي التي تسمَّى بالقتال، وفي الفتح تدلُّ على القتال، وكذلك الصَّف فهي ظاهر من اسمها بمعنى إذا

---

[١] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص١٧٨.

[٢] سورة الأحزاب: ٤٠.

[٣] سورة الفتح: ٢٩.

[٤] سورة آل عمران: ١٤٤.

[٥] سورة التوبة: ١٢٨.

[٦] سورة الفرقان: ٣٠.

[٧] الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص ص: ٥٢٦ ــ ٥٢٧.

اصطفَّ المؤمنون للقتال في سبيل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[١].

وممَّا تجدر الإشارة إليه وتحت هذا المطلب يمكن أن يوضع ضابط من ضوابط المكِّي والمدني يتوصَّل إليه من خلال هذه الدِّراسة وهو:

أنَّ كل سورة جاء فيها ذكر " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ" أو " يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ" فهي مدنيَّة باتِّفاق، ولا داعي للاستشهاد لأنَّ النِّداءات واضحة.

وهذه السُّور هي على التَّرتيب: المائدة، الأنفال، التوبة، الأحزاب، الممتحنة، الطلاق، التحريم.

وأيُّ سورة ورد فيها ذكر: " عَبۡدِهِ" أو " بَشَرٌ" أو " رَجُلٌ" أو " صَاحِبُكُمۡ " (والمقصود فيها النَّبي ﷺ)، أو " ٱلۡمُزَّمِّلُ " أو " ٱلۡمُدَّثِّرُ"، فهي مكيَّة باتِّفاق، باستثناء سورة الحديد وهي مدنيَّة في الرَّاجح [٢]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[٣].

وهذه السُّور هي على التَّرتيب: الأعراف، يونس، الإسراء، الكهف، الفرقان، سبأ، فصِّلت، النَّجم، المزَّمِّل، المدَّثِّر، التَّكوير.

مثاله:

عبده: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾[الإسراء: ١]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾[الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ

---

[١] سورة الصف: ٤.

[٢] قلت في الراجح لأن بعض المفسرين قالوا بمكيتها. [انظر: منصور بن محمد السمعاني، أبو المظفر (ت: ٤٨٩هـ)، تفسير القرآن للسمعاني، ت: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٩٩٧م، ج٥، ص٣٦٤]. وانظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مصدر سابق، ج٥، ص٢٩٥]. فعلى هذا الرأي المرجوح تكون القاعدة عامة مطردة ليس فيها استثناء.

[٣] سورة الحديد: ٩.

لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقـان:١]، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمـر:٣٦]، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:١٠].

بشر: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[الكهف:١١٠] وذكرت أيضًا في سورة [فصلت:٦]....

رجل: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾[يونس:٢]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[سبأ:٧]...

صاحب: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف:١٨٤]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[سبأ: ٤٦]، ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[النجم: ٢]، ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[التكـوير: ٢٢].

لكن بقي أن نوجِّه سؤالاً وهو: ما السِّرُّ في اختلاف النِّداءات بين الفترة المكيَّة والمدنيَّة؟

لعلَّ السِّر في ذلك راجع إلى آداب الخطاب ومراعاة حال المخاطب، فلذلك لـم ينـاد الله سبحانه نبيَّه ﷺ بنداء النُّبوة والرِّسالة؛ لأنَّ أهل مكة أصلاً لم يعترفوا به نبيًّـا ولا رسـولاً، بـل كذَّبوه واتَّهموه بشرِّ أنواع التُّهم، فلذلك لو ناداه الله بنداء النُّبوة أو الرِّسـالة لاشـتدَّ أذى قـريش عليه، ولكنَّ الله لطيفٌ بعبده بصيرٌ بأحواله ناداه في هذه الفترة بالعبد ونسب إليه البشريَّة لأنَّه في الحقيقة هو نبيٌّ ورسولٌ سواء آمنوا به أم جحدوا، لكن كان ذلك مـن حكمـة الله ﷻ لنبيِّـه ﷺ مراعاةً لظروف البيئة.

أما بعد هجرته ﷺ إلى المدينة المنوَّرة فالبيئة اختلفت؛ فهم مصدِّقون بأنَّه نبـيٌّ ورسـولٌ من ربِّ العالمين، سواء المؤمنون به صدقًا وهم المهاجرون والأنصار ــ رضوان الله عليهم ــ، أو من اليهود، فهم يعرفون النَّبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وهـو مكتـوب عنـدهم فـي كتـبهم

بأوصافه، أو المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم [١]، ولهذا ناسب نداء الله لـــه فـــي هذه الفترة بالنُّبوة أو الرِّسالة، والله أعلم.

وفي ختام هذا المطلب يمكن القول: إنَّه ما دام ربُّ العزَّة ﷻ نادى نبيَّه ﷺ بما يليق بـــه، فالأجدر بنا أيضًا أن نناديه بهذا النِّداء بعد مماته بقولنا: نبيُّنا محمد ﷺ، أو رسولنا محمـــد ﷺ، لا أن نناديه باسمه المجرَّد محمد، ولو مع صلاتنا عليه لأنَّ الصَّلاة عليه هو شق ثان تكـــون بعـــد ذكر اسمه الشَّريف، وهذا ما سنتناوله في مطلبٍ لاحق إن شاء الله.

فالخطاب بوصف الرَّسول تشريفٌ للنَّبي ﷺ، وفي هذا التَّشريف والتَّكريم تعليمٌ وتأديـــب للمؤمنين يتضمَّن النَّهي عن مخاطبته باسمه، والأمر بأن يخاطبوه بوصفه، وكذلك كـــان يـــدعوه أصحابه: يا رسول الله، وجَهِل هذا الأدب بعض الأعراب، لِما كانوا عليه من خـــشونة الباديـــة، فكانوا ينادونه باسمه " يا محمد " حتى أنـــزل الله تعـــالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[٢]،[٣].

يقول الشَّنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [٤] أي: "لا تنادوه باسمه كيا محمد"[٥].

لأنَّه كان في زمانه ﷺ بعض الأعراب ينادونه باسمه المجرَّد من وراء حُجراته، فعاب

---

[١] انظر الآيات التي نزلت في أن المنافقين يعلمون بحقيقة النبي ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَـــالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١]. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُـــواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْـــنُ مُـــسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقـــرة: ١٤]، وقولـــه: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٤٧].

[٢] سورة النور: ٦٣.

[٣] انظر: محمد رشيد بن علي رضا (ت: ١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٦، ص٣١٩.

[٤] سورة الحجرات: ٢.

[٥] محمد الأمين بن محمد الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القـــرآن بـــالقرآن، ت: مكتـــب البحوث والدراسات، د.ط، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٧، ص٤٠٢.

الله عليهم فِعلهم ذلك، ووصفهم بعدم العقل؛ لأنَّهم لم يحسنوا الأدب في منـاداة النَّبـي ﷺ، قـال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[١].

المطلب الثاني: اقتران اسم الجلالة باسم النَّبي ﷺ، ونسبة رسالته إلى الله ﷻ.

أولا: اقتران اسم الجلالة باسم النَّبي ﷺ:

لقد اقترن لفظ الجلالة مع لفظة رسوله ﷺ في القرآن أربعًا وخمسين مرَّةً، وفـي سـورة الأحزاب اقترن تسع مرات مما يعني السُّدس، واقتران الرَّسول ﷺ بلفظ الجلالـة مُـشعرٌ بمقـام عظيمٍ ودرجةٍ رفيعةٍ.

وقد اشتمل هذا الاقتران في القرآن عامَّةً، وفي هذه السُّورة خاصَّةً على جوانـب هامَّـة منها:

ـ الاقتران في الطَّاعة: كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[٢] وقال: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾[٣]، وجاء في القرآن في أكثر مـن موضـع قولـه تعـالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[٤]، لأنَّ طاعة الرَّسول لكونه رسولاً فيما هو فيه رسول لا تكـون إلا طاعـةً لله ﷻ[٥]، ولذلك قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٦]، "وطاعة الرَّسول وسائر من أمر الله بطاعته هو في الحقيقة طاعة لله"[٧].

ـ الاقتران في المعصية: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[٨]، لـذا فعصيان الرَّسول ﷺ هو طبعًا عصيانٌ لله ﷻ؛ لأنَّ الرَّسول مهمَّته التَّبليغ عن ربـه فمـن كذَّبـه وعصاه فإنَّما كذَّب وعصى الذي أرسله، وفي هذا يقول النَّبي ﷺ: «من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَـاعَ اللَّـهَ

[١] سورة الحجرات: ٤.

[٢] سورة الأحزاب: ٧١.

[٣] سورة الأحزاب: ٣٣.

[٤] سورة الأنفال: ٤٦.

[٥] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج١٠، ص١٥٥.

[٦] سورة النساء: ٨٠.

[٧] البيضاوي، أنوار التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص١٤١.

[٨] سورة الأحزاب: ٣٦.

وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»[١]، ولهذا في الآخرة: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[٢].

ـ الاقتران في التّكذيب: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٣]، فلمّا كذّبوا بوعد الرّسول ﷺ الذي هو في الأصل وعدٌ الله ووصفِهم إيّاه بالغرور فكانت نتيجة هذا التّكذيب أن ردّ الله عليهم بعد آيات بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[٤]، فدلّت الآية أنّ عدم التّصديق بوعد الرّسول ﷺ أمرٌ محبطٌ للأعمال.

ـ الاقتران في الصّدق والوعد: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[٥]، فالمؤمنون لم يزدهم الجهد والبلاء يوم الأحزاب إلاّ تصديقاً لقول النّبي ﷺ، وَجُرْأةً وتسليمًا لما أمر به ووعد[٦].

ـ وفي الإيذاء: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[٧].

---

[١] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ج٦، ص٢٦١١، حديث رقم: ٦٧١٨.

[٢] سورة النساء: ٤٢.

[٣] سورة الأحزاب: ١٢.

[٤] سورة الأحزاب: ١٩.

[٥] سورة الأحزاب: ٢٢.

[٦] انظر: نصر بن محمد السمرقندي أبو الليث (ت: ٣٦٧هـ)، بحر العلوم، ت: محمود مطرجي، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٣، ص٥٠.

[٧] سورة الأحزاب: ٥٧.

فالمؤذون لا يبلغون أن يؤذوا الله، إنَّما هذا التَّعبير يصوِّر الحساسية بإيــذاء رســوله، وكأنَّما هو إيذاءٌ لذاته جلَّ وعلا، فما أفظع! وما أبشع! وما أشنع ذلك![١].

هذا ما جاء في السُّورة من الموضوعات التي اقترن فيها اسم النَّبي ﷺ مع لفظ الجلالــة، وأمَّا في القرآن فكثيرةٌ جدًّا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

ــ الاقتران في العزَّة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[٢].

ــ وفي الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٣].

ــ وفــي العــداوة والحــرب: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٤]، ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[٥].

ــ وفي المحبَّة: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٦]، ولذلك قال تعالى على لسان نبيِّــه ﷺ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾[٧].

يقول الرازي: "إنَّه تعالى قرن طاعته بطاعته فقــال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٨]، وبيعته ببيعتِه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[٩]، وعزَّته بعزَّته فقــال:

---

[١] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٧٩.

[٢] سورة المنافقون: ٨.

[٣] سورة المائدة: ٥٥ ــ ٥٦..

[٤] سورة البقرة: ٢٧٩.

[٥] سورة التوبة: ١.

[٦] سورة التوبة: ٢٤.

[٧] سورة آل عمران: ٣١.

[٨] سورة النساء: ٨٠.

[٩] سورة الفتح: ١٠.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[١]، ورضاه برضاه فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[٢]، وإجابته بإجابته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٣]،"[٤].

وأهميَّة اقتران لفظة الرَّسول ﷺ بلفظ الجلالة مع تنوُّع اقترانهما في صفات شتَّى ممَّا لا ينفرد به المولى ﷻ؛ منبئٌ عن رفعة الرَّسول ﷺ وقربه عند الله.

وأيُّ رفع مثل أن قُرن اسمه ﷺ باسمه ﷻ في كلمتي الشَّهادة، وجعلت طاعتَه طاعتُه، وصلَّى عليه في ملائكتِه وأمر المؤمنين بالصَّلاة عليه، وخاطبه بالألقاب كيا أيُّها المدثر، يا أيُّها المزَّمِّل، يا أيُّها النَّبي، ويا أيُّها الرَّسول، وذكره سبحانه في كتب الأوَّلين وأخذ على الأنبياء ـــ عليهم السَّلام ـــ وأممهم أن يؤمنوا به ﷺ[٥].

ولهذا روي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أتاني جبريل فقال: إنَّ ربِّي وربُّك يقول لك: كيف رفعت ذكرك؟ قال الله أعلم، قال: إذا ذُكِرتُ ذكرتَ معي»[٦].

ونخلص من نهاية هذا المطلب أن المقترن ـــ وهو الرَّسول ﷺ ـــ بلفظ الجلالة لا يزيد ذلك الاقتران إلا عزَّةً وحصانةً ومكانةً ومعيةً، فلا تضرُّه ﷺ جموع الأحزاب في أيِّ وقتٍ كانت ما دام في كنف الله ورعايته.

ثانيًا: نسبة رسالة النَّبي ﷺ إلى الله ﷻ:

ولمكانة النَّبي ﷺ في السُّورة فقد وردت نسبة رسالته إلى الله ﷻ ثلاث مراتٍ:

أولاها: قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾[٧]، جعل الله تعالى التَّأسِّي متعلّق بذات الرَّسول ﷺ دون وصفٍ خاص ليشمل التَّأسِّي به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب

---

[١] سورة المنافقون: ٨.

[٢] سورة التوبة: ٦٢.

[٣] سورة الأنفال: ٢٤.

[٤] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٦، ص١٦٥.

[٥] انظر: الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٣٠، ص١٦٩.

[٦] ابن حبان، صحيح ابن حبان، مصدر سابق، باب ١١، (ذكر الإخبار عن إباحة تعداد النعم للمنعم على المنعم عليه في الدنيا)، ج٨، ص١٧٥، حديث رقم ٣٣٨٢.

[٧] سورة الأحزاب: ٢١.

نواهيه، والتَّأسِّي بأفعاله من الصَّبر والشَّجاعة والثبات [١]، والآية وإن سيقت للتأسِّي بـــالنَّبي ـــ عليه الصَّلاة والسَّلام ـــ في أمر الحرب من الثبات ونحوه، فهي عامَّةٌ في كل أفعالـــه ﷺ إذا لـــم يعلم أنَّها من خصوصياته كنكاح ما فوق أربع نسوة [٢].

فإضافة الإرسال إلى الله في هذه الآية وتقديمها على الأسوة للاهتمام بالمُرسل، وكـــذلك إطلاق الأسوة الحسنة، وعدم استثنائها في شيء دليلٌ على التَّأسِّي به في كلِّ شيء ما لم يكن في ذلك أمر خصوصي بالنَّبي ﷺ، بخلاف قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[٣].

ولهذا لمَّا كان وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، وهو مشرك ليس من هذا الهدى، بل كان مسألةً شاذَّة لها سببٌ خاص [٤] استثناها تعالى من التَّأسِّي به في قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾،[٥].

ثانيها: قوله تعـــالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾[٦]، أي قولـــوا ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾[٧]، فهو رسولٌ لله وكلُّ رسول أبو أمَّته لكن لا حقيقةً، بل بمعنى أنَّه شفيقٌ ناصحٌ لهم وسببٌ لحياتهم الأبديَّة إن امتثلوا لأوامره[٨].

---

[١] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٢٣.

[٢] انظر: البيضاوي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢١، ص١٦٧.

[٣] سورة الممتحنة: ٤.

[٤] يقصد بالمسألة الشاذة ذات الحكم الخاص، قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤].

[٥] انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج٧، ص٤٩٧.

[٦] سورة الأحزاب: ٤٠.

[٧] سورة الفتح: ٢٩.

[٨] انظر: محمد بن محمد العمادي، أبو السعود (ت: ٩٥١هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القـــرآن الكـــريم، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، ج٧، ص١٠٦.

وآخرها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[١].

"وفي إضافة الرَّسول إلى اسم الله ﷻ إيذانٌ بأنَّ إيذاءه إيذاءٌ لمُرسله أي: سببٌ لعقابه، كما أنَّ طاعته طاعة له وسبب لثوابه"[٢].

ولنضرب مثالاً على ذلك لتتَّضح الصُّورة أكثر، ففي عالم النَّاس اليوم أنَّه عندما يبعث مُرْسَلٌ من دولة عظمى كأن يكون مرسول أمريكا إلى دولة أخرى، فإنَّه يحظى لدى المبعوثين بحرارة الاستقبال وبالاستماع إلى الرِّسالة التي يحملها ويعقد لها مترجمون وصحفيون ليفهموا فحوى الرِّسالة، ولو كان هذا المرسل ضعيف البدن أو قصير القامة أو ذميم الخلقة أو البشرة؛ لأنَّ المهابة والخوف لم تكن من ذات المرسل؛ وإنَّما من الدَّولة الباعثة التي تتمتَّع بالقوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية وغير ذلك، لذا فقيمة المبعوث من قيمة الباعث.

ولله المثل الأعلى فهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ، وهو الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، وهو القاهر فوق عباده.

إذن فإضافة الرِّسالة إلى الله ﷻ هو تعظيمٌ لجانب هذه الرِّسالة وإقامة لمعذرته في التَّبليغ بأنَّه رسول من القادر على كلِّ شيء[٣].

وفي الختام نقول: إنَّ أجواء سورة الأحزاب كانت شاهدة بتصاعد كيد المنافقين، وانتشار الأراجيف من ذوي القلوب المريضة، وتعاظم خطر اليهود، مع تربُّص الكافرين بالنَّبي ﷺ، إلَّا أنَّنا شاهدنا كيف كان للنَّبي ﷺ من معيَّة عند الله سبحانه وتأييد في رسالته بأنَّه رسول من عند الله، وهذا ممَّا يزيد المُرْسَل يقينًا وثباتًا وطمأنينةً رغم ما يحدق به من أخطار: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٣.

[٢] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج١٠، ص٤٤٩.

[٣] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٥، ص٢٠٣.

[٤] سورة البقرة: ١٣٧.

المطلب الثالث: صلاة الله ﷻ على النَّبي ﷺ:

ومن جملة تفضيل الله ﷻ لنبيِّه ﷺ الصَّلاة عليه مع ملائكته في كلِّ آنٍ وحين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[١].

"ولمَّا كان سبحانه قد قدَّم قوله في آية سابقة من نفس السُّورة بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾[٢]، فأفرد كلاً بخبر، وكان النَّبي ﷺ أعلى المخاطبين حظّاً فإنَّه رأس المؤمنين، أفرده هنا بهذه الصَّلاة التي جمع فيها الملائكة الكرام معه سبحانه، وجعل الخبر عنه قولاً واحداً ليكون أتمّ، فإنَّ قولك: فلان وفلان ينصران فلاناً، أضخم من قولك: فلان ينصره وفلان، فقال تعالى: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾،" [٣].

"والمقصود من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيِّه عنده في الملأ الأعلى بأنَّه يثني عليه عند الملائكة المقرَّبين، وأنَّ الملائكة تصلّي عليه"[٤].

وفي الآية إشارة إلى أنَّ صلاة الله وملائكته على نبيِّه ﷺ دائمة مستمرة سواء أكانت في حياته أم بعد مماته ﷺ، وهذا يقتضي أن عِظَم المُصلّين عليه دليل على عَظَمَة المُصلّى عليه عندهم.

يقول الألوسي: "والتَّعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الدَّوام والاستمرار، وذكر أنَّ الجملة تفيد الدَّوام نظرًا إلى صدرها من حيث أنَّها جملة اسمية، وتفيد التَّجدُّد نظرًا إلى عجزها من حيث أنَّها جملة فعلية، فيكون مفادها استمرار الصَّلاة وتجددها وقتًا فوقتا، وتأكيدها بأن للاعتناء بشأن الخبر وقيل لوقوعها في جواب سؤال مقدر هو: ما سببُ هذا التَّشريف العظيم؟ وعبَّر بالنَّبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه ــ عليهم السَّلام ــ إشعارًا بما اختُص به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلوِّ القدر، وأكَّد ذلك الإشعار (بأل) التي للغلبة إشارة إلى أنه ﷺ المعروف الحقيق بهذا الوصف"[٥].

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٦.

[٢] سورة الأحزاب: ٤٣. [والصلاة في الآية هي على المؤمنين].

[٣] البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج٦، ص١٣٢.

[٤] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠٧.

[٥] الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢٢، ص ص: ٧٥ ــ ٧٦.

وصلاة الله تبارك وتعالى على نبيِّه ﷺ هو الثَّناء عليه في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة تعني الدعاء له ﷺ، ولهذا بوَّب هذا المعنى الإمام البخاري في صحيحه حيث قال: «بَاب إِنَّ اللَّـهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على النبي يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، قال أبو الْعَالِيَةِ صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عليه عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ»(١).

وسرُّ مناسبة الصَّلاة عليه في جوِّ هذه السُّورة دون غيرها هي بمثابة المكرُمة والتهنئة للنَّبي ﷺ، لبلوغِه أعلى درجات الصَّبر والابتلاء في سبيل الدعوة إلى الله بعد سنواتٍ خاضها في الدَّعوة المكية، وما لاقاه منها من ألوان العذاب الحسِّي (٢)، والمعنوي (٣)، ثم بعد هجرته وما عاناه من كيد اليهود والمنافقين، وفي الحوادث كموت عمِّه حمزة ﷺ، وما لحق بهم في أحد، ومن شدَّة مشهد غزوة الأحزاب؛ لأنَّ المِنح تعطى دائمًا بعد المِحن، كما ناسب أيضًا إخباره بمغفرة ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبمِننٍ أخرى في مطلع سورة الفتح نتيجة لجهده المبذول في تحقيق الفتح الأعظم لتمكين دين الإسلام.

المطلب الرابع: رعاية الله ﷻ للنَّبي ﷺ، والتَّخفيف عنه.

أوَّلاً: رعاية الله ﷻ للنَّبي ﷺ:

وجَّه الله ﷻ نبيَّه ﷺ في مستهلِّ الآيات الأولى من هذه السُّورة توجيهات عظيمة، وأدَّبه بأدبيَّات ربَّانية (٤)، وأحسن في خُلقه ليكون الأسوة للمؤمنين، وهذه التَّوجيهات وإن اختلفت مواضعها وموضوعاتها فالمقصد منها تزكية نفس النَّبي ﷺ ورفعه إلى مدارج الكمال ليكون قدوة لأمَّته في امتثال أوامر الله سبحانه واجتناب نواهيه، ولا يقصد من التَّوجيهات مفهوم المخالفة لعصمة الأنبياء من الكبائر بإجماع الأمَّة (٥)، ومن هذه التَّوجيهات:

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب إن الله وملائكته يصلون على النبي، ج٤، ص١٨٠٢، وهذا الجملة مبوبة عند البخاري.

(٢) مثل نفيه إلى شعاب مكة وإلقاء سلا الجزور عليه وهو ساجد، وما لقيه من أبي لهب وامرأته حمالة الحطب ومن زعماء قريش، وما لحق به في الطائف حيث أدميت قدماه، و...

(٣) مثل همزه ولمزه وشتمه ووصفه بالساحر والمجنون و...

(٤) يذكر الرازي: «أن السورة فيها تأديب للنبي ﷺ من ربه»[ج٢٥، ص١٨٧]

(٥) انظر: السمعاني، تفسير القرآن للسمعاني، مصدر سابق، ج٤، ص٥٦. وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٣، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج٣، ص٢٩٩. وانظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٨.

أولاً: قوله تعالى لنبيِّه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾[١]، أي دم على تقوى الله وواظب عليها، واجتنب طاعة الكافرين والمنافقين فيما يخالف شريعتك [٢].

"وفي إيراد هذا النَّهي بعد الأمر بتقوى الله، إشارة وإيحاء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة، لزحزحة النَّبي ﷺ عمَّا هو عليه من حق، وصرفه عن دعوته إلى الإسلام"[٣].

وجدَّد خِطابه تعالى لرسوله في موضع آخر من نفس السُّورة قائلاً له: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾[٤]، "والمراد بها التَّهييج أو الدَّوام والثَّبات على ما كان عليه، ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ هو بمعنى ترك الإيذاء، فيُحمل أن يكون مضافًا إلى الفاعل أي اجعل إيذاءهم إيَّاك في جانب ولا تبال بهم ولا تخف من إيذائهم، أو إلى المفعول أي دع إيذاءك إيَّاهم مكافأةً لهم"[٥].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٦].

واتباع النَّبي ﷺ للوحي هو تأكيد لما سبق، من مفهوم سياق الآية قبلها؛ لأنَّ اتباع الوحي يستلزم الإعراض وعدم الإصغاء للكافرين والمنافقين، وعدم الاكثرات بهم؛ لأنَّ الذي بين يديه من الوحي يغني عن اتِّباعهم: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾[٧].

---

[١] سورة الأحزاب: ١.

[٢] انظر: الجلالين، (محمد بن أحمد جلال الدين المحلى (ت: ٨٦٤هـ)، وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ).) تفسير الجلالين، ط١، دار الحديث، القاهرة، د.ت، ج١، ص٥٤٩. وطبعا تفسير الآية للسيوطي لأنه أكمل تفسير الجزء الثاني من القرآن.

[٣] محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د.ط، مطبعة السعادة، ١٩٨٥م، ج٢١، ص١٤.

[٤] سورة الأحزاب: ٤٨.

[٥] عبد الله بن أحمد النسفي، أبو البركات (ت: ٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، د.ط، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥، ج٣، ص٢٤٧.

[٦] سورة الأحزاب: ٢.

[٧] سورة المائدة: ٤٨.

عطف على ما تقدَّم من قبيل عطف العام على الخاص، أي: اتَّبع في كل ما تأتي وتــذر من أمور الدِّين ما يوحى إليك من الآيات، والتي من جملتها هذه الآية الآمرة بتقــوى الله تعــالى النَّاهية عن طاعة الكفرة والمنافقين، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر[١].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٢].

جاء التَّوكيد على التَّوكل في السُّورة مرَّتين وهذا دليل على أهمِّيته؛ لأنَّ الوكيل ســيحمي من وَكَل الأمر إليه وهو النَّبي ﷺ؛ لأنَّه في أمسِّ الحاجة للأخذ بهذا التَّوجيه الرَّباني الذي يتــزود به ــ كما زوَّده بالتقوى في مطلع السُّورة ــ نظرًا للمحن والشدائد التــي واجهتــه مــن تألُّــب للأحزاب، وتنظيم لبعض الأحكام المتعلقة به كقضيَّة التَّبني والتَّخييــر وإحــلال الأزواج؛ لأنَّــه سيطال عرضه المنافقون والذين في قلوبهم مرض، كأنَّه قال له: أكفيك لمقاومتهم بالتَّوكل علــي وتفويض أمرك إليَّ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[٣].

يقول سيد قطب في الظلال: "والتَّوجيه الأخير: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾، فلا يهمَّنَّك أكانوا معك أم كانوا عليك، ولا تحفل بكيدهم ومكرهم، وألق بأمرك كلّه إلى اللّه، يــصرفه بعلمه وحكمته وخبرته، وَرُدَّ الأمر إلى اللّه في النِّهاية والتَّوكل عليه وحده؛ لأنَّها القاعدة الثابتــة المطمئنة التي يفيء إليها القلب فيعرف عندها حدوده، وينتهي إليها ويدع ما وراءهــا لــصاحب الأمر والتَّدبير، في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين.

وهذه العناصر الثَّلاثة: تقوى اللّه، واتِّباع وحيه، والتَّوكل عليه – مع مخالفــة الكــافرين والمنافقين– هي العناصر التي تزوِّد الدَّاعية بالرَّصيد، وتقيم الــدَّعوة علــى منهجهَــا الواضـــح الخالص من اللّه، وإلى اللّه، وعلى اللّه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾،"[٤].

---

[١] انظر: الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢١، ص١٤٤.

[٢] سورة الأحزاب: ٣ و٤٨. يعني وردت مرتين.

[٣] سورة الزمر: ٣٦.

[٤] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٢٣.

رابعًا: ومن جملة رعاية الله له قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[١]، وهــذا نظير قوله تعالى في أواخِــر الــسُّورة: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢]

فالخطاب عام، وفي هذا دليل على كمال الرَّقابة والعناية الإلهية لنبيِّه ﷺ، فالذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب، ولكنَّه خاف أن يسلّط الله عليه ألسنة المنــافقين وينــالوا منه، فأخفاه حياءً وحشمةً وصيانةً لعرضه [٣].

خامسًا وأخيرًا: قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[٤].

"وليس هذا إشارة إلى أنَّ النَّبي ﷺ خشي النَّاس ولم يخش الله، بل المعنى: الله أحــقُّ أن تخشاه وحده، ولا تخش أحداً معه، وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾،" [٥].

فالآية إذن ليست في مقام توبيخ وعتاب للنَّبي ﷺ ــ ولو أنَّه حقيقةً عوتب في غير هــذا الموضع [٦] ــ بدليل سياق الآيات:

كيف يعقل إذا كان هذا توبيخًا أن يُعَقّب الله بعد هذه الآية مباشرةً بأنَّه ليس على النَّبي ﷺ من حرج فيما فرض الله له، ونفي الحرج دليلٌ على أنَّه لم يقم بشيء يستحقُّ به التَّوبيخ، ويبــيِّن سبحانه وتعالى بعد ذلك أنَّ هذه سنَّته في إخوانه من الأنبياء الذين سبقوه من قبل.

مجيء السِّياق بمَدْح الله له بتبليغ الرِّسالة، وبحقيقة خشيته له سبحانه، مع عــدم خــشية غيره، وجاء بالفعل المضارع فقال: ﴿يُبَلِّغُونَ﴾، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ الذي يفيد الحال، ويفيد التجدُّد، لذا فالخطاب يشمله ﷺ.

---

[١] سورة الأحزاب: ٣٧.

[٢] سورة الأحزاب: ٥٤.

[٣] انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٨.

[٤] سورة الأحزاب: ٣٧.

[٥] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٨٤.

[٦] كقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْــتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَــذْكِرَةٌ﴾ [ســورة عبس: ١ ــ ١١]، وغيره.

لذا فتبليغ الرِّسالة هو في النَّبي ﷺ خاصَّة، وهو يخشى الله أن يكتم عن الناس[١].

يقول ابن عاشور: "ليست خشية خوفٍ توجب ترك ما يكرهُه النَّاس، أو فعل ما يرغبونه بحيث يكون النَّاس محتسبين على النَّبي ﷺ؛ ولكنَّها توقّعٌ أن يصدر من النَّاس وهم المنافقون ما يكرهه النَّبي ﷺ، ويدلُّ لذلك قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، أي الله حسيب الأنبياء لا غيره.

هذا هو الوجه الصَّحيح في سياق تفسير هذه الآيات، فلا تسلك في معنى الآيــة مــسلكًا يُفضي بك إلى توهُّم أنَّ النَّبي ﷺ حصلت منه خشية النَّاس وأنَّ الله عرَّض به فــي قولــه: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تصريحًا بعد أن عرَّض به تلميحًا في قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾[٢]، بل إنَّ النَّبي ﷺ لم يكترث بهم وأقدم على تزوُّج زينب، فكلُّ ذلك قبل نزول هذه الآيات التي ما نزلت إلا بعــد تزوُّج زينب كما هو صريح قوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[٣]، ولم يتأخَّر إلى نزول هذه الآية"[٤].

إذا كان هذا سياق عتاب بأن أخفى في نفسه ﷺ إرادة الزَّواج بزينب مع أنَّه حــلالٌ كمــا بيَّنت ويستحقُّ المعاتبة على ذلك، فلِمَ يُحلُّ الله له إذن بعد ذلك الزَّواجَ ببنات عمَّاته، وزينب بنت جحش الأسدية ابنة عمَّة رسول الله ﷺ، ــ يعني أيعاتبه على شيء ثم يبيحه له!!! تعالى الله عــن ذلك علوًّا كبيرًا ــ، ولهذا عدَّ الآية الطباطبائي من قبيل الانتصار والتَّأييد للنَّبي ﷺ حيث يقــول: فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، مسوقٌ لانتصاره وتأييــد أمره قِبال طعن الطَّاعنين ممَّن في قلوبهم مَّرض، والدَّليل على أنَّه انتصارٌ وتأييدٌ فــي صــورة عتاب قوله بعد: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ حيث أخبر عن تزويجه إيَّاها كأنَّــه أمــرٌ خارجٌ عن إرادة النَّبي ﷺ واختياره[٥].

---

[١] انظر: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، أبو الحسن (١٥٠هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، ت: أحمد فريــد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ج٣، ص٤٨.

[٢] سورة الأحزاب: ٣٧.

[٣] نفس الآية.

[٤] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٧١.

[٥] انظر: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة الأعلمــي للمطبوعــات، بيــروت، ١٩٩١م، ج٢٢، ص٣٢٩.

وممَّا يؤسف له ما ذكره كثيرٌ مــن علمــاء التَّفــسير كــالطَّبري [١]، والواحــدي [٢]، والسَّمعاني[٣]، والبغوي [٤]، وابن الجوزي [٥]، والثَّعالبي [٦]، والنَّسفي [٧]، وغيرهم من رواياتٍ واهيةٍ لا تليق بمقام الأنبياء فضلاً عن أنَّها تخالف النُّصوص، وقد ذكروا هذه الرِّوايــات أثنــاء تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾[٨]، فذكروا سببًا لنزول هذه الآية ــ وهي قصَّة غرامٍ وعشقٍ حــدثت بين النَّبي وزينب، وهي شبيهةٌ بقصَّة داود مع أوريا بن حنان في تفسيرهم لقولــه تعــالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾[٩]ــ: وذلك أنَّ النَّبي دخل عليها يومًا فرآها قائمة وكانت بيضاء جميلة ذات خلق، وهي في درعٍ وخمار، فلمَّا رآها وقعت في قلبه، وأعجبه حُسنها فهَوِيَها، وقال: سبحان مقلّب القلوب، وسمعت ذلك زينب، وخرج رسول الله وفي قلبه ما شاء الله، فلمَّــا دخــل عليها زيد ذكرت ذلك له، فأتى النَّبي ﷺ وقال: أريد أن أفارق صاحبتي فقال: ما لك أرَابَك منهــا شيء، فقال: لا والله ما رأيت منها إلا خيرًا، ولكنَّها لشرفها تتعظَّم عليَّ، فقال له: امــسك عليــك زوجك واتَّق الله.

---

[١] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص٢٤٤.

[٢] انظر: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن (ت: ٤٦٨هـ)، الوجيز في تفسير الكتــاب العزيــز، ت: صــفوان عدنان الداوودي، دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ، ج٢، ص٨٦٦.

[٣] انظر: السمعاني، تفسير القرآن للسمعاني، مصدر سابق، ج٤، ص٢٨٦.

[٤] انظر: البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص٥٣١.

[٥] انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مصدر سابق، ج٦، ص٣٨٦.

[٦] انظر: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، أبو زيد (ت: ٨٧٦هـ)، الجواهر الحسان في تفــسير القــرآن، د.ط، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت، ج٨، ص٤٧.

[٧] انظر: النسفي، مدارك التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص٤٤٠.

[٨] سورة الأحزاب: ٣٧.

[٩] سورة ص: ٢١.

فهذه الرِّواية ضعيفةٌ لأسباب هي:

١ ــ معارضتها لقوله تعالى في سورة الحجر المكّيَّة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[١]، وفي سورة طه المكّيَّة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢]، فالنَّبي ﷺ هنا منهيٌّ عن أن يمدَّ عينيه إلى مُتَع الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها بما فيها النِّساء، ودليل دخول النساء في مُتع الحياة الدنيا هو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٣]، فما بالك بأن يدخل إلى بيت زيد وينظر إلى زوجته وهي في زينتها، ثم يشتهي زواجها، ويخفي ذلك الحبَّ عن زيد.

٢ ــ عدم عثوري على الرِّواية في جميع كتب الصِّحاح والمسانيد والسُّنن وغيرها، علمًا أنَّ الرِّواية جاءت غير مسندة في كتب التَّفسير.

يقول ابن حجر في الفتح: "وردت آثارٌ أخرى أخرجها بن أبي حاتم والطبري ونقلها كثيرٌ من المفسِّرين لا ينبغي التَّشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد، والحاصل أنَّ الذي كان يُخفيه النَّبي ﷺ هو إخبار الله إيَّاه أنَّها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول النَّاس تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التَّبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنًا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنَّما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية والله أعلم"[٤].

يقول ابن كثير: "ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثارًا عن بعض السَّلف ــ رضي الله عنهم ــ أحببنا أن نَّضرب عنها صفحًا لعدم صحَّتها فلا نوردها"[٥].

يقول الشنقيطي: "إنَّ ما يقوله كثيرٌ من المفسِّرين من أنَّ ما أخفاه في نفسه ﷺ وأبداه اللَّه وقوع زينب في قلبه ومحبّته لها وهي تحت زيد وأنَّها سمعته قال: (سبحان مقلب القلوب) إلى

---

[١] سورة الحجر: ٨٨.

[٢] سور طه: ١٣١.

[٣] سورة آل عمران: ١٤.

[٤] ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج٨، ص٥٢٤.

[٥] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩٢.

آخر القصَّة كلُّه لا صحَّة له، والدَّليل عليه أنَّ اللَّه لم يبدِ من ذلك شيئًا مع أنَّه صرَّح بأنَّه مبـــدي ما أخفاه رسول اللَّه ﷺ"[١].

فالحذر ثمَّ الحذر من هذه الرِّوايات التي تقدح في شخص النَّبي ﷺ، والتي يتذرَّع ويتمسَّك بها أعداء هذا الدِّين للتَّهجُّم على النَّبي ﷺ، والتي تُفسد من تذوُّق تفسير نصوص القرآن، وتُفقــده روحه ورونقه ورسالته.

ثانيًا: التَّخفيف عن النَّبي ﷺ:

لقد تعرَّضت السُّورة لأحكام وقضايَا تتعلَّق ببيت النُّبوَّة من تحريم وتوسعة، فناسب ذلــك نفي الحرج [٢] والجُناح [٣] عن النَّبي ﷺ من قِبل الله ﷻ في عدَّة أماكن من السُّورة تخفيفًا عنــه ورفعًا من شأنه وذلك فيما يلي:

١ــ جاء نفي الحرج عن النَّبي ﷺ بعد ما أحلَّ الله له زواج امرأة مَن تبنَّاه وهو زيد بعد طلاقها، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾[٤]،أي: ما صحَّ وما اســتقام فــي الحكمة أن يأمره بشيء وله عليه في ذلك ضيقٌ، فما قسَّم الله له وقدَّره عليه ليس فيه إثم[٥].

ولم يقل أحد أنَّ نفي الحرج على النَّبي ﷺ حدث في الزَّمن الماضي، بل يعم نفيّــه فــي الحال والاستقبال، وهو موضع الفائدة له ﷺ منها [٦].

٢ ــ وجاء نفي الحرج عنه ﷺ بعد التَّوسعة عليه في المنكوحات، قال تعــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

---

[١] الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٦، ص ص: ٢٣٩ ــ ٢٤٠.

[٢] "الحرَج: الإثم، والحَرَج الضيق". [أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هــــ)، معجــم مقــاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ج٢، ص٥٠، مــادة: حــرج: الحــاء والراء والجيم].

[٣] "الجُناح، بالضم: الــميل إلى الإثم، وقيل: هو الإثم عامّة.والجُناحُ: ما تُــحُمِّلَ من الهَمِّ والأذَى".[ابن منظــور، لسان العرب، مصدر سابق، ج٢، ص٤٣٠].

[٤] سورة الأحزاب: ٣٨.

[٥] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٥. وانظــر: الألوســي، روح المعــاني، مصدر سابق، ج٢٢، ص٢٦.

[٦] انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج٧، ص٦٤.

عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَـةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَـةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَـا مَا فَرَضْنَـا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١]، أي: لئلاً يكون عليك ضيقٌ في دينك حيث اختصصناك بالتَّنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل، وفي دنياك حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها من غير عوضٍ [٢].

ولهذا ذُيّلت الآية بالمغفرة التي سترت نبيَّه، وبالرَّحمة التي غمرته حيث أنعمت عليه ووسَّعت له في منكحه.

٣ ــ ومن تيسير الله له أيضًا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾[٣].

فهذه الآية فيها تفويضٌ من الله ﷻ إلى نبيِّه ﷺ أن يصنع في زوجاته ما يشاء من تقديمٍ وتأخيرٍ، وعزلٍ وإمساكٍ، وضَمٍّ وإرجاءٍ وما شاء في أمرهنَّ، وهذا يعتبر فعل توسعة عليه، ونفيًا للحرج عنه، ولا لوم ولا عتاب عليه في ذلك[٤].

يتبيَّن لنا أنَّ النَّبي ﷺ كان محطَّ العناية الربَّانية به، وكانت مظاهر هذه العناية متمثّلة في رعايته، وتوجيهه، والتَّخفيف عنه وهي ملائمةٌ لأجواء الأحزاب، وبالتَّغيُّرات المِحْورية التي حدثت معه، كيف لا وهو بمرأى الله وحفظِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٥].

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٠.

[٢] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق،ج ٣، ص٥٦٠. وانظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٤.

[٣] سورة الأحزاب: ٥١.

[٤] انظر: محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، د.ط، دار الفكر، بيروت، دت، ج٤، ص٢٩٣.

[٥] سورة الطور: ٤٨.

المطلب الخامس: وصفُ الله ﷻ نبيَّه ﷺ:

وردت آياتٌ في سورة الأحزاب جُمِعَت فيها أغلب أوصاف النَّبي ﷺ التي وصفه الله بها في قرآنه، فقـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَـذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [١]، وهذه الأوصاف هي للتَّنويه بشأنه وزيـادة رفعـة مقداره وتبيينٍ لأركان رسالته، والشَّيء إذا عظُم قدرُه عظمت أسماؤه [٢]، لذا فقد اشتملت الآيـة على سبعة أوصاف مع تأكيد لوصف، وهي:

١ــ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾: أنَّه النَّبيُّ، قرأ نافع بالهمز من أنبأ أي أخبر عن الله كما قال تعـالى: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا﴾[٣]، فالنَّبي ﷺ يُنبئ أي يخبر عن الله وهو فعيل من أنبأ، وقرأ الباقون بغير همـزٍ من نبا نبو إذا ارتفع فيكون فعيلاً من الرِّفعة، والنَّبوة الارتفاع، وإنَّما قيل للنَّبـي نبـي لارتفـاع منزلته وشرفه تشبيهًا له بالمكان المرتفع على ما حوله [٤].

والنَّبيُّ بغير الهمز هو من النَّبْوة أي الرِّفعة، وسُمِّي نبيًّا لرفعة محلِّه عن سـائر النَّـاس المدلول عليه بقوله: ﴿وَرَفَعۡنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٥]، فالنَّبي بغير الهمز أبلغ من النَّبئ بالهمز؛ لأنَّه ليس كل

---

[١] سورة الأحزاب: ٤٥ ــ ٤٧.

[٢] وقد ذكر ابن العربي تعقيبا على الآية سبعا وستين اسما للنبي ﷺ ثبتت كلها من جهة الورود الظاهر. انظـر: محمد بن عبد الله بن العربي، أبو بكر (ت: ٥٤٣هــ)، أحكام القرآن، ت: محمد عبد القـادر عطـا، د.ط، دار الفكر للطباعة، لبنان، د.ت، ج٣، ص٥٨٠.

[٣] سورة التحريم: ٣.

[٤] انظر: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (٤٠٣هــ)، حجة القـراءات، ت: سـعيد الأفغـاني، ط٢، مؤسـسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هــ، ج١، ص٩٨.

[٥] سورة مريم: ٥٧.

منبــًّإ رفيع القدر والمحل[١]، أمَّا النبئ إذا كان مهموزًا فهو من النَّبأ أي الخبر لأنَّـــه أنبـــأ عـــن الله[٢].

٢ ــ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: أنَّه الرَّسول، كما بيّن ذلك في الآية السَّابقة حيــث قــال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾[٣]، فهو مُرسل من ربِّه.

٣ ــ﴿شَٰهِدًا﴾: أنَّه الشَّاهد، ويحتمل وجوهاً:

أحدها: أنَّه شاهدٌ على الخلق يــوم القيامـــة كمـــا قـــال تعـــالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٤]، وعلى هذا فالنَّبي بعث شاهداً أي مُتحمِّلاً للشهادة، ويكون فـــي الآخـــرة شـــهيداً أي مؤدِّياً لما تحمَّله.

ثانيها: أنَّه شاهد أن لا إله إلا الله، وعلى هذا لطيفة وهو أنَّ الله جعل النَّبي شاهداً علـــى الوحدانية [٥]، والشَّاهد لا يكون مدَّعياً فالله تعالى لم يجعل النَّبي في مسألة الوحدانية مدَّعياً لهـــا؛ لأنَّ المدَّعي من يقول شيئاً على خلاف الظَّاهر.

وثالثها: أنَّه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من جنَّة ونار، وشاهد في الآخـــرة بـــأحوال الدُّنيا بالطَّاعة والمعصيَّة والصَّلاح والفساد [٦].

٤ ــ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾: أنَّه المُبشِّر، أي: المخبر بالبشرى والبشارة، وجاءت البشارة مضعَّفة؛

---

[١] انظر: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، (ت: ٥٠٢هــ)، المفردات فـــي غريـــب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، د.ط، دار المعرفة، لبنان، د.ت، ج١، ص٤٨٢.

[٢] انظر: محمد بن محمد الزبيدي، أبو الفيض (ت: ١٢٠٥هــ)، تاج العروس من جواهر القـــاموس، د.ط، دار المعرفة، د.م، د.ت، ج١، ص٤٤٤.

[٣] سورة الأحزاب: ٤٠.

[٤] سورة البقرة: ١٤٣.

[٥] وهذا مثل شهادة أولوا العلم بوحدانية الله سبحانه وبعدله، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨].

[٦] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٨٧.

لأنَّه غلب على أسلوب دعوته ﷺ البشارة والرَّحمة والرَّأفة والتَّيسير، وقدَّمها على الدَّعوة إلى الله لأنَّها أساس الدعوة؛ إذ بها تهتدي النفوس، وتشوَّق إلى الجنان [(١)]، وتزجر عن النِّيران [(٢)].

"وجاءت البِشارة مقدَّمة على النذارة؛ لأنَّ النَّبي ﷺ غلب عليه التَّبشير؛ لأنَّه بعث رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمَّته" [(٣)].

٥ ـ﴿وَنَذِيرًا﴾: أنَّه النَّذير، ومن مقتضيات صفات النَّذير أن نَفْسِيَتَه دائمًا تعيش في خوفٍ وَوَجَلٍ وهَمٍّ وحزن ممَّن يُنذرهم [(٤)]، فهو ﷺ شفيقٌ على أمَّته، ناصحٌ لها في أمر دينها، خائفٌ عليها من عذاب الله، همُّه أمَّته كيف تنجو من عذاب الله وتنغمس في رحمته تعالى.

يقول الطبري: "ونذيرًا من النَّار أن يدخلوها فيعذَّبوا بها إن هم كذَّبوك وخالفوا ما جئتهم به من عند الله"[(٥)].

٦ ـ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، أنَّه الدَّاعي إلى الله، لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عزَّة قوميَّة، ولا إلى عصبيَّة جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه، ولا إلى طمع ممَّا في أيدي غيره، ولكن داعيًا إلى اللّه في طريق واحد يصل إلى اللّه [(٦)].

وجاءت الدَّعوة مقيَّدة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذن الله إيذانًا بأنَّها أمرٌ صعب لا يتأتَّى إلَّا بمعونة من الله سبحانه وتعالى [(٧)].

---

(١) البشارة للمؤمنين كثيرة في القرآن، منها: وبشر الذين آمنوا، وبشر الصابرين، وبشر المخبتين، وبشر المحسنين،...الخ.

(٢) وكذلك البشارة في أمور الوعيد وردت في القرآن في مواضع كثيرة، منها: بشر المنافقين، وبشر الذين كفروا، فبشرهم بعذاب أليم...الخ.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٨٠.

(٤) نجد في القرآن أثر ذلك الحزن والشفقة على أمته ﷺ ظاهرا في الكثير من الآيات كقوله تعالى له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[الحجر: ٨٨]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[فاطر: ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾[الكهف: ٦]....

(٥) الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص١٨.

(٦) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٧٢.

(٧) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، مصدر سابق، ج٤، ص٣٧٩.

ولمَّا كان الدَّاعي إلى الله يلزمه النُّور ليمشي على بصيرة ــ كما قال تعــالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[١] ــ قال هنا:

٧ ــ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾: فهو السِّراج المنير، والسِّراج ضوء الشمس، والمنير ضوء القمر، وهذا مصداقًا لما جاء فــي قولــه تعــالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[٣].

فالله نعت نبيَّه ﷺ في آنٍ واحد بأنَّه السِّراج المنير، وهذا دليــلٌ لوصــف نــور نبوَّتــه وإشراقها في الوجود أكثر من ضياء الشَّمس ونور القمر معًا، وقدْر علوِّه ﷺ بعلوِّهما.

وَوَصْفُ النَّبي ﷺ ودعوته بالسِّراج المنير إشارة إلى وجوب اتِّباعه في كامل الأوقــات، ليلاً ونهارًا، وعدم الاستغناء عنه كما لا يُستغنى عن ضوء الشَّمس والقمر، وإشارة أخرى منــه تعالى أنَّه ترك لنا دعوة نبيِّه ﷺ ناصعةً واضحةً كما لا يختلف عليها اثنان لشدَّة ظهورهــا كمــا روي ذلك عنه ﷺ حيث قال: «قد تَرَكْتُكُمْ على البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيــغُ عنهــا بَعْــدِي إلا هَالِكٌ»[٤].

"ووصفه ﷺ أيضًا بالسِّراج المنير يقتضي أنَّ الخلق كانوا في ظلمــةٍ عظيمــةٍ، لا نــور يهتدون به في ظلماتهم، ولا علم يستدلون به في جهالاتهم، حتَّى جاء الله بهــذا النَّبــي الكــريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدى به ضُلالا إلى الــصِّراط المــستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والــشَّرَّ، وأهل السَّعادة من أهل الشَّقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السَّديدة وأحكامه الرَّشيدة"[٥].

---

[١] سورة يوسف: ١٠٨.

[٢] سورة الفرقان: ٦١.

[٣] سورة نوح: ١٦.

[٤] محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، أبو عبد الله (ت: ٢٧٥هــ)، سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد البــاقي، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ج١، ص١٦.

[٥] عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هــ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كــلام المنــان، ت: عبــد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١، ص ٦٦٧.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أنَّه البشير، وفي هذا تأكيد للبشارة لقوله في الآية السَّابقة ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾، وفي هذا دروسٌ عظامٌ تُستقى من سورة الأحزاب من خلال أحداثها، كتبشيره ﷺ للمؤمنين وهو في قلب الخندق بفتح قصور الحيرة ومدائن كسرى[١]، ولهذا غلب على منهجه ﷺ التَّبشير كما أشرنا، "وكان إذا بَعَثَ أَحَدًا من أَصْحَابِهِ في بَعْضِ أَمْرِهِ قال: بَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا "[٢].

وسببُ ذكر مُجمل صفات النَّبي ﷺ في هذه السُّورة هو ما ذكره الزحيلي حيث قال: "لأنَّ المقام في الأحزاب مقام ذكر الرَّسول ﷺ؛ لأنَّها أكثر السُّور في ذكر الرَّسول ﷺ وأحواله، ففصَّل في مهامه، واقتصر في سورة الفتح على الثلاث المتقدمة" [٣]، أي: الشَّاهد، المبشِّر، النَّذير.

وضمن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أريد أن أشير إشارةً سريعةً إلى قضيَّة تعرَّض لها بعض علماء الكلام والتَّفسير وهي: الفرق بين النَّبي والرَّسول [٤]، ومن جملة ما أقرّوه، أنَّ النَّبي لم يؤمر بالتَّبليغ، أي بمعنى أنَّ النَّبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، ومن هؤلاء:

ـ الجلال السيوطي، ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ "هو نبيٌّ أمر بالتَّبليغ، ﴿وَلَا نَبِيٍّ ﴾ أي لم يؤمر بالتَّبليغ"[٥].

ـ الشربيني، ويقول: "﴿وَلَا نَبِيٍّ ﴾ وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور"[٦].

---

[١] انظر الحادثة بالتفصيل في تفسير البغوي[البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، ج٦، ص٣٢٤].

[٢] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ج٣، ص١٣٨٥، حديث رقم: ١٧٣٢.

[٣] الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢٦، ص١٦٤.

[٤] معظم المفسرين ذكروا ذلك الفرق أثناء تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

[٥] الجلالين، تفسير الجلالين، مصدر سابق، ج١، ص ٤٤١. وطبعًا تفسير الآية للسيوطي لأنه أكمل تفسير الجزء الثاني من القرآن.

[٦] محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧هـ)، السراج المنير، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٢، ص٤٤١.

ـــ الألوسي، ويقول: "فمتى أريد بالنَّبي ما عدا الرَّسول كان المراد به مـــن لـــم يـــؤمر بالتَّبليغ"[١].

ـــ ابن عاشور، ويقول: "وأمَّا النَّبي فهو المنبَّأ بوحي من الله وإن لم يؤمر بتبليغه، فإذا لم يؤمر بالتَّبليغ فهو نبي وليس رسولًا"[٢].

التعقيب على كلامهم رحمهم الله:

الزَّعم بأنَّ النَّبي المقصود به غير الرَّسول، وأنَّه لم يؤمر بالتَّبليغ، كلامٌ دخيـــلٌ وخطيـــرٌ تناقله بعض هؤلاء الأعلام من غير انتباهٍ ولا تمحيصٍ؛ لأنَّ القول بهذا هو نـــسفٌ للـــدِّين مـــن أساسه؛ لأنَّ الغاية من إنزال الكتب وبعث الأنبياء هو التَّبليغ وإقامة الحجَّة، ولا دين ولا عقـــاب إلا بعد تبليغ، والذي ينفي ما ذهب إليه هؤلاء وغيرهم هو:

ـــ افتقارهم إلى دليل صحيح يؤكِّد أنَّ ثمَّة فرقاً بين النَّبي والرَّسول فـــي مجـــال التَّبليـــغ أولاً، ويؤكِّد من جهةٍ أخرى أنَّ النَّبي لم يؤمر بالتَّبليغ.

لكنَّ الذي استدلوا به، هو قوله تعـــالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أنَّ واو العطف تفيد التَّغاير فلزم بذلك أنَّ النَّبي غير الرَّسول.

والجواب على هذا:

ـــ إنَّ الواو إذا أفادت التَّغاير، فَلْيَكُن التَّغاير في المعنى، أي: أنَّ النَّبـــي غيـــر الرَّســـول معنًى، أو التَّغاير بالتَّفاضل، بمعنى: أنَّ الرسول أفضل من النَّبي أو غير ذلك، المُهمّ إفادة التَّغاير بوجوهٍ تسلم من المعارضة ويحتملها النَّص.

ـــ إنَّ الآية التي استدلوا بها تعتبر نصًّا صريحًا بأنَّ الله أرسل الأنبياء كما أرسل الرُّسل، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ، فالإرسال يقتضي من النَّبيِّ البلاغ، وبدليل قوله تعـــالى أيضًا في سورة البقرة: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٣]، فلزم بذلك أنَّ النَّبي مهمَّته مهمَّة الرَّسول: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٤].

---

[١] الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج١٧، ص ١٧٣.

[٢] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٦، ص٥٤.

[٣] سورة البقرة: ٢١٣.

[٤] سورة الأنعام: ٤٨، سورة الكهف: ٥٦.

ـ إنَّ قتل بني إسرائيل لأنبيائهم كان سببه التَّبليغ وإقامة الحجَّة عليهم، ولذلك شنَّع القرآن على فعلهم، ولعَنهم بسبب قتلهم الأنبياء الذين يأمرونهم بالقسط، قال تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1]، وقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2]، وقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[3]، وقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

ـ إنَّ ترك البلاغ كتمانٌ لوحي الله تعالى، والله لم ينزِّل وحيه ليُكتم ويقتصر على فردٍ واحدٍ من النَّاس، ثمَّ يموت هذا الوحي بموته وهكذا، ووعيدُ كتمان الوحي أو شيء منه ورد عِظَم ذنبه وتعظيم عقوبة فاعله في القرآن في العديد من المواضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[5]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]، وغير ذلك.

ـ ما الفائدة من وحي الله إلى رسله ثم يأمرهم بعد ذلك بعدم تبليغ ذلك الوحي، فيموت ذلك الوحي بموتهم؟ مع العلم أنَّ بعث الأنبياء والرُّسل لغرض إقامة الحجَّة على النَّاس كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[7].

ـ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[8]، وسبب المجيء بالنبيِّين، ليسألهم الله عن التَّبليغ وعمَّا أجابتهم به أممُهم.

---

[1] سورة آل عمران: ١٨١، سورة النساء: ١٥٥.

[2] سورة البقرة: ٦١.

[3] سورة آل عمران: ٢١.

[4] سورة البقرة: ٩١.

[5] سورة البقرة: ١٥٩.

[6] سورة البقرة: ١٧٤.

[7] سورة النساء: ١٦٥.

[8] سورة الزمر: ٦٩.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١]، فهذا دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الأنبياء مرسلون ومبلّغون عن ربِّهم.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾[٢]، فهذه الآية أيضًا دالة على أنَّ الأنبياء مرسلون من قبل الله ﷻ لينذروا أقوامهم.

وغير ذلك من الأدلّة القرآنية دون النَّبوية، التي تثبت أن لا فرق بين النَّبي والرَّسول في مجال الدَّعوة والتَّبليغ، فإن كان هناك فرق فهو في مجال التَّفضيل فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٤]، أو الفرق في التَّعريف اللُّغوي أو غير ذلك من الفروق التي لا تصادم نصًّا قطعيًّا.

وفي نهاية المبحث ندرك أنَّ للنَّبي ﷺ قدرًا ومنزلًا رفيعًا عند الله ﷻ، وقد شمل هذا القدر والرفعة مجالاتٍ عدة، وهذا دليلٌ على أنَّ جموع الأحزاب مهما اجتمعت وتوحَّدت للنَّيل من شخص النَّبي ﷺ كإلحاق المكر به والسُّخرية وغير ذلك؛ فإنَّه لن يمسَّ من سمعته بشيء نظرًا للمكانة التي تبوّءها عند الله سبحانه، فلا يجهدوا أنفسهم ويرهقوها فإنَّهم لن يصلوا إليه بسوءٍ، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾[٥].

[١] سورة الزخرف: ٦.

[٢] سورة الأعراف: ٩٤.

[٣] سورة البقرة: ٢٥٣.

[٤] سورة الإسراء: ٥٥.

[٥] سورة النساء: ١١٣.

المبحث الثاني: مكانة النَّبي ﷺ بين إخوانه من الأنبياء عليهم السَّلام.

ونقصد بالمكانة المنزلة التي شرَّفه الله بها عن باقي الأنبياء ــ عليهم السَّلام ــ وفضَّله عليهم، فكما فضَّل الله بعض الأيَّام وبعض الشُّهور وبعض البقاع على بعضها، فقد فضَّل سبحانه أيضًا بعض النبيِّين على بعض وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١].

لعلَّ قائلاً يقول: إنَّ الله نهى عن التَّفريق بين الرُّسل في كثيرٍ من المواضع، كقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[٣]، فكيف تُجْمع مع نصوص الَّتي صرَّحت بالتَّفضيل بين الرُّسل، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٤]؛ لأنَّ التَّفضيل فيما بينهم يعتبر تفريقًا.

الجواب: قد حقَّق هذه المسألة علماؤنا الأجلاَّء، منهم:

ابن كثير حيث يقول: "إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[٥]، فإنَّ المراد من ذلك هو: التَّفضيل بمجرد التَّشهي والعصبيَّة لا بمقتضى الدَّليل، فإذا دلَّ الدَّليل على شيء وجب اتِّباعه ولا خلاف أنَّ الرُّسل أفضل من بقيَّة الأنبياء"[٦].

ويقول ابن عاشور: "وهذا إعلامٌ بأنَّ بعض الرُّسل أفضل من بعض على وجه الإجمال... وهذا مورد الحديث الصحيح: "لا تفضلوا بين الأنبياء"، يعني به النَّهي عن التَّفضيل التفصيلي، بخلاف التَّفضيل على سبيل الإجمال، كما نقول: الرُّسل أفضل من الأنبياء الذين ليسوا رسلاً، وقد ثبت أنَّ محمدًا ﷺ أفضل الرُّسل لما تظاهر من آيات تفضيله، وتفضيل الدِّين الذي جاء به، وتفضيل الكتاب الذي أنزل عليه"[٧].

---

[١] سورة الإسراء: ٥٥.

[٢] سورة البقرة: ٢٨٥.

[٣] سورة النساء: ١٥٢.

[٤] سورة البقرة: ٢٥٣.

[٥] متفق عليه، لكن الرواية في الصحيحين هي بلفظ: «لَا تُفَضِّلُوا بين أَنْبِيَاءِ اللَّهِ». [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: وإن يونس لمن المرسلين، ج٢، ص١٢٥٤، حديث رقم: ٣٢٣٣].

[٦] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧.

[٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٣.

والتَّفضيل الذي أقصده هو وجود بعض المزايا في النَّبي ﷺ لم توجد في غيره من الأنبياء ــ عليهم السَّلام ــ، يقول سيد قطب عن بعض هذه المزايا التي خُصَّ بها نبيُّنا محمدًا ﷺ قائلاً: "وحين ننظر إلى مقامات الرُّسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من أيَّة ناحية؛ نجد محمدًا ﷺ في القمَّة العليا، وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرِّسالة وكليتها، أو من نَّاحية محيطها وامتدادها، فإنَّ النَّتيجة لا تتغيَّر"[١].

والنَّبي ﷺ يقول عن نَّفسه في الحديث الصَّحيح «فُضِّلْتُ على الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ» كما سيأتي الكلام عليه في مطلبٍ لاحق إن شاء الله.

وخلاصة القول إنَّ هذا التَّفضيل لم يكن في أصل الرِّسالة والتَّشريع، وإنَّما بما ورد من نصوصٍ قطعيَّة تؤكِّد صحَّة وسلامة ما ذهبنا إليه في ذكر بعض مزايا النَّبي ﷺ دون إطراءٍ [٢].

المطلب الأول: مكانة النَّبي ﷺ من خلال تقديمه على سائر الأنبياء.

لقد فضَّل الله سبحانه ﷻ نبيَّه ﷺ في السُّورة بأن قدَّمه[٣] على جملةٍ من الأنبياء ــ عليهم السَّلام ــ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[٤]، وتخصيص هؤلاء النبيِّين بالذِّكر على هذا النَّمط دليلٌ على عظمة شأنهم ورفعة مكانهم، فهم أصحاب شرائع وكتب، وقد عدَّهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ابن مريم ــ عليهم السلام ــ، لكن قدّم ذكر النبي ﷺ وهو آخرهم زمانًا لفضله وشرفه وتقدُّمه على الجميع[٥].

وأمَّا الفرق بين تقديمه ﷺ على جميعهم في هذه الآية، وتأخيره على نوح عليه السلام في آية أخرى من سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا

---

[١] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٣.

[٢] الإطراء هو: "المدح بالباطل". [ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج٦، ص٤٩٠].

[٣] أسلوب التقديم والتأخير في القرآن له أغراضه وأهدافه ومن بين أغراض التقديم الاهتمام بالمُقدَّم كما هو الشأن في الآية. [انظر: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أبو بكر (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، ت: محمد التنجي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص٩٦].

[٤] سورة الأحزاب: ٧.

[٥] انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٢١، ص ص: ٢٨٤ ــ ٢٨٥.

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ ﴾ [١]، لأنَّ مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة الآية السَّابقة، وذلك أنَّ الله تعالى إنَّما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، فكأنَّه قال شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسَّط بينهما من الأنبياء المشاهير [٢].

فإذا فضَّل الله نبيَّه ﷺ على مشاهير هؤلاء الأنبياء؛ فهو مقدَّم بطبيعة الحال على بقيَّة الأنبياء الذين لم يذكروا في الآية، ومن باب أولى تفضيله وتقديمه على سائر البشر.

وإنما ذكرت في عنوان المطلب: مكانته ﷺ من خلال تقديمه على سائر الأنبياء، ولم أقل على أولي العزم من الرُّسل، لأجل قضيَّة أريد بحثها ضمن هذا المطلب وهي: من هم أولو العزم من الرُّسل؟

ذكر أكثر أهل العلم أنَّ أولي العزم من الرُّسل خمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ـــ عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم ـــ [٣].

يقول الشنقيطي: "وأشهر الأقوال في ذلك أنَّهم خمسة وهم الذين قدَّمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد [٤] عليهم الصَّلاة والسَّلام"[٥].

واختلف البعض الآخر في تحديدهم أثناء تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾[٦] إلى قولين:

---

[١] سورة الشورى: ١٣.

[٢] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٣٣.

[٣] اقتصروا على هؤلاء الخمسة وذلك أثناء تفسيرهم للآية: ٧ من سورة الأحزاب، والآية: ١٣ من سورة الشورى. وهم على سبيل المثال: انظر: البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠٨. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧. وانظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٨، ص٨.

[٤] فرضا إذا سلمنا بهذا القول: كيف أدخلوا النبي ﷺ مع أولي العزم، والله يبين أن أولي العزم كانوا قبله، وأيضا جيء بالفعل الماضي بقوله "كما صبر". ولذلك فيه روايات كثيرة ذكرها المفسرون ولم يدرجوا فيها النبي ﷺ مع أولي العزم. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٦، ص ص" ٢٢٠ـــ ٢٢١]. وانظر: السيوطي، الدر المنثور، مصدر سابق، ج٧، ص ص: ٤٥٤ ـــ ٤٥٥].

[٥] الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٧، ص٢٤١.

[٦] سورة الأحقاف: ٣٥.

(من) للتَّبعيض: ويراد به بعض الأنبياء، واختلف فيهم بـأقوالٍ كثيـرة كلُّهـا بأسـلوب التَّضعيف مثل: (قيل)[١].

(من) للبيان: والمراد بها جميع الرُّسل الذين اجتهدوا في تأسـيس الرِّسـالة وتقريرهـا وصبروا على تحمُّل مشاقِّها ومعاداة الطَّاعنين فيها، فكلُّهم ذوو عزم [٢].

فكلُّهم اجتهدوا فيما ذهبوا إليه مأجورون على اجتهادهم، ولكنَّهم ــ رحمهـم الله ــ لـم يفْصِلوا في القضيَّة، ولم يتبنَّوا رأيًا راجحًا في المسألة أثناء تفسيرهم لآية الأحقـاف وعَرضـهم للأقوال، ولعلَّ السَّبب راجعٌ في ذلك حسب رأيي إلى:

ــ عدم وجود دليل صحيح من الكتاب أو السنَّة يبيِّن من هم أولو العزم.

ــ عدم وجود مُخصِّص يُخصِّص هؤلاء الخمسة بأنَّهم أولو العزم، علمًا أنَّ التَّخـصيص بدون مُخصِّص باطل.

ــ الاختلاف في الحرف: (من) فمنهم من قال إنَّها للتَّبعيض، ومنهم من قال إنَّها للبيان.

لكن أرى أنَّ أولي العزم هم جميع الرُّسل بأدلةٍ أوجزها فيما يأتي:

قبل تناول الأدلة يمكن شرح لفظة العزم لغةً، وبيان المقصود منها؛ لأنَّها سـتحلُّ جانبًـا كبيرًا من هذا الإشكال.

العزم لغة من: "عزم، والعزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، يقـال: عزمـت الأمر وعزمت عليه واعتزمت، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[٣]، وقال: ﴿ وَلَا تَعْـزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[٤]، وقال: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ ﴾[٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[٦]،

---

[١] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٨، ص٣٠. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٦، ص ص:٢٢٠ــ ٢٢١. وانظر: السيوطي، الدر المنثور، مصدر سـابق، ج٧، ص ص: ٤٥٤ ــ ٤٥٥.

[٢] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٨، ص٩٠.

[٣] سورة آل عمران: ١٥٩.

[٤] سورة البقرة: ٢٣٥.

[٥] سورة البقرة: ٢٢٧.

[٦] سورة الشورى: ٤٣.

وقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[١]، أي: محافظة على ما أمر به، وعزيمة على القيام"[٢].

أمَّا المقصود من أولي العزم فهم أولو الحزم والجدِّ والصَّبر والثَّبات[٣].

فإذا كان مفهوم العزم ما ذكرناه، وأنَّ الرُّسل ملزمون بتبليغ الرِّسالة وهذا التَّبليغ يتطلَّب الجدَّ والصَّبر والحزم والثَّبات، استلزم أنَّ جميع الرُّسل من أولي العزم، ولهذا قال ابن عطية: "ولا محالة أنَّ لكلِّ نبيٍّ ورسولٍ عزمًا وصبرًا"[٤]، والأدلَّة أهمُّها:

ـ أنَّنا لو حصرناها في الخمسة فقط، لنتج أنَّ أغلب الأنبياء لم يصبروا ولم يعزموا ويجدّوا في الدَّعوة وهذا منافيًا.

ـ قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[٥]، أي: خذ التَّوراة بجدٍّ وحزم وعزم وصبر[٦].

ـ الصَّبر ليس مقصورًا على الخمسة فقط بدليل:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[٧]، والشَّاهد في الآية أنَّ الرُّسل قبل النَّبي ﷺ كُذِّبوا وأوذوا فصبروا، فاصبر يا محمد كما صبر هؤلاء، وهي شارحةٌ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ب ـ قال تعالى في أول سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[٨]، وختمها بقوله:

---

[١] سورة طه: ١١٥.

[٢] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٤.

[٣] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٤، ص٣١٧. وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مصدر سابق، ج٧، ص٣٩٢. وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٨، ص٣٠.

[٤] ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج٥، ص١٠٧.

[٥] سورة مريم: ١٢.

[٦] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢١، ص١٦٣. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص١١٤.

[٧] سورة الأنعام: ٣٤.

[٨] سورة يوسف: ٣.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾[١]، وفي السُّورة آياتٌ حاثة على الصَّبر وهي محل اقتداء للنَّبي ﷺ ولغيره كقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

ت ــ قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤].

ث ــ وقال تعالى عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٥]، وغيرهم.

يقول البلنسي في تفسير مبهمات القرآن: "والصَّحيح عند الحذَّاق أنَّ كل من أثنى الله عليه بالصَّبر مطلقاً فهو من أولي العزم"[٦].

ج ــ أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقتدي بطائفةٍ مِّن الرُّسل، وأن يهتدي بهداهم ويصبر صبرهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٧].

ح ــ وجوب التَّنبُّه إلى اسم السُّورة التي ذكرت الآية، والعلم بالهدف العام للسُّورة، والانتباه إلى سياق الآيات، فمثلاً:

---

[١] سورة يوسف: ١١١.

[٢] سورة يوسف: ١٨ و ٣٨.

[٣] سورة يوسف: ٩٠.

[٤] سورة الأنبياء: ٨٥.

[٥] سورة ص: ٤٤.

[٦] محمد بن علي البلنسي، أبو عبد الله (ت: ٧٨٢هـ)، تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل، ت: حنيف بن حسن القاسمي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩١م، ج٢، ص٥٠٧.

[٧] سورة الأنعام: ٨٣ ــ ٩٠.

ــ لمَّا قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فهذه الآية فيها أمرٌ من الله لنبيِّه بأن يصبر مثلما صبر مَن قبله مِن الرُّسل، مع بيانه سبحانه وتعالى قبل هذه الآية بأنَّ النَّبيَّ محمـدًا ﷺ ليس إلا واحدا من هؤلاء الرسل الذين خلوا من قبله، ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١]، فكانت من بيانيَّة، وليست تبعيضيَّة.

ــ لمَّا قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، جاء قبل هذه الآية بيانٌ للنَّبي ﷺ أنَّ هودًا ــ عليه السَّلام ــ رسول: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾[٢]، أي: فاصبر يا محمد مثل ما صبر هود ــ عليه السَّلام ــ؛ لأنَّه أيضًا هو رسول.

ــ لمَّا نهى الله نبيَّه ﷺ أن يستعجل نزول العذاب على قومه، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾، سبق أن بيَّن الله لنبيِّه قبل هذه الآية بيانُ عاقبة الذين استعجلوا العذاب ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[٣].

ــ لمَّا نهى الله نبيَّه من استعجال العذاب لقومه؛ لأنَّه نازلٌ بهم لا محالــة، حيــث قــال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ﴾، قدَّم الله قبل هذه الآية نموذجًا لنبيِّه وهم قوم عاد كيف أراهم العذاب الذي استعجلوه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾[٤].

يتبيَّن لنا أنَّ هودًا عليه السلام وهو الذي عُنونت له السُّورة بالمكان الذي دعا فيه وهو الأحقاف؛ أنَّه من أولي العزم.

خ ــ وفيه رأي وجيه أيضًا أنَّ (من) هي للبيان وليست للتَّبعــيض، أي المــراد جــنس الرُّسل، وقد قال بهذا جماعة من المفسِّرين منهم الثعلبي، والبغوي، والقرطبي، حيــث مــضمون

---

[١] سورة الأحقاف: ٩.

[٢] سورة الأحقاف: ٢٣.

[٣] سورة الأحقاف: ٢٢ ــ ٢٤.

[٤] سورة الأحقاف: ٢٤.

الكلام أنَّ كل الرُّسل كانوا أولي عزم لم يبعث الله نبيًّا إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل، وإنَّما أدخلت من للتجنيس لا للتَّبعيض[١].

لذا فأولو العزم يشمل هؤلاء الخمسة وغيرهم من الرُّسل، والله أعلم.

المطلب الثاني: مكانة النَّبي ﷺ بوصفه خاتمًا للمرسلين والرِّسالات.

هل خَتْم الرِّسالة بأحد من الأنبياء وانقطاع وحي السَّماء عن الأرض فيه تشريف بمن خُتمت به؟

نعم، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، وبمن يختمها به، وهذا عين ما جاء في فاصلة آية ختم الرِّسالة بالنَّبي ﷺ، حيث أخبرت أنَّ الله عليم بمن يختمها، ولا يخفى عليه ذلك الأمر، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٢].

فالله ختم بنبيِّه محمد ﷺ النُّبوَّة، وبرسالته الرِّسالات، وبكتابه الكتب السَّماوية، فلا نبيَّ بعده، ولا رسالة بعد رسالته، ولا كتاب بعد كتابه.

وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ فيه قراءتان:

"قرأ عاصم وحده ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ بفتح التاء، وقرأ الباقون ﴿وَخَاتِمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بكسر التاء" [٣].

فمن قرأ ﴿وَخَاتَمَ﴾ بفتح التَّاء، صار المعنى أنَّهم به خَتَموا، فهو كالخَاتم والطَّابع لهم [٤]،

---

[١] انظر: أحمد بن محمد الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)، الكشف والبيان، ت: أبو محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ج٩، ص٢٥. وانظر: البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، ج٤، ص١٧٦. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٦، ص٢٢٠.

[٢] سورة الأحزاب: ٤٠.

[٣] أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، أبو بكر (ت: ٣٢٤هـ)، السبعة في القراءات، ت: شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٤٠٠هـ، ج١، ص٥٢٢.

[٤] فالنبي ﷺ هو خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وسبحان الله على ظهره بين كتفيه خَاتَم النبوة، حتى بوب له الإمام مسلم بابا وقال: بَاب إِثْبَاتِ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ وَصِفَتِهِ ومحله من جَسَدِهِ ﷺ. ج٧، ص٨٦.

ومن قرأ بكسر التَّاء: فيكون معناها أنَّه خِتمُهم، أي جاء آخرهم، وهذا دليل قاطعٌ على أنَّه لا نبيَّ ولا رسول بعده ﷺ [١].

وقد جاء ما يؤكد بأفضلية من خُتمت به الرِّسالة السَّماوية في كثير من الأحاديث النَّبوية الصَّحيحة منها ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قال: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[٢].

وروى الإمام مسلم أيضا في صحيحه بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إلى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[٣].

وفي هذين الحديثين دلالة واضحة على أفضليَّة النَّبي ﷺ على جميع الأنبياء، من حيث أنَّه ختمت به الرِّسالة، وانقطع بموته وحي السَّماء عن الأرض.

---

[١] انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٩. وانظر: الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج٤، ص٢٨٥.

[٢] متفق عليه. واللفظ للبخاري. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب المناقب، بَاب خَاتِمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، ج٣، ص١٣٠٠، حديث رقم: ٣٣٤٢].

[٣] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج١، ص٣٧١، حديث رقم ٥٢٣.

الفصل الثاني

حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته، وما يترتَّب عليها في ضوء سورة الأحزاب

يشمل مبحثين:

المبحث الأول: واجبات المؤمنين تجاه النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

المبحث الثاني: ما يحرم من عصيان النَّبي ﷺ وإيذائه، وعاقبة ذلك.

الفصل الثاني: حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته، وما يترتَّب عليها في ضوء سورة الأحزاب

لمَّا كانت منزلة النَّبي ﷺ عند ربِّه وبين إخوانه من الأنبياء الذي بيَّنَّاه، وكانت حاجة النَّاس إلى هذا النَّبي ﷺ ماسَّةً لإخراجهم من الظلمات إلى النُّور ولربط علاقتهم بربِّهم ولسعادتهم في الدَّارين، فقد بعثه الله للنَّاس منَّة ورحمة منه سبحانه، وأوجب لنبيِّه ﷺ على هذه الأمَّة التي إليها بُعِث جملةً من الحقوق والواجبات، وجعلها أصلاً من الدِّين الذي تعبَّدنا الله به، فكان لهذه الواجبات قسمان:

القسم الأول: واجباتٌ مطلوبٌ أداؤها والقيام بها.

القسم الثاني: محظوراتٌ مطلوبٌ اجتنابها والحذر من الوقوع فيها.

فالقسم الأول عبارة عن مبحث عَنْوَنَّاه بـ: ما يتوجَّب على المؤمنين تجاه نبيِّهم ﷺ من حقوق، وبيان عاقبتهم.

وتحت هذا المبحث مطالب خمسة عُنونت على حسب الحقوق المذكورة في السُّورة، مع إعطاء أنموذج واقعي للمؤمنين من خلال حادثة الأحزاب في مدى طاعتهم وصدقهم للنَّبي ﷺ، ثم بيان عاقبة أمرهم، وكان هذا الأخير تحت مطلبٍ سادس.

أمَّا القسم الثاني فقد صُغته على شكل مبحث معنون بـ: ما يحرم من عصيان النَّبي ﷺ وإيذائه وبيان عاقبتهما، مع تقديم أيضًا مثال واقعي من خلال السُّورة.

وضمَّ هذا المبحث أربعة مطالب: حيث عُنون المطلب الأول والثاني على التَّرتيب بـ: التَّحذير من عصيان النَّبي ﷺ وإيذائه مع بيان عاقبة كل منهما.

أما المطلب الثالث: فكان عبارة عن تقديم موقف لهذا الأنموذج؛ وقد تمثل في إظهار صورة مواقف المنافقين تجاه النَّبي ﷺ في حادثة الأحزاب، وخَتَمْته ببيان عاقبتِهم.

أما المطلب الرابع والأخير فقد كان الحديث فيه عن إجراء مقارنة بين طاعة النَّبي ﷺ، وعصيانه من حيث الجزاء في ضوء السُّورة.

المبحث الأول: واجبات المؤمنين تجاه النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

للنَّبي ﷺ حقوق على أمَّته وهي كثيرةٌ أجْمِلَت أغلبها في هذه السُّورة، وتنوَّعت فيها إلى حقوق قلبيَّة، وقوليَّة، وفعليَّة، وسأقف على هذه الحقوق على حسب ترتيبها في السُّورة لما فيها من لطائف سأذكرها في آخر المبحث.

المطلب الأول: وجوب تفضيل النَّبي ﷺ على الأنفس.

جعل الله النَّبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم، وولايته مقدَّمة على ولايتهم لأنفسهم؛ لأنَّه ﷺ مداوٍ لنفوسِهم ولا يأمرهم إلا بما فيه صلاح نفوسِهم، بخلاف أنفس المؤمنين فإنَّها تحتاج إلى من يزكِّيها ويُرشدها؛ لأنَّها قد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها.

وتفضيل الله لشخص النَّبي ﷺ على أنفس المؤمنين هو أمرٌ نافذ ماض عليهم سابق ذلك في علمه سبحانه، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله في فاصلة الآية: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[١].

ومن واجبات هذه الولاية تجاه النَّبي ﷺ كثيرةٌ منها: أن يؤثر النَّاس حبَّه ﷺ على حبِّ أنفسهم، ورغبته على رغبتهم، وأمره على أمرهم، واختياره على اختيارهم حتى يصير هواهم تبعًا لما جاء به النَّبي ﷺ.

يقول الشوكاني: "ذكر الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ مزيَّةً عظيمةً، وخصوصيَّةً جليلةً لا يشاركه فيها أحدٌ من أمَّته، فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أحقُّ بهم في كلِّ أمور الدِّين والدُّنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبُّوه زيادةً على حبِّهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدِّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسِهم، وبالجملة فإذا دعاهم النَّبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدِّموا ما دعاهم إليه، ويؤخِّروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم"[٢].

فولاية النَّبي ﷺ ليست ولاية عاطفيَّة بل هي تغييرٌ لمنهاج الحياة لتكون مطابقة لمنهاج النَّبي ﷺ وفي هذا يقول سيد قطب: "وولاية النَّبي ﷺ ولايةٌ عامَّةٌ تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها، وأمر المؤمنين فيها إلى الرَّسول - عليه صلوات الله وسلامه - ليس لهم أن يختاروا

---

[١] سورة الأحزاب: ٦.

[٢] الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج٤، ص٢٦١.

إلاّ ما اختاره لهم بوحي من ربِّه: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[١]، وتشمل مشاعرهم فيكون شخصه ﷺ أحب إليهم من أنفسهم"[٢].

وحبُّ النَّبي ﷺ وتقديمه على كلِّ شيء، هو أمرٌ آكد في الدِّين جاءت بذلك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنَّة مبيِّنة وجوب هذا التَّفضيل والمحبَّة له ﷺ على الأنفس، من ذلك:

١ـ قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾[٣]، ولو أنَّ الآية خطابٌ لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلاَّ أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

فواجب على الأمَّة أن لا يفضِّلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها، ويرغبوا بإيثار راحتها وسلامتها، فلا بدَّ أن يبذلوها مثلما بذل النَّبي ﷺ نفسه الشريفة[٤].

٢ـ قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[٥].

أمر الله رسوله أن يتوعَّد من قدَّم هذه الأصناف الثمانية على حبِّ الله ورسوله والجهاد في سبيل الله أن ينتظروا ما يحلُّ بهم من عقابٍ ونكال [٦]، إذ الواجب أن يُقدَّم أوَّلاً حبُّ الله تعالى؛ لأنَّه مصدر جميع النِّعم، ولهذا وصف تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾[٧]،

---

[١] عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، أبو الفرج (ت: ٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ، ج١، ص٦٨٣.

[٢] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٢٨.

[٣] سورة التوبة: ١٢٠.

[٤] انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج١١، ص٦٠.

[٥] سورة التوبة: ٢٤.

[٦] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٣.

[٧] سورة البقرة: ١٦٥.

ثمَّ يليه حبُّ رسوله ﷺ؛ لأنَّه صاحب الفضل في إنقاذنا من الضَّلالة إلى النُّور؛ ولأنَّه القدوة الحسنة، والمثل الأعلى للمؤمنين في تطبيق الشَّريعة والأخلاق[١].

فحبُّ النبي ﷺ وتفضيله واجب أن يكون مقدمًا على الأنفس وهذا ما بيَّنته الآية الأولى، ومن باب أولى إذا كان مقدَّمًا على الأنفس أن يكون مقدَّمًا على الآباء والأبناء والإخوان وغير ذلك، وهذا أيضًا ما دلَّت عليه الآية الثانية، ولهذا ثبت في الصَّحيح أنَّ النَّبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٢].

فهذا الحديث يقرُّ أنَّ حقَّ الرَّسول ﷺ آكد على المؤمن من حقِّ أبيه وأمِّه وولده وزوجه وجميع النَّاس، ومن لم يبلغ هذه المرتبة في حبِّ النَّبي ﷺ فلا إيمان عنده؛ لأنَّ الإيمان والعبادة منبعهما حبُّ الله ورسوله، فبهذه المحبَّة يتذوَّق صاحب الإيمان حلاوة ذلك الإيمان، ويستلذُّ بها الطَّاعات ويتحمَّل بها المشاقّ، ولهذا قال النَّبي ﷺ: «ثَلَاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: من كان الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله منه كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[٣].

وفي حادثة: «أنَّ النَّبي ﷺ كان آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ فقال له عُمَرُ: يا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إلي من كل شَيْءٍ إلا من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ، فقال له عُمَرُ: فإنه الْآنَ والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إلي من نَفْسِي، فقال النبي ﷺ الْآنَ يا عُمَرُ»[٤].

وكل حبٍّ يعكس على صاحبه ثمرة، ومن ثمرات محبَّته ﷺ الاجتماع معه في الجنَّة، روى الشيخان في صحيحهما بسندهما عن أَنَسِ بن مَالِكٍ «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبي ﷺ مَتَى السَّاعَةُ يا

---

[١] انظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج١٠، ص ص: ١٤٦ ــ ١٤٧.

[٢] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الإيمان، بَاب وُجُوبِ مَحَبَّةِ رسول اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ من الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وَإِطْلَاقِ عَدَمِ الْإِيمَانِ على من لم يُحِبُّهُ هذه المحبه، ج١، ص٦٧، حديث رقم: ٤٤.

[٣] متفق عليه، واللفظ لمسلم. [مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ج١، ص٦٦، حديث رقم: ٤٣].

[٤] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، ج٦، ص٢٤٤٥، حديث رقم: ٦٢٥٧.

رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: ما أَعْدَدْتَ لها؟ قال: ما أَعْدَدْتُ لها من كَثِيرِ صَلَاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صَدَقَةٍ ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قال: أنت مع من أَحْبَبْتَ»[١].

إذن: حبُّ النبي ﷺ بتفضيله على الأنفس ليس مجرَّد أقاويل، أو حبًّا عاطفيًّا، أو حملاً لشعارات جوفاء، أو غير ذلك، بل جهادٌ وتضحيَّة، ونصرةٌ للدِّين بالقول والفعل والذبِّ عن شريعته، واتِّباع سنَّته، والتَّخلق بأخلاقه، واتِّباعه في السِّر والعلن، والمنشط والمكره، والعُسر واليُسر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

المطلب الثاني: وجوب التَّأسِّي بالنَّبي ﷺ:

جعل الله تبارك وتعالى من رسوله ﷺ الأسوة والقدوة ليحتذي به النَّاس في أقواله وأفعاله وجميع ما جاء به، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٣].

"والأسوة والإسوة بالضَّم والكسر لُغتان، كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتِّباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا وإن سارًّا وإن ضارًّا، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فوصفها بالحسنة، ويقال تأسيت به"[٤].

يقول ابن كثير: "هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التَّأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى النَّاس بالتَّأسِّي بالنَّبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ﷻ ـ صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ـ، ولهذا قال تعالى للذين تقلَّقوا وتضجَّروا وتزلزلوا واضطَّربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي: هلَّا اقتديتم به، وتأسيتم بشمائله ﷺ"[٥].

---

[١] متفق عليه، واللفظ للبخاري. [المصدر ذاته، كتاب الآداب، باب علامة الحب في الله، ج٥، ص٢٢٨٣، حديث رقم: ٥٨١٩].

[٢] سورة آل عمران: ٣١.

[٣] سورة الأحزاب: ٢١.

[٤] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ج١، ص١٨.

[٥] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧٥.

ولهذا كان التَّأسِّي بالرَّسول ﷺ علامةً ورجاءً لثواب الله وفضله، وإيمانًا بـــاليوم الآخـــر، وكثرةً لذكر الله تعالى، ولا يتَّصف بهذه الصِّفات إلا حقيقيُّو الإيمان.

لأنَّ الخطاب في قوله تعالى:﴿لَّكُمْ﴾ دليل على أنَّ التأسي برسول الله ﷺ لا يتَّصف به إلاَّ من تلبَّس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله، واليوم الآخر، أي تعلَّق قلبه بالله فآمن به، وتعلَّق قلبـــه باليوم الآخر فعمل صالحًا، ومع ذلك ذكر الله كثيرًا، فكان لا يغفل عن ربِّه، فتأسَّى بـــالنَّبي فـــي أفعاله، وأعماله [١].

أمَّا مجيء الآية بالتَّأسِّي بالنَّبي ﷺ في خضمِّ وسياق غزوة الأحزاب فلأنَّ الغزوة كانـــت مليئةً بالأحداث والوقائع، التي كانت تمثل كثيرًا من معالم منهج الرِّسالة الخالـــدة فـــي شـــدائدها وأزماتها، ومِحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصَّبر، وقوَّة الاحتمـــال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجلَّ قدوة، وأعظم أسوة فيما تطلَّبته أحداث الغـــزوة مـــن مواقف تعتمد على العزائم الصَّادقة، والإيمان الرَّاسخ، واليقين الذي لا تزلزله كـــوارث الـــبلاء والمِحن [٢].

وأمثلة الشَّدائد والمِحن التي تلقَّاها النَّبي الأسوة الحسنة ﷺ في الغزوة كثيرة منهـــا: مـــا رواه مسلم بسنده عن جَابِر بن عبد اللَّهِ يقول: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رأيت برَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا[٣]، فَانْكَفَأْتُ إلى امْرَأَتِي فقلت لها: هل عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رأيت برَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا»[٤].

وقال الترمذي حدثنا عبد اللَّهِ بن أبي زِيَادٍ حدثنا سَيَّارُ بن حَاتِمٍ عن سَهْلِ بن اســـلم عـــن يَزِيدَ بن أبي مَنْصُورٍ عن أَنَسِ بن مَالِكٍ عن أبي طَلْحَةَ قال: «شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ ﷺ الْجُـــوعَ وَرَفَعْنَا عن بُطُونِنَا عن حَجَرٍ حَجَرٍ، فَرَفَعَ رسول اللَّهِ ﷺ عن حَجَرَيْنِ»[٥].

---

[١] انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٩٥.

[٢] انظر: محمد الصادق ابراهيم عرجون، محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٥م، ج٤، ص ص:١٣٦ــ١٣٧.

[٣] الخمص: الجوع، ومنه المخمصة وهي المجاعة. [انظر: الرازي، مختار الـــصحاح، مـــصدر ســـابق، ج١، ص٨٠، باب خمص].

[٤] مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأشربة، بَاب جَوَازِ اسْتِتْبَاعِهِ غَيْرَهُ إلى دَارِ من يَثِقُ برِضَاهُ...، ج٣، ص١٦١٠، حديث رقم٢٠٣٩.

[٥] الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، كتاب الزهد، باب ما جاء فـــي معيـــشة أصـــحاب النبـــي ﷺ، ج٤، ص٥٨٥، حديث رقم: ٢٣٧١، قال أبو عيسى هذا حديث غريب.

المطلب الثالث: وجوب طاعة النَّبي ﷺ.

إنَّ الآيات الواردة في الأمر بطاعة الرَّسول ﷺ جاءت في مواطن عديدةٍ من القرآن الكريم، واتَّصفت تلك الآيات بتنوُّع أساليبها، وتعدُّد صيَغها مع اتّحاد جميعها في الأمر بطاعة الرَّسول ﷺ.

ومن بين تنوع أسلوب الأمر بطاعة الرَّسول ﷺ في القرآن، أنَّنا نجد أحيانًا آيات آمرة بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ مع إعادة الفعل مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾[(١)]، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوب طاعة الرَّسول ﷺ استقلالًا، ولو لم يكن الأمر بعينه موجودًا في كلام الله الذي هو القرآن، وقد جاء ما يؤكد هذا في قوله تعالى: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ**﴾[(٢)].

فالآيات الآمرة بطاعة الرَّسول ﷺ استقلالاً يفهم منها طاعة جميع أوامره، والانتهاء عن جميع نواهيه، والتي ثبتت عن طريق حديثٍ صحيحٍ سواءٌ كان ذلك في فعله، أو قوله، أو تقريره.

وكما نجد أحيانًا آيات أخر وهي كثيرةٌ آمرةٌ بطاعة الله ورسوله دون إعادة الفعل مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾[(٣)]، وفي هذا أيضًا إشارة إلى أنَّ طاعة الرَّسول ﷺ هي طاعةٌ لله سبحانه.

إلاَّ أنَّ الذي لفت انتباهي، ولم أجد في الحقيقة بعد جوابًا له هو: لماذا قرن الله سبحانه ﷻ فعل الطَّاعة بوصف الرِّسالة ﷺ مثل: ﴿**وَأَطِيعُواْ، يُطِعِ، وَأَطِعْنَ، أَطَعْنَا**﴾، ولم يقرنها بوصف النُّبوة، كقوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾، ولم يرد في القرآن بأكمله عبارة أطيعوا النَّبي، أو يطع النَّبي.

ومن خلال البحث للجواب على هذا السُّؤال تبيَّن لي أن أيَّ سورة ذكر فيها اشتقاق فعل "أطاع" المنسوب إلى الرَّسول ﷺ فإنَّ السُّورة مدنيَّة مثل:

---

(١) سورة المائدة: ٩٢، سورة التغابن: ١٢.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) سورة الأنفال: ١.

"أطيعوا" ورد في السُّور المدنيَّة التَّالية: آل عمران، النساء، المائـدة، الأنفـال، النـور، محمد، المجادلة، التغابن.

"يطع": وردت في السُّور المدنيَّة التَّالية: النساء، النور، الأحزاب، الفتح.

"أطعن": الأحزاب.

"أطعنا": النور، الأحزاب.

ومما تجدر ملاحظته أيضًا أنَّ جميع السُّور التي ذكر فيها جانب من الغزوات كالسُّور التَّالية: آل عمران (غزوة أحد)، الأنفال (غزوة بدر)، التوبة (غزوة تبوك، وحنـين)، الأحـزاب (غزوة الأحزاب، وبنو قريظة)، الحشر (غزوة بني النضير)، جاء الأمر فيهـا بالتَّأكيـد علـى وجوب طاعة الرَّسول ﷺ واتباعه، والسَّبب لعلَّه راجع في ذلك إلى أنَّ فـي ظـروف الـشَّدائد، والأزمات، والمُلمَّات، والخطوب كان لا بدَّ فيها من الالتفاف حول القيادة الراشدة، والتَّحاكم إلـى أمرها وطاعتها، ومن باب أولى الطاعة والامتثال لأوامر المعصوم ﷺ.

وسورة الأحزاب كغيرها من السُّور الآمرة بوجوب طاعة الرَّسول ﷺ من ذلك ما جـاء في أمره سبحانه لزوجات النَّبي ﷺ أن يُطِعنه، قال تعالى: ﴿**وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ**﴾[١]، لـذلك كـان لزامًا عليهنَّ أن يطعن الرَّسول ﷺ لأمرين:

١ــ كونه رسولًا لهنَّ قبل كل شيء.

٢ــ كونه زوجًا لهن.

ولهذا تجب عليهنَّ طاعته كرسول وزوج في كلِّ أمرٍ أمرَ به رسول الله ﷺ سـواء أمـر إيجاب أو استحباب.

وقد سبقت الإشارة لزوجاته ﷺ بفضل هذه الطَّاعـة فقـال: ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**﴾[٢]، والقنوت بمعنى الطَّاعة، أي ومن يطع الله ورسوله منكنَّ يعطها الله ثواب عملها مثلي ثواب عمل غيرهن مـن سـائر نـساء النَّـاس، وأعتدنا لها في الآخرة عيشًا هنيئًا في الجنَّة[٣].

---

[١] سورة الأحزاب: ٣٣.

[٢] سورة الأحزاب: ٣١.

[٣] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص١.

وسبب تأكيد أمر زوجات النَّبي ﷺ بطاعته في سورة الأحزاب: لأنَّهنَّ واقفات في موقف جلل على ما فيه من العلوِّ وشرف بيت النُّبوَّة، فلزم بذلك أن يكنَّ المثل في طاعـــة الرَّســـول ﷺ حفاظًا على سُمعة الرَّسول ﷺ صونًا من أن يطال عرضه المنافقون، والذين في قلوبهم مـــرض، والمرجفون في المدينة.

ثواب هذه الطَّاعة:

جاء في خواتيم سورة الأحزاب والتي كان موضوعها الأساسي النَّبي ﷺ، بيـــان ثـــواب طاعة الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا** ﴾[١]، أي ومن يطع الله في فرائضه، والرَّسول في سننه وآدابه فقد نجا نجاةً بينةً[٢].

فجعل الله ثواب طاعة الله ورسوله يستحقُّ عليه صاحبه أن يفـــوز فـــوزًا عظيمًـــا مـــن وجهين: أحدهما أنَّه نجا من عذاب عظيم، والنَّجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب، والثاني: أنَّـــه وصل إلى ثوابٍ كثير وهو الثواب الدَّائم الأبدي[٣].

إذن فكون العبد أنَّه قد نجا من النَّار هو بحدِّ ذاته فوز؛ لأنَّه نجا من عذاب عظيم لقولـــه تعالى: ﴿**فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ** ﴾[٤]، وإذا أدخِل الجنَّة فذلك فوزٌ على فـــوز: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾[٥].

ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبي ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلا من أَبَـــى. قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَنْ يَأبَى؟ قال: من أَطَاعَنِي دخل الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[٦].

---

[١] سورة الأحزاب: ٧١.

[٢] انظر: محمد بن الحسين السلمي، أبو عبد الرحمن (ت: ٤١٢هـ)، حقائق التفسير، ت: سيد عمران، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٢١هـ، ج٢، ص١٥١.

[٣] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص٢٠٢.

[٤] سورة آل عمران: ١٨٥.

[٥] سورة النساء: ١٣.

[٦] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ج٦، ص٢٦٥٥، حديث رقم:٦٨٥١.

المطلب الرابع: وجوب الاستسلام لأمر النَّبي ﷺ.

يبيِّن الله تعالى في هذه السُّورة أنَّ التَّسليم لأوامره وأوامر رسوله ﷺ واجب على كل مؤمن ومؤمنة، وليس لأحد الخِيار في أن يأتمر بعقله أو يُغلِّب هواه أو يجتهد في مَعرض النَّصِّ، فلا رأي، ولا قول، ولا حكم إلا ما أمر الله به ورسوله، وعدَّ هذا التَّحاكم للعقل والهوى من قبيل العصيان لله ورسوله؛ وأنَّه حتمًا مؤدٍّ إلى الضَّلال المبين قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

فالآية توجب التَّسليم الكامل والانقياد التَّام من أهل الإيمان لما قضى به الله تعالى، وقضى به رسوله ﷺ، فليس في ذلك اختيار، بل السَّمع والطاعة والقَبول والتَّسليم بما جاء عن الله ورسوله.

وجاء اقتران لفظ الجلالة مع لفظ الرَّسول إشارة إلى أنَّه ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ له منزلة عند الله تعالى بحيث تعدُّ أوامره أوامر الله ﷻ أو للإشعار بأنَّ ما يفعله ﷺ إنَّما يفعله بأمره؛ لأنَّه لا ينطق عن الهوى، فالنَّظم من قبيل ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[2]، [3].

ومن الملاحظ أنَّ الآية جاء فيها الخطاب لأهل الإيمان وهذا دليلٌ على أنَّ اسم الإيمان يشعر بأنَّ هذا هو المطلوب منهم، وهو من موجبات الاسم الذي نُسبوا إليه، فما فائدة من تسمَّى بالإيمان وهو مُخالف لمقتضاه.

لذا فالإيمان الحقيقي المطلوب من كلِّ مؤمن ومؤمنة على وجه التَّفصيل هو الذي يحتكم لأمر الله ورسوله فهذا هو الإيمان الصَّادق بخلاف الإيمان الباطل الزَّائف الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وهو حال المنافقين أعاذنا الله منهم.

فالآية كما هي واضحةٌ تؤكِّد على وجوب التَّقاضي إلى الله ورسوله معًا في جميع الأمور؛ حيث جعل سبحانه الأمر الواحد المطلق متعلقًا بقضاء الله ورسوله من دون تمييز، وهذا يعني أنَّ قضاء الرَّسول ﷺ فيما يقضيه هو عينُ قضاء الله سبحانه.

ولا يكتفي مجرَّد التَّقاضي إلى الرَّسول ﷺ بل وجوبُ الرِّضا بهذا القضاء الذي حكم به رسول الله ﷺ، والتَّسليم له تسليمًا مطلقًا من دون أن يجد المقْضِي له في نفسه أدنى حرج، فلذلك

---

[1] سورة الأحزاب: ٣٦.

[2] سورة الأنفال: ٤١.

[3] انظر: الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢٢، ص٢٢.

أقسم الله بنفسه سبحانه بأنَّ عدم التَّقاضي أو التَّحاكم إلى الرَّسول ﷺ، والرِّضا بحكمه هو فعل يُنتفى به الإيمان، فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

يقول صاحب المنار: "هو نفي وإبطال لظنِّ الظَّانين أنَّهم بمجرد محافظتهم على أحكام الدِّين الظاهرة يكونون صحيحي الإيمان مستحقِّين للنَّجاة من عذاب الآخرة والفوز بثوابها؛ لا وربِّك لا يكونون مؤمنين حتَّى يكونوا موقنين في قلوبهم مذعنين في بواطنهم، ولا يكونون كذلك حتَّى يحكِّموك فيما شجر بينهم، ثمَّ بعد أن تحكم بينهم لا يجدوا في أنفسهم الضَّيِّق الذي يحصل للمحكوم عليه إذا لم يكن خاضعًا للحكم في قلبه، فإنَّ الحرج إنَّما يلازم قلب من لم يخضع، ذلك بأنَّ المؤمن لا ينازع أحدًا في شيء إلا بما عنده من شبهة الحق، فإذا كان كل من الخصمين يرضى بالحق متى عرفه، وزالت الشُّبهة عنه كما هو شأن المؤمن، فحكم الرسول يرضيهما ظاهرًا وباطنًا؛ لأنَّه أعدل من يحكم بالحق" [2].

ولهذا نجد أنَّ الله سبحانه وتعالى بيَّن في سورة النُّور بأنَّ المؤمنين الحقيقيِّين هم الذين إذا تحاكموا إلى كتاب الله، وسنَّة رسوله أعجبهم ذلك الحكم، وقبلوا به، وكان قولهم سمعنا وأطعنا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

أمَّا صفات أهل النفاق فهم عكس ذلك؛ فإنَّهم يُعْرِضون عن حكم الله، وحكم رسوله إذا دُعوا إليه قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[4].

المطلب الخامس: وجوب الصَّلاة والسَّلام على النَّبي ﷺ.

لما بيَّن سبحانه وتعالى ما يجب على المؤمنين من تعظيم النَّبي ﷺ في بيته، ومع أزواجه وبعد مماته؛ وذلك بتعليمهم سلوك طريق الأدب معه عقَّب سبحانه وتعالى على ذلك بتعظيم شأنه عنده، وعند ملائكته المقرَّبين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بالصَّلاة عليه،

---

[1] سورة النساء: ٦٥.

[2] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج٥، ص١٩٤.

[3] سورة النور: ٥١.

[4] سورة النور: ٤٨.

فأوجب سبحانه حقًّا آخر للنَّبي ﷺ على المــؤمنين فقـــال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[١].

ففي الآية أمران:

أوّلاً: وجوب الصَّلاة عليه ﷺ، لقوله تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾، وصـــلاة المؤمنين على النَّبي ﷺ هي بمعنى الدعاء بأن يترحَّم عليه الله ويسلِّم [٢].

وفي هذه الآية أمر اللّه تعالى عباده بالصَّلاة على نبيِّه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفًا لـــه، ولا خلاف في أنَّ الصَّلاة عليه فرض في العمر مرَّةً، وفي كل حين إذا ذكـــر مـــن الواجبـــات وجوب السُّنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه[٣].

وأما عن صيغة الصَّلاة على النَّبي ﷺ فقد وردت فيها صيَغٌ كثيرةٌ صحيحة أكتفـــي بمـــا رواه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قال: «أَتَانَا رسول اللَّهِ ﷺ وَنَحْـــنُ فـــي مَجْلِسِ سَعْدِ بن عُبَادَةَ، فقال له بَشِيرُ بن سَعْدٍ: أَمَرَنَا الله تَعَالَى أَنَّ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يـــا رَسُـــولَ اللَّـــهِ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قال: فَسَكَتَ رسول اللَّهِ ﷺ حتى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لم يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قال رسول اللَّـــهِ ﷺ: قُولُوا: اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيم، وَبَارِكْ علـــى مُحَمَّـــدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم في الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[٤].

وقد وردت أحاديثٌ كثيرةٌ في فضل الصَّلاة على رسول اللّه ﷺ منها:

روى الإمام أحمد في مسنده قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَمْرٍو يَعْنِي ابْـــنَ أَبِـــي إِسْحَاقَ عَنْ بُرَيْدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ»[٥].

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٦.

[٢] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٦٦.

[٣] انظر: القرطبي، جامع البيان، مصدر سابق، ج١٤، ص ص:٢٣٢ـــ ٢٣٣. وانظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢٢، ص١٠٢.

[٤] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعـــد التـــشهد، ج١، ص٣٠٥، حديث رقم ٤٠٥.

[٥] ابن حنبل، مسند أحمد، مصدر سابق، مسند أنس بن مالك، ج١٩، ص٥٧.

وروى ابن ماجه قال: حدثنا بَكْرُ بن خَلَفٍ أبو بِشْرٍ ثنا خَالِدُ بن الحرث عن شُعْبَةَ عن عَاصِمِ بن عُبَيْدِ اللَّهِ قال سمعت عَبْدَ اللَّهِ بن عَامِرِ بن رَبِيعَةَ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ما من مُسْلِمٍ يُصَلِّي عليَّ إلا صَلَّتْ عليه الْمَلَائِكَةُ ما صلى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ الْعَبْدُ من ذلك أو لِيُكْثِرْ»[١].

ويسنُّ الإكثار من الصَّلاة على رسول الله ﷺ في أوقات مخصوصة كيوم الجمعة، وعند زيارة قبره ﷺ، وبعد النِّداء للصلاة، وفي صلاة الجنازة، وفي غير ذلك.

روى مسلم بسنده عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ أَنَّهُ سمع النبي ﷺ يقول:«إذا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يقول، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فإنه من صلى عَلَيَّ صَلَاةً صلى الله عليه بها عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ في الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ من عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أنا هو، فَمَنْ سَأَلَ لي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ»[٢].

وروى أبو داود في سننه قال: حدثنا هَارُونُ بن عبد اللَّهِ ثنا حُسَيْنُ بن عَلِيٍّ عن عبد الرحمن بن يَزِيدَ بن جَابِرٍ عن أبي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ عن أَوْسِ بن أَوْسٍ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الْجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ من الصَّلَاةِ فيه فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ، قال: قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أَرِمْتَ يَقُولُونَ بَلِيتَ؟ فقال: إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ على الأرض أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»[٣].

وللعلم فإنَّ الصَّلاة على النَّبي ﷺ تجعل صاحبها يجني ثمارًا دنيويةً وأخرويةً كثيرةً، فمن الدنيوية مثلاً: أنَّها سببٌ لتفريج هموم الدنيا، روى ابن أبي شيبة في مصنفه قال حدثنا وَكِيعٌ عن سُفْيَانَ عن عبد اللهِ بن مُحَمَّدِ بن عَقِيلٍ عن الطُّفَيْلِ بن أُبَيٍّ عن أبيه قَال: قَال رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

---

[١] ابن ماجه، سنن ابن ماجه، مصدر سابق، كتاب إقامة الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، ج١، ص٢٩٤، حديث رقم ٩٠٧.

[٢] مسلم، صحيح مسلم، المصدر السابق، كتاب الصلاة، بَاب اسْتِحْبَابِ الْقَوْلِ مِثْلِ قَوْلِ الْمُؤَذِّنِ لِمَنْ سَمِعَهُ ثُمَّ يُصَلِّي على النبي ﷺ ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ له الْوَسِيلَةَ، ج١، ص٢٨٨، حديث رقم ٣٨٤.

[٣] سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داود (ت: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، ج١، ص٢٧٥، حديث رقم ١٠٤٧.

«أَرَأَيْتَ إن جَعَلْتُ صَلَاتِي كُلَّهَا صَلَاةً عَلَيْكَ، قال: إذًا يَكْفِيكَ اللَّهُ ما أَهَمَّكَ مِن أَمْرِ دُنْيَاكَ، وَآخِرَتِكَ»[١].

وأمَّا الأخروية زيادة على الأجر العظيم ما رواه الترمذي في سننه قال حدثنا محمد بن بَشَّارٍ حدثنا محمد بن خَالِدٍ بن عَثْمَةَ حدثني مُوسَى بن يَعْقُوبَ الزَّمْعِيُّ حدثني عبد اللَّهِ بن كَيْسَانَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بن شَدَّادٍ أخبره عن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:«أَوْلَى الناس بي يوم الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً»[٢].

واستحقاق الرَّسول ﷺ للصَّلاة عليه من قبل أمته؛ لأنَّه بعث رحمةً للعالمين، وهو أكثر الخَلْق رأفةً وإحسانًا للأمة والإنسانية، وكلُّ محسن مستحق للشُّكر والثَّناء، وليس لنا ما نكافئ به شكر الرَّسول ﷺ على جهده إلاَّ أن ندعو له بأفضل الدُّعاء وهو الصَّلاة عليه.

ثانيا: وجوب التَّسليم عليه ﷺ لقوله تعالى: ﴿**وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾، ومعناها: "حيُّوه بتحيَّة الإسلام"[٣]، "واخضعوا له خضوعًا" [٤]، وقيل: المراد بالتسليم الانقياد لأمره [٥].

وقد سُئل ابن حجر عن إضافة الصَّلاة إلى الله دون السَّلام، وأمر المؤمنين بها وبالسَّلام، فقال: "يحتمل أن يكون السَّلام له معنيان التَّحيَّة والانقياد فأمر به المؤمنين لصحَّتهما منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد فلم يُضف إليهم دفعًا للإيهام، والعلم عند الله"[٦].

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه وتعالى يصلِّي على نبيِّه ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ، فأيُّ حاجةٍ إلى صلاة الملائكة والمؤمنين عليه؟

والجواب: "أن الله سبحانه شرع الصَّلاة على النَّبي ﷺ إظهارًا لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعها لحاجة النَّبي ﷺ إليها مع صلاة الله عليه، فهو ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ معظَّم

---

[١] عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، أبو بكر (ت: ٢٣٥هـ)، مصنف ابن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ، كتاب الصلوات، باب في ثواب الصلاة على النبي ﷺ، ج٢، ص٢٥٣، حديث رقم: ٨٧٠٦.

[٢] الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، ج٢، ص٣٥٤، حديث رقم٤٨٤. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب.

[٣] الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص٤٣.

[٤] السمرقندي، بحر العلوم، مصدر سابق، ج٣، ص٦٨.

[٥] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٤.

[٦] ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج٨، ص٥٣٣.

ومحترم ومكرَّم في الملأ الأعلى بصلاة الملائكة عليه، ومعظَّم أيضًا ومحترم، ومكرم في الملأ الأدنى بصلاة المؤمنين عليه.

وهناك جواب آخر: وهو يستدعي منَّا أن نَّحمد الله حمدًا كثيرًا، ونشكره شكرًا جزيلًا؛ لأنَّه أمرنا بالصَّلاة والسَّلام على نبيِّه محمد ﷺ، وفي ذلك رحمةً بنا، إذ ثواب صلاتنا عليه ﷺ يعود علينا بالأجر والفضل، ولهذا قال ﷺ: «من صلى عَلَيَّ وَاحِدَةً صلى الله عليه عَشْرًا»[١]، فما أكرم هذا النبي ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ على الله! وما أعظم منَّة الله علينا به ــ عليه الصلاة والسلام ــ !"[٢].

فمن أحبَّ الله فليصلِّ على نبيِّه محمد ﷺ إذ ليست الصَّلاة مرتبطة بشخصه ﷺ، وأيضًا فإنَّ الصَّلاة عليه هي بحدِّ ذاتها ذكر.

من خلال استعراض ما يتوجَّب على المؤمنين تجاه نبيِّهم ﷺ من حقوق، وكانت مرتبة على حسب ترتيب الآيات في السُّورة: يتبيَّن أنَّه من أحبَّ النَّبي ﷺ، وقدَّم حبَّه على نفسه؛ فإنَّ ذلك باعث على التَّأسِّي به؛ لأنَّ من موجبات المحبَّة التَّأسِّي بالمحبوب، ومن تأسَّى واقتدى به أطاعه، ومن أطاعه استسلم لأمره، وخضع لحكمه، ومن كان هذا فضله وحقه علينا جميعًا صلَّينا عليه، فلبَّيك اللَّهم صلِّ وسلِّم وبارك على محمد وعلى آل محمد كلَّما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون.

المطلب السادس: موقف المؤمنين تجاه النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

أولا: موقف المؤمنين تجاه النَّبي ﷺ.

إنَّ الشَّدائد والمحن تسفر عن معادن الرِّجال، وتميِّزهم عن غيرهم، بما يظهرونه من إخلاصٍ وتفانٍ وعزيمةٍ وصمودٍ، أو خلاف ذلك، ومشهد غزوة الأحزاب في أهوالها، وأخطارها من هذا القبيل؛ إذ صوَّر الله في القرآن ذلك المشهد بجزء من مشاهد يوم القيامة [٣]، فذكر لنا

---

[١] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، ج١، ص٣٠٦، حديث رقم ٤٠٨.

[٢] طهماز عبد الحميد، من موضوعات سور القرآن الكريم، مرجع سابق، ص١٣٦.

[٣] عندما وصف الله سبحانه مشهد الأحزاب بقوله: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[الأحزاب: ١٠]، وافق ذلك التصوير مشهد ا من مشاهد يوم القيامة فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾[غافر: ١٨].
ولما قال أيضا: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[الأحزاب: ١١]. طابق ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:١].

سبحانه عيِّنات من اللَّحظات التي تتجلي فيها النُّفوس، وتُمتحن فيهـا الطَّبـائع، وتتكـشف فيهـا السَّرائر والنوايَا، وهذا ليميز الله بها الخبيث من الطَّيب وليعلمَ الصادقين من الكاذبين.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[١].

يُذكّر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثُّهم على شكرها حين جاءتهم جنـود أهـل مكة، والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتحزَّبوا في المدينة على استئصال الرَّسول ﷺ والصَّحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالأتهم طوائف اليهود الذين حـوالي المدينـة فجـاؤوا بجنودٍ عظيمةٍ وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحاصروا المدينة، فعظُم الخطب، واشتدَّ الأمر، وضاق الحال، وبلغت القلوب الحناجر حتَّى بلغ الظَّنُّ من كثير من النَّاس كلَّ مبلـغ لِما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشَّدائد الشديدة، ومكثوا محاصرين للنَّبي ﷺ قرابة شهر[٢].

في هذه الأوقات العصيبة، والشَّدائد العسيرة وقع الظَّنُّ بالله ظنونا، فظنَّ المؤمنون ظـنَّ الخير بالله سبحانه، وهو: إمَّا النَّصر أو الشَّهادة في سبيل لقاء الله، كما قال تعالى حاكيًا عن ظـنِّ المؤمنين بربِّهم حال السَّرَّاء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[٣]، وعن ظنِّهم بالله حال الضرَّاء: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[٤]، وأمَّا المنافقون فإنَّهم ظنُّوا ظنَّ السَّوْءِ بالله سبحانه، كما حكى تعالى عن ظنِّهم فـي

وقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ﴾[الأحزاب: ١٠]، قارب ذلـك بقولـه: ﴿ يَخَـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّـبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٧]، وزيغ الأبصار وتقلبها علامة للاضطراب والهلع والخوف.

[١] سورة الأحزاب: ٩ ــ ١٠.

[٢] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧١. وانظر: الـسعدي، تفـسير الـسعدي، مصدر سابق، ج١، ص ص: ٦٥٩ــ٦٦٠.

[٣] سورة البقرة: ٤٦.

[٤] سورة البقرة: ٢٤٩.

سورة آل عمران في غزوة أحد: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾[١]، وفي سورة الفتح: ﴿ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾[٢].

وفي هذه الأجواء المشحونة الشَّديدة، والتي ظنَّ فيها المؤمنون الظنَّ الحسن بالله، قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾[٣]، أي: في ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال، والجوع، والحصر، والنَّزال ليتبيَّن المؤمن من المنافق.

يقول الطبري: "حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ وكان الله قد وعدهم في سورة البقرة فقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾[٤]، خيرهم وأصبرهم وأعلمهم بالله ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ هذا والله البلاء والنَّقص الشَّديد، وإنَّ أصحاب رسول الله ﷺ لمَّا رأوا ما أصابهم من الشِّدة والبلاء قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا وتصديقًا بما وعدهم الله وتسليمًا لقضاء الله" [٥].

ولهذا لمَّا رأى المؤمنون جموع الأحزاب أمامهم، والمشهد الكرب المهيب، ولم تكن القوى متوازنة، وكانت الكفَّة لغير صالحهم، وكان فيها التَّثبيط والتَّعويق في داخلهم من صفوف المنافقين، والخيانة والغدر من كيد يهود بني قريظة،... لم يضعُفوا ويستكينوا ويجبنوا بل ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[٦].

---

[١] سورة آل عمران: ١٥٤.

[٢] سورة الفتح: ١٢.

[٣] سورة الأحزاب: ١١.

[٤] سورة البقرة: ٢١٤.

[٥] الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢١، ص١٤٤.

[٦] سورة الأحزاب: ٢٢.

فالمؤمنون الكاملون في الإيمان لمَّا رأوا جموع الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم القلــوب قالوا مع ما حصل لهم من الزِّلزال، وتعاظم الأحوال: هذا ما وعدنا الله ورسوله.

ولمَّا كان هذا معناه التَّصديق، أزالوا عنه احتمال أن يكون أمراً اتِّفاقياً، وصــرَّحوا بــه على وجهٍ يُفهم الدُّعاء بالنَّصر الموعود به، فزادوا تصديقًا بوعد الله ورسوله، وهما صادقان فيما غاب عنَّا ممَّا وعدا به من نَّصر وغيره.

ولمَّا كان هذا قولاً يمكن أن يكون لسانيّاً فقط كقول المنافقين أكَّده لظنِّ المنــافقين ذلــك، فقال سبحانه شاهداً لهم: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، [١].

ثانيًا: بيانُ العاقبة.

بعد عَرْض مشهد الأحزاب الذي ابتلي فيه المؤمنون، والشَّدائد التي مُحِّص فيها إيمانهم، تأتي بعد ذلك نتائج صبرهم، وثباتهم، والمتمثِّلة في جانبين:

الجانب الدنيوي: فقد آتاهم الله ثواب الدنيا المتمثِّل في ردِّ كيد الكافرين وأنَّهم لــم ينــالوا خيرًا، وأورث الله المؤمنين أرض أهل الكتاب وديارهم وأموالهم وأرضًا لم يطئوها وهي خيبــر قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[٢].

الجانب الأخروي: وهو حسن ثواب الآخرة بصدقِهم الذي صدَقوا الله ورســوله عليــه، ومدحهم في كتابه الخالد المعجز فقــال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾[٣]، فهؤلاء هم المؤمنون الــذين امتحن الله قلوبهم، وملأها تقوًى، وصدقًا، وحبًّا لله ورسوله، وهم قد أيقنوا بوعــد الله ونــصره ينصر من يشاء، جعلنا الله منهم.

---

[١] انظر: البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج٦، ص ص:٩١ ــ ٩٢.

[٢] سورة الأحزاب: ٢٧.

[٣] سورة الأحزاب: ٢٣ ــ ٢٤. وسبب مجيء هذه الآيات في هذا الموضع من سورة الأحزاب رغم أن ســبب نزولها متعلق بغزوة أحد المذكورة في سورة آل عمران؛ لأن سورة آل عمران جاء فيها العتاب لضعف موقــف المؤمنين في الغزوة فلم يناسب مجيء المدح للشهداء أمثال حمزة، ومصعب وغيرهم في سياق عتــاب، وإنمــا ناسبت الآية مجيئها في الأحزاب لأنه سياق مدح لموقف المؤمنين في ثباتهم وصدقهم الوعد الــذي عاهــدوا الله عليه، حتى يتأسوا بهؤلاء الشهداء.

فهؤلاء الرِّجال شَكَرَ الله صنيعَهم في المِرَاسَ، ومدح يقينهم عند شهود النَّاس، وسمَّاهم رجالاً، إثباتاً لهم بالخصوصيَّة في الرُّتبة، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحال [١].

فمن هؤلاء الرِّجال من قضى نذره بأن قاتل حتَّى استشهد كحمزة، ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، والنَّحْبُ بمعنى النَّذر، واستعير للموت؛ لأنَّه كنذرٍ لازمٍ في رقبة كلِّ حيٍّ[٢].

ومنهم من يَّنتظر أن يقضي نحبه أو ينتظر الشهادة في سبيل الله[٣]، ووصفهم الله بالانتظار إشارة إلى حبِّهم الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله.

فهؤلاء الرِّجال ما بدَّلوا أدنى تبديل في موقفهم، فثبتوا على عهدهم بخلاف المعوِّقين من المنافقين؛ فإنَّهم بدَّلوا، وغيَّروا ما عاهدوا الله عليه [٤].

فجزى الله هؤلاء الرِّجال بسبب صدقهم في أقوالهم، وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهرهم وباطنهم قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٥]، أي: "قدَّرنا ما قدَّرنا من هذه الفتن والمِحن والزلازل ليتبيَّن الصَّادق من الكاذب فيجزي الله الصَّادقين بصدقهم"[٦].

فما أشرفها وأعظمها من شهادةٍ ومكانةٍ وقدر!!! لأنَّهم قدروا الله حقَّ قدره، ونصروا رسوله حقَّ النَّصر، فسجَّل الله موقفهم البُطولي، وزكَّاهم في كتابه الخالد، فلم يبخس أو ينقص من أعمالهم شيئًا ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾[٧]، وأكْرِم به من موقف.

---

[١] انظر: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ)، البحر المديد، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٦، ص٢٩.

[٢] انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، مصدر سابق، ج٤، ص٣٧٠.

[٣] انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٦.

[٤] انظر: جابر بن موسى بن عبد القادر، أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ٢٠٠٣م، ج٤، ص٢٥٨.

[٥] سورة المائدة: ١١٩.

[٦] السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ج١، ص ص: ٦٦١ ــ ٦٦٢.

[٧] سورة محمد: ٣٥.

ولنا أن نَّسأل عن بلوغ المؤمنين لهذه الدَّرجة في الإيمان، والتَّصديق بوعد الله ورسوله رغم أن كفَّة القتال ومؤشِّرات الغلبة لم تكن في صالحهم [١].

لقد مرَّ المؤمنون بأحداثٍ قبل غزوة الأحزاب كبدرٍ، وأحدٍ، وصدرت منهم في هاتين الغزوتين أخطاء نزل بسببها الوحي ليصوِّب، ويُعدِّل، ويصحِّح موقفهم ليأخذوا منها الدروس والعِبَر، وليجعلوها نصب أعينهم حتَّى يستحقُّوا بذلك النَّصر والتَّمكين على أعدائهم، فلذلك نراهم من خلال تدرُّج الأحداث في القرآن أنَّهم أخذوا بها، وطبَّقوها، وبلغوا مرتبة التَّصديق، والتَّسليم لله ورسوله الذي شهدناه من خلال غزوة الأحزاب.

فمن هذه التَّرقيات التي جاءت من خلال غزوة بدر في سورة الأنفال مثلًا:

١ ــ كراهيَّة بعض المؤمنين للخروج إلى القتال قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[٢]، وجاء استدراك هذا النَّقص بأمر الله لنبيِّه في إعداد المؤمنين وتحريضِهم على القتال في أواخر السُّورة نفسها قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾[٣].

٢ ــ تحذيرهم من مغبَّة الوقوع في الخيانة من خلال هذه الغزوة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤]، وكان علاج هذه الخيانة أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه بنبذ الخائنين، فقال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٥].

---

[١] من جملة هذا الاختلال في التوازن: أنه بلغ عدد المشركين في غزوة الأحزاب عشرة آلاف، والمؤمنون ثلاثة آلاف. [انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج٤، ص ص: ١٧٦ ــ ١٧٧].

[٢] سورة الأنفال: ٥.

[٣] سورة الأنفال: ٦٥.

[٤] سورة الأنفال: ٢٧.

[٥] سورة الأنفال: ٥٨.

٣ ــ إلزامُهم بطاعة الله ورسوله؛ وتحذيرُهم عن عدم سماع أمره والتَّولي عنـــه، فقـــال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾(١)، وقـــال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾(٢).

إلى غير ذلك من التَّوجيهات والإرشادات التي جاءت في خضمِّ غــزوة بـــدر ليعقلوهـــا ويعوها.

ومما جاء أيضًا من أخطاء في غزوة أحد: عصيانهُم لأمر النَّبي ﷺ؛ ونزلوهم من جبـــل الرُّماة، فسجَّلها القرآن عليهم قائلاً: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾(٣)، وعندما لحقـــت بهـــم الهزيمة لعدم امتثالهم لأمر النَّبي ﷺ صعدوا إلى الجبل ليحموا أنفـــسهم تـــاركين نبـــيَّهم ﷺ وراء ظُهورهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾(٤)؛ ولو أنَّه سبحانه الغفور الكريم عفَا عنهم لعدم قصدهم مخالفة أوامر النَّبي ﷺ، وعدم التعمُّد في إلحاق الأذى به ﷺ فقال: ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٥).

كلُّ هذه الأسباب وغيرها أهَّلتهم أن يكونوا على قمَّة الصِّدق، والوفاء، والتَّسليم لأمر الله ورسوله، فكان موقفهم من الأحزاب أحسن شاهد على ثباتهم وصدقهم(٦).

---

(١) سورة الأنفال: ٢٠.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٥٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٦) أرى أنه من المهم للمفسر التفسير الموضوعي أن يدرس الموضوعات حسب تدرج أحداثها ليستنـــتج ويخرج بنتائج دقيقة، وتصورٌ شامل لتلبي احتياجات الباحث في بحثه، فمثلا لو درس عامل النفاق مـــن خـــلال تـــدرج

المبحث الثاني: ما يحرم من عصيان النَّبي ﷺ وإيذائه، وعاقبة ذلك.

تعامل النَّاس دائمًا مع بعضهم البعض يفرز عنه نوعين؛ تعاملٌ إيجابي: سواءٌ كان بالقول كالكلمة الطيِّبة، أو بالفعل: كخصال الخير، أو تعاملٌ سلبي: سواءٌ بالقول كالقدح في الشَّخص، والسَّبِّ، والقول الفاحش، أو بالفعل: كالإيذاء بالفعل، أو السُّخرية منه برسومٍ، أو غير ذلك من الإساءات الفعلية، أو القولية.

في هذا المبحث سنتطرَّق للكلام على الشّقِّ الثَّاني من التَّعامل ـ وهو السَّلبي ـ لكنَّه تعامل تجاه النَّبي ﷺ، ويتمثَّل في عصيانه، وإيذائه بشتَّى الألوان، مبيِّنين في ذلك عاقبة هذا التَّعامل، مع إبراز مثال واقعي من هذا التَّعامل، والمتجسِّد في عصره ﷺ.

المطلب الأول: التَّحذير من عصيان النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

أولا: التَّحذير من عصيان النَّبي ﷺ.

جاءت في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ مختلفةُ العبارات متَّحدة المضامين في النَّهي عن عصيان، ومشاقة، ومحادَّة الرَّسول ﷺ محذرة سوء عاقبة هذا العصيان، والمخالفة، وسورة الأحزاب ذكرت نصيبًا من هذا التَّحذير مبيِّنةً وعيد هذا العصيان، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾[١]، أي: "ومن يَّعص اللّه ورسوله فيما أمرًا ونهيًا فقد جار عن قصد السَّبيل، وسلك غير طريق الهدى والرَّشاد"[٢]، "وفيه عموم للتَّحذير من مخالفة الرَّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سواءٌ فيما هو فيه الخِيَرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة" [٣].

الغزوات المذكورة في القرآن كبدر وأحد والأحزاب...وتبوك، لرأينا تدرج القرآن وأسلوبه في التعامل مع النفاق وأصحابه فكان يزداد ذكرهم ويتعرض لفضحهم شيئا فشيئا كلما تعاظم خطرهم واشتد خداعهم ومكرهم، فلذلك ترى أنهم ذكروا في الأنفال مرة واحدة وكذا في آل عمران، لكن لما طالت دسائسهم على المؤمنين واشتد مكرهم بهم زاد التعرض لهم في سورة الأحزاب في ست مواضع، وهكذا زاد.تهجم القرآن عليهم وفضحهم حادثة حادثة، كغزو بني المصطلق المذكورة في سورة المنافقون، نهاية إلى سورة التوبة الفاضحة التي فضحتهم ولم تترك منهم شيئا.

[١] سورة الأحزاب: ٣٦.

[٢] أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط١، شركة ومطبعة البابي حلبي وأولاده، مصر، ١٩٤٦م، ج٢٢، ص١٥.

[٣] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٥٨.

فإن كان عصيان الله ورسوله عصيان ردٍّ وامتناع عن القَبول فهو ضلالٌ كفر، وإن كان عصيان فعل مع قَبول الأمر، واعتقاد الوجوب؛ فهو ضلالٌ فسق [١].

فالنَّبي ﷺ ما ضلَّ، وما غوى، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى، ولم تكن مهمَّته إلا تبليغ ذلك الوحي، فمن هنا يكون من عصاه في وحيه، فإنَّما عصى الذي أنزل عليه ذلك الوحي؛ لأنَّ الله هو المقصد، والنَّبي هو المُرشد الموصل إلى المقصد، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول المرشد فهو ضالٌّ قطعاً [٢].

وفي الآية طباقٌ [٣]من جميع وجوهه مع آية أخرى من السُّورة نفسها قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٤]، فبين ﴿يَعْصِ﴾، ﴿يُطِعِ﴾ طباق، وبين: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ طباقٌ أيضًا.

ثانيًا: بيانُ العاقبة:

تحدَّث القرآن الكريم عن وعيد عصيان الرَّسول ﷺ، وبيَّن نتيجة ذلك العصيان في الدنيا قبل الآخرة، وفي المحشر، ناهيك عن العذاب المهين في نار جهنَّم.

أمَّا في الدنيا فوعيده مثلا قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥]، "والحذر: تجنُّب الشيء المخيف، والفتنة: اضطراب حال النَّاس، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٦]، والعذاب الأليم هنا عذاب الدُّنيا، وهو عذاب القتل"[٧].

لكنَّ الملاحظ في الآية أنَّ الفتنة جاءت مطلقةً، فهي تشمل كل فتنة يمكن أن يُفتن بها كل من يخالف أمر النَّبي ﷺ؛ كأن يُذيق بعضهم بأس بعض، أو يجعلهم شيعًا، أو يكون بأسُهم بينهم

---

[١] انظر: النسفي، مدارك التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص٣٠٦.

[٢] انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٨٢.

[٣] الطباق هو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل كالبياض والسواد والليل والنهار وهو قسمان لفظي ومعنوي. [الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج٣، ص٤٥٥].

[٤] سورة الأحزاب: ٧١.

[٥] سورة النور: ٦٣.

[٦] سورة البقرة: ١٩١.

[٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨، ص٢٤٧.

شديد، أو يفتنوا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم، وغير ذلك من الفتن التي لا طاقة للبشر مقاومتها إلا بالرُّجوع والاهتداء بأوامر النَّبي ﷺ، وصدق الله حيث قال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[١].

يقول سيد قطب في الظلال محذِّرًا من عواقب هذه الفتنة: "إنَّه لتحذيرٌ مرهوبٌ، وتهديد رعيب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتَّبعون نهجًا غير نهجه، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس، وتختلُّ فيها الموازين، وينتكث فيها النِّظام، فيختلط الحقُّ بالباطل، والطيِّب بالخبيث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حدِّه أحد، ولا يتميَّز فيها خير من شر، وهي فترة شقاء للجميع"[٢].

والسِّر في وقوع هذه الفتن بحيث لا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حدِّه أحد وغير ذلك، هو عدم التَّحاكم إلى شخص بعينه، فتكون النتيجة عدم احترام الأحكام والأنظمة والتَّعليمات، وتصير الأمور فوضى فيختلط فيها الحابل بالنَّابل، ويسود القويُّ الضَّعيف، وحتى لا يقع ذلك يلزم احتكام الناس لشخصٍ واحد يُذعنون لرأيه، ويُسلِّمون لأوامره، ولا يكون هذا الشَّخص إلا ذو عصمةٍ، وذو أخلاقٍ رفيعةٍ، وصاحب رسالة: وهو النَّبي ﷺ.

أما في المحشر، فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾[٣]، "يعني يوم القيامة يودُّ الذين كفروا وعصوُا الرَّسول في الدنيا لو يصيروا ترابا" [٤]، "وإيراده ــ عليه السَّلام ــ بعنوان الرِّسالة لتشريفه، وزيادة تقبيح حال مكذِّبيه، فإنَّ حقَّ الرَّسول أن يُؤمن به، ويطاع لا أن يكفر به، ويعصى"[٥].

يقول صاحب المنار في تفسير هذه الآية: "أي يحبُّ ويتمنَّى الذين كفروا وعصوا الرَّسول؛ فلم يتَّبعوا ما جاء به أن يصيروا ترابًا تُسوَّى بهم الأرض فيكونوا وإيَّاهَا سواء كما قال في آخر سورة النَّبأ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[٦]، وقيل: أن يدفنوا وتُسوَّى بهم الأرض، أو تُسوَّى عليهم كما تُسوَّى على الموتى عادةً، وقيل: يتمنَّون أن تكون الأرض لهم فيدفعوها فديةً،

---

[١] سورة النور: ٥٤.

[٢] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٤، ص٢٥٣٥.

[٣] سورة النساء: ٤٢.

[٤] السمعاني، تفسير القرآن للسمعاني، مصدر سابق، ج١، ص٤٢٩.

[٥] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٨.

[٦] سورة النبأ: ٤٠.

فتكون مساوية لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[١]،"[٢].

أمَّا عندما يلقى العاصي جزاء عصيانه للنَّبي ﷺ؛ وهي نـار جهـنَّم يـصلاها مـذمومًا مَّدحورًا فالآيات كثيرةٌ منها قولـه تعـالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[٣]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[٤].

كما جاء في سورة الأحزاب في غير هذه المواضع ممَّا سبق ذكره بيانٌ لحالـة هـؤلاء العصاة كحال تقلُّب ووجوهِهم في النَّار ــ أعاذنا الله منها ــ نتيجة عصيانهم لله والرَّسـول قـال تعـالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾[٥].

"ومعنى تقلُّب وجوههم في النَّار أي: تصرف وجوههم فيها من جهةٍ إلـى جهـةٍ كلحـمٍ يشوى في النَّار، أو يطبخ في القدر فيدور به الغليان من جهةٍ إلى جهةٍ، أو من حالٍ إلى حالٍ، أو يُطرحون فيها مقلوبين منكوسين، وجاء تخصيص الوجوه بالذّكر لأنَّها أكرم أعـضاء الإنـسان؛ ففيه مزيد تفظيع للأمر، وتهويل للخطب، ويجوز أن تكون عبارةً عن كلِّ الجسد"[٦]؛ لأنَّ القـرآن أحيانًا يذكر عضوًا لكن يقصد به كامل الجسد كقوله تعالى: ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾[٧]، ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[٨].

---

[١] سورة المائدة: ٣٦.

[٢] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج٥، ص٩٠.

[٣] سورة النساء: ١٤.

[٤] سورة الجن: ٢٣.

[٥] سورة الأحزاب: ٦٦ ــ ٦٨.

[٦] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٦.

[٧] سورة المائدة: ٨٩.

[٨] سورة البلد: ١٣.

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ أي: "يقولون وهم كذلك يتمنَّون أن لَّو كانوا في الدَّار الدُّنيا ممَّن أطاع الله، وأطاع الرَّسول كما أخبر الله عنهم في حال العَرَصات بقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[٢]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنَّهم يودُّون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرَّسول في الدُّنيا"[٣].

وجاء في مقابل ما تمنَّوه من طاعة الله تعالى، وطاعة الرَّسول؛ أنَّهم أطاعوا السَّادة والكبراء: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾، والتَّعبير عنهما بعنوان السِّيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلّا فهُم في مقام التَّحقير والإهانة، وقدَّم في ذلك طاعة السَّادة على الكُبراء لما كان لهم من قوَّة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحقُّ بالتَّقديم في مقام الاعتذار وطلب التَّشفّي، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾، أي: فجعلونا ضالّين عن طريق الحقِّ بما دعُونا إليه، وزيَّنوه لنا من الأباطيل[٤].

وطلب العصاة من الله أن يضاعِف العذاب على المُضلِّين من السَّادة والكبراء، وأن يلعنهم أشدَّ اللَّعن وأعظمه؛ لأنَّهم ضلُّوا أنفسهم بعدم طاعة الله والرَّسول، وأضلُّوا من سادوا عليهم[٥].

وممَّا سبق ذكره يتبيَّن أنه لا يمكن معالجة مشاكلنا المُعاصرة، والخروج من هذه الأزمات الخانقة التي يَمُرُّ بها المسلمون، كالفتن التي تنشب هنا وهناك من حينٍ لآخر، والتَّشرذم

---

[١] سورة الفرقان: ٢٧ ــ ٢٩.

[٢] سورة الحجر: ٢.

[٣] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٠.

[٤] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٧. وانظر: الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢٢، ص: ٩٣.

[٥] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج٤، ص٤٠١. وانظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، مصدر سابق،ج٤، ص٣٨٧.

السَّائد في الشُّعوب الإسلامية، وغير ذلك من أسباب الذُّلِّ، إلا بالاحتكام إلى الوحي بشقَّيه: الكتاب والسنَّة الصَّحيحة، وإنَّ أيَّ مخالفةٍ لأمر من أوامر النَّبي ﷺ هو سببٌ في العيش الضَّنك، وأنَّ عواقب هذه المخالفة تظهر في الدُّنيا قبل الآخرة.

المطلب الثاني: التَّحذير من إيذاء النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

أوَّلاً: التَّحذير من إيذاء النَّبي ﷺ.

حذَّرت آياتٌ في سورة الأحزاب من الوقوع في إيذاء النَّبي ﷺ كما اعتبرت ذلك الإيذاء خروجًا عن الإيمان، وجرمًا عظيمًا عند الله يستحقُّ عليه صاحبه اللَّعنة في الدُّنيا والآخرة، ومن هذه الآيات الواردة حول تحريم إيذاء النَّبي ﷺ في السُّورة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[١].

نهت الآية نهيًّا عامًّا عن كلِّ ما يتأذَّى منه الرَّسول ﷺ، وجاء نهيٌ خاص بعده بحرمة نكاح أزواجه بعد وفاته، لأنَّ إذاية النَّبي ﷺ، ونكاح أزواجه من بعده يعدَّان عند الله أمرًا عظيمًا، وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله وإيجابه حرمته حيّاً وميّتاً، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه[٢].

ولم يقف النَّهي عند هذه الآية؛ بل أتبعه بتهديدٍ آخر تهويلاً لعِظم جرم إيذاء النَّبي ﷺ فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[٣]، فالله هو الذي يتولى أمر نبيِّه، وهو عالمٌ بما يبدو وما يخفى، مطَّلع على كلِّ تفكيرٍ وكلِّ تدبيرٍ، والأمر عنده عظيم، ومن شاء فليتعرَّض فإنَّما يتعرَّض لبأس اللّه السَّاحق الهائل العظيم [٤].

ولهذا نرى أنَّه تعالى أرشد نبيَّه ﷺ في آيةٍ سابقةٍ من السُّورة إلى التَّوكل عليه، وأن يدع أذاهم إليه تعالى، فقال: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[٥]؛ لأنَّ الله مؤيِّدٌ نبيَّه

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٣.

[٢] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٨.

[٣] سورة الأحزاب: ٥٤.

[٤] انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٧٨.

[٥] سورة الأحزاب: ٤٨.

بنصره: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، وكَفِيُّه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[٢].

فسياق الآية الأولى جاء فيها النَّهي عن إيذاء النَّبي ﷺ من قبل المؤمنين على شـــكلين: شكلٌ خاص: كالمكث في بيته، وترقُّب نضج الطَّعام، وعدم التأدُّب مع أزواجـــه وغيـــر ذلـــك، وشكلٌ عام: وهو في كل ما يتأذَّى به رسول الله ﷺ [٣]، قال تعـــالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فهنا الخطاب شامل متعلّق بالمؤمنين بدليل قوله تعالى فـــي رأس الآيـــة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ من اتَّصف بالإيمان ما كان له أن يؤذي رسول الله، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ من آذى النَّبي ﷺ فليس بمؤمن بل عدَّه أكثر الفقهاء كـــافرًا واعتبـــروا فعله مبيحًا لدمه [٤].

"فإيذاء النَّبي ﷺ كفر، وهذا ثابت قد نصَّ عليه الأئمَّة، وأفتوا بقتل مـــن تعـــرَّض لـــذلك كفراً، ولا تقبل توبته فما أتاه أعظم عند الله تعالى وأكبر"[٥].

ومن هنا إذا كان رفع الصَّوت على صوت النَّبي ﷺ مُحْبطًا للأعمال كما قـــال تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ

---

[١] سورة الأنفال: ٦٢.

[٢] سورة الحجر: ٩٥.

[٣] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٨. وانظر: ابن عاشـــور، التحريـــر والتنـــوير، مصدر سابق، ج٢١، ص ص: ٣١٥ ــ ٣١٦.

[٤] يقول القرطبي: «أكثر العلماء على أن من سب النبي ﷺ من أهل الذمة، أو عرض، أو اســـتخف بقـــدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به؛ فإنه يقتل فإنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا» [القرطبـــي، الجـــامع لأحكـــام القرآن، مصدر سابق، ج٨، ص٨٣]، وقال ابن حجر في الفتح: «أن من آذى النبيﷺ بقول أو فعل يقتـــل» [ابـــن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج٨، ص٤٨٠].

[٥] الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٢٦، ص١٣٦. لماذا لا تقبل توبة من آذى النبي ﷺ، وهذا حكم في ظنّي غير صحيح، لأن المنافقين آذوا النبي ﷺ في أمور عديدة، وهي مذكورة في سورة التوبة، ومع ذلـــك فقـــد ترك الله لهم المجال بين أيديهم ليتوبوا ويرجعوا عمَّا هم فيه، قال تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً﴾[التوبة: ٧٤].

﴿ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[١]، فمن باب أولى من ألحق الأذى به ﷺ؛ لأنَّ "إيذاءه ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتّفاق، فورد النَّهي عمَّا هو مظنَّة لأذى النبي ﷺ"[٢].

ثانيًا: أكَّد الله نهيه مرَّةً أخرى عن تحذير المؤمنين من إيذاء النَّبي ﷺ، لأنَّ الإذاية إذا صدرت من أحزاب كمشركين أو أهل كتاب فلعلّنا نلتمس لها وجهًا، كعدم دخولهم في الإسلام، ومعرفتهم لحقيقة هذا النَّبي، أمَّا إذا كانت الإذاية من قوم مؤمنين آمنوا بالله ورسوله فتلك هي الطَّامة الكبرى، ولهذا جدَّد الله نداءه للمؤمنين بأن يحترزوا من إيذاء النَّبي ﷺ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[٣].

وعظ الله المؤمنين أن لاَّ يؤذوا رسول الله ﷺ بقول يكرهه، أو بفعل لا يحبُّه، وضرب لهم مثلاً بالذين آذوا موسى نبيَّ الله فرموه بعيب كذبًا، وباطلًا؛ فبرَّأه الله ممَّا قالوا فيه من الكذب، والزُّور وكان عند الله مشَّفعًا فيما يسأل ذا وجه، ومنزلةٍ عنده بطاعته إيَّاه[٤].

ومعنى الآية أنَّ الرَّسول ﷺ ليس محلّ التُّهمة والأذيَّة، فإنَّه كان وجيهًا عند الله مقرَّبًا لديه من خواصِّ المرسلين، ومن عباد الله المخلصين، فاحذروا أيُّها المؤمنون أن تتشبَّهوا بالذين آذوا موسى[٥].

أما نوع الأذى الذي آذى بنو إسرائيل به نبيَّهم موسى عليه السلام فبرَّأه الله ممَّا قالوا، فيجيب عنه سيد قطب قائلاً: "ولم يحدِّد القرآن نوع الإيذاء لموسى؛ ولكن وردت روايات تُعيِّنه، ونحن لا نرى بنا من حاجةٍ للخوض في هذا الذي أجمله القرآن؛ فإنَّما أراد اللّه تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذي النَّبي ﷺ، وقد ضرب بنو إسرائيل مثلاً للالتواء، والانحراف في مواضع من القرآن كثيرة، فيكفي أن يشير إلى إيذائهم لنبيِّهم، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه، لينفر حسٌّ كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلاً صارخًا للانحراف والالتواء"[٦].

---

[١] سورة الحجرات: ٢.

[٢] المصدر ذاته، ج٢٦، ص١٣٦.

[٣] سورة الأحزاب: ٦٩.

[٤] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص٥٠.

[٥] انظر: السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ج١، ص٦٧٣.

[٦] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص ص: ٢٨٨٣ ــ ٢٨٨٤.

ثانيًا: بيان العاقبة:

لمَّا نهى الله المؤمنين عن إذاية النَّبي ﷺ بيّن وعيد ذلك الإيذاء للمؤمنين ولغيرهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[١].

يقول السَّعدي شارحًا للآية: "لمَّا أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، وبالصَّلاة والسَّلام عليه، نهى عن أذيَّته وتوعَّد عليها فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، وهذا يشمل كل أذيَّة قوليَّة، أو فعليَّة من سبٍّ، وشتمٍ، أو تنقُّص له، أو لدينه، أو ما يعود عليه بالأذى، ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، أي: أبعدهم وطردهم، ومن لَعنهم في الدنيا أنَّه يتحتَّم قتل من شتم الرَّسول وآذاه، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب المهين، فأذيَّة الرَّسول ليست كأذيَّة غيره، وله من التَّعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره"[٢].

وجاء ذكر الرَّسول ﷺ معطوفًا على لفظ الجلالة (الله) تعظيمًا، وإيذانًا بجلالة قدره عنده تعالى، وأنَّ إيذاؤه ﷺ إيذاء له سبحانه[٣].

ولمَّا كان قَصْدُ المؤذين للرَّسول ﷺ الإهانة، ناسب مجيء فاصلة الآية الوعيد بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، فالجزاء من نَفس جنس العمل.

ومن هنا ندرك فروقًا عدَّة بين هذه الآية، والتي بعدها في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٤]، منها:

ـ أنَّه تعالى فرَّق بين أذى الرَّسول ﷺ، وأذى المؤمنين؛ فأوجب على من آذى الرَّسول ﷺ اللّعن والطَّرد من رحمته، بينما حكم على من آذى المؤمنين بالبُهتان، والإثم، والفرق بين الحُكمين ناتج عن الفرق بين حقِّ النَّبي ﷺ، وحقِّ غيره.

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٧.

[٢] السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ج١، ص٦٧١.

[٣] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٤.

[٤] سورة الأحزاب: ٥٨.

ـــ أنَّه أُطلِق إيذاء الله ورسوله على إيذاء المؤمنين، فجاء إيذاء المـــؤمنين مقيَّـــدًا بقولـــه ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾؛ لأن إيذاءَهما (الله ورسوله) لا يكون إلاَّ بغير حقٍّ بخلاف إيذاء المؤمن فقد يكون بحقٍّ، ومعنى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾، بغير جناية واستحقاق أذى [(١)].

ثالثًا: ضرب الله لنا في القرآن أمثلةً عن أنواع من النَّاس الذين آذوا أنبياءهم، وذكر لنـــا سوء عاقبة هؤلاء المؤذِين، وفيما يلي أذكر نوعًا من الإيذاء الذي أوذي به رســـول الله ﷺ مـــن طرف المنافقين في زمانه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[(٢)].

فهؤلاء المنافقون آذوا رسول الله ﷺ بقولهم هو أذن سامعة يسمع من كلِّ أحد ما يقول فيقبله ويُصدِّقه، وهو من قولهم رجل أذنَة مثل فعلة إذا كان يسرع الاستماع والقَبول[(٣)].

لكن جاء ردُّ الله عليهم بقوله: إن محمَّدًا هو أذن في الخير والحقِّ، وفيما يجب ســـماعه، وقبوله، وليس بأذن فيما تزعمون؛ فهو مصدِّق بالله لما قام عنده من الأدلَّة ويقبل من المـــؤمنين الخُلــَّص من المهاجرين والأنصار وهو رحمةٌ لمن آمن منكم[(٤)].

ثم أوجب تعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم، وفي إيراده ﷺ بعنـــوان الرِّســـالة مضافًا إلى الاسم الجليل لغاية التَّعظيم، والتَّنبيه على أن أذِيَّته راجعةٌ إلى جنابه ﷻ موجبة لكمال السُّخط والغضب[(٥)].

[(١)] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٩.

[(٢)] سورة الأحزاب: ٦١ ــ ٦٣.

[(٣)] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج١٠، ص١٧٨.

[(٤)] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧١.

[(٥)] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٤، ص ص: ٧٧ ــ ٧٨.

لكن رغم الإيذاء الذي ألحقوه بالنَّبي ﷺ؛ فإنَّهم لم يعترفوا، وبــدؤوا بتبريــر أخطــائهم بالأيْمان المغلّظة الكاذبة جزاءَ أن يحصُلوا على رضاكم عنهم، وثقتِكم بهم، وتلــك هــي صــفة المنافقين الذين يعيشون الهمَّ الكبير لأقلِّ بادرة شكٍّ في سلوكهم لدى الآخرين؛ لأنَّ القضيَّة عندهم هي الحصول على رضَا المجتمع، فإذا فقدوا ذلك فقدوا الأساس الذي يرتكزون عليه في حيــاتهم العامَّة [١].

ثم غلّظ الوعيد مرَّة ثانيةً على المؤذين للرَّسول ﷺ قائلاً: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنَّ الحقَّ هو من يُعادِ الله ورسوله بتعدِّي حدود الله، أو بلمْز الرَّسول في أعمالــه، أو أخلاقــه وشــمائله كقولهم هو أذن، فجزاؤه أنَّ له نار جهنَّم يصلاها يوم القيامة خالدًا فيها لا مخرج له منهــا ذلــك الصِّليُّ الأبدي هو الذُّلُّ والنَّكال العظيم، الذي يتضاءل دونه كلّ خزي وذلٍّ في الحياة الدنيا [٢].

إذن فالآية الأولى بيَّنت أسلوب الإيذاء الذي آذى به المنافقون النَّبي ﷺ، وكــان متمــثّلاً بالإيذاء القولي بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾، وهي محصورةٌ في خمسة أحرف ــ رغم أنَّ النَّبــي ﷺ لــم يسمعها منهم مباشرة ــ فعدَّ الله قولهم هذا بأنَّه إيذاءٌ صريحٌ في حقّه ﷺ لقولــه تعــالى: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾، يستحقُّ عليه صاحبُه الوعيد الذي رتَّبه الله عليه.

كما نستنتج من هذه الآية أنَّ أسلوب القرآن في علاج المؤذين، والمستهزئين بالنَّبي ﷺ لا يتوسَّع في إيراد أقوالهم؛ بل يكتفي بحصر ما قالوه في أحرفٍ موجزة حتى لا يُقام لهم شأن فيمــا آذوا به رسول الله ﷺ؛ لكن في مقابل ذلك أطال في الرَّدِّ عليهم ببيان حقيقة هذا النَّبي مع توعُّدهم بسوء العاقبة.

وفي هذا عبرةٌ لنا بخصوص ما شهدناه، وما سمعناه، وما قرأناه من خبر الإساءة للنَّبــي ﷺ فكان الأصل أن لا ينشغل بها النَّاس، ولا أن يهتمُّوا بأخبارها فضلاً عــن أن يُروِّجــوا لهــا بإيذاع ما أذاعوه؛ لأنَّ هذا الأخير هو بحدِّ ذاته إقامة لشأنهم، واهتمــام بفعلهــم الــشّنيع، ولفتًــا للأنظار إلى هؤلاء المسيئين؛ إذ المنهج القرآني واضحٌ في معالجة هذا الأمر بعينه حيث أوْجَــز

---

[١] انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص ٣٣٣.

[٢] انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج١٠، ص٤٥٢.

في ذكر الإساءة؛ لكنَّه بيَّن لهم حقيقة هذا النَّبي ﷺ كما وضَّحها للمنافقين الذين آذوه بقولـــه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾، فلنوضِّح نحن أيضًا لهؤلاء حقيقة هذا النَّبي ﷺ، ونؤكِّد لهم أنَّ ما وصفوه به، ورسموه له لا يعكس تلـــك الأوصـــاف؛ بـــل العكس على ذلك تمامًا.

وتأكيدًا لهذا المنهج القرآني في علاج قضيَّة الإساءة؛ فإنَّ القرآن في ســـورة الأحـــزاب اقتصر على بيان حقيقة من أُسيء إليه مع عدم ترويج تلك الإساءة، ونشرها قال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[١].

فالله جلَّ شأنه لم يذكر نوع الإساءة، ولم يُشهِّرْها؛ بل اكتفى بقوله ســـبحانه: ﴿مِمَّا قَالُواْۚ﴾، دون إشاعتها، لكن في مقابل ذلك بيَّن لهم حقيقة موسى ــ عليه السَّلام ــ ومكانته عنده ســـبحانه فقال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

المطلب الثالث: مواقف العصاة والمكذِّبين تجاه النَّبي ﷺ، وعاقبة ذلك.

ذكرت سورة الأحزاب جانبًا كبيرًا ممَّن كان له موقف ســـلبي تجـــاه النَّبـــي ﷺ، وهـــم المنافقون الذين عاينوا وقائع الأحزاب فسلَّطت الضَّوء عليهم بـــأن وصـــفت مـــواقفهم، وبيَّنـــت أحوالهم، وكشفت عن سرائرهم، وخِداعهم وغير ذلك، وسأبيِّن هذه المواقف المُخزيـــة الجَبانِيَّـــة مَوقفًا موقفًا كما عرضته السُّورة على التَّرتيب.

أوَّلاً: موقفهم تجاه نصرة النَّبي ﷺ.

١ ــ التَّكذيب بوعد الرَّسول ﷺ، ونعت وعده بالغرور قـــال تعـــالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢].

واذكر أيُّها النَّبي حين كان يقول المظهرون للإيمان المبطنون للكفر، وأصحاب القلـــوب المريضة الذين لم يتمكَّن الإيمان من قلوبهم فَهُمْ على حرف أنَّك لمَّا ضربت الصَّخرة، وبرقـــت تلك البوارق، وبشَّرت بفتح فارس، والروم، واليمن، والحبشة قال المنافقون حينها يعدنا محمد أن

---

[١] سورة الأحزاب: ٦٩.

[٢] سورة الأحزاب: ١٢.

نفتح كنوز كسرى، وقيصر، ومكة ونحن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط !!! مـــا يعـــدنا إلاَّ غروراً أي أمراً يغرُّنا، ويُوقعنا فيما لا طاقة لنا به، وكان قولهم هذا على سبيل الهـــزء؛ إذ لـــو اعتقدوا أنَّك رسول حقيقة ما قالوا هذه المقالة[١].

وفي الحقيقة فإنَّ المنافقين، ومرضى القلوب قد سبق لهم أن مارسوا موقفًـــا دنيئًـــا فـــي غزوة بدر، وأعادوا ذلك الموقف نفسه في الأحزاب، ولم يتّعظوا أو يتذكّروا، وهذا الموقف تمثّل في تسفيه الوعد وتغريره قال تعالى: ﴿ إِذْ يَـقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

٢ ـــ التَّخلف عن نصرة الرَّسول ﷺ، وذلك بافتراء الأكاذيب عليه قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٣].

واذكر أيُّها النَّبي حين قالت طائفة من المنافقين منادين أهل المدينة لا مكان لكم تقيمـــون فيه، فارجعوا إلى منازلكم، وأمَرُوهم بتَركِك، وخُذلانِك، وكان أيضًا بعض المنافقين يستأذنك فـــي الرُّجوع إلى منازلهم بحُجَّة أنَّها ليست بحصينة؛ لكنَّ الحقيقة أنَّ بيوتهم هي حصينة إن يريـــدون إلاَّ الفرار من القتال[٤].

"ويقف السِّياق عند هذه اللـــَّقطة الفنِّية المُصوِّرة لموقف البلبلة، والفـــزع، والمراوغـــة يقف ليرسم صورة نفسيَّة لهؤلاء المنافقين، والذين في قلوبهم مَّرض، صورة نفسيَّة داخليَّة لِوَهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصَّفِّ بمجرَّد مصادفة غير مبقين على شـــيء، ولا مُتجمِّلين لشيء: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا

---

[١] انظر: أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢١٢.

[٢] سورة الأنفال: ٤٩.

[٣] سورة الأحزاب: ١٣.

[٤] انظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، ج٢، ص٨٦٠.

يَسِيرًا ﴾[١]،"[٢].

والفرار من المعركة والتولِّي يوم الزَّحف هو دَيْدَن المنافقين، فإنَّهم لا يلبثون في المعارك إلا زمانًا قليلاً ثمَّ ينصرفون محدثين بلبلة وانشقاقًا في صفوف المؤمنين.

ففي غزوة أحد قبل غزوة الأحزاب أنزل الله عليهم قرآنًا لو أنْزل على جبل لَرأيتَه خاشعًا مُتصدِّعًا مِّن خشية الله؛ ولكنَّ المنافقين لا يفقهون، ولا يعلمون، ولا يكترثون بما ينزل عليهم فقد عاتبهم الله بكُرهِهِمُ الجهاد بل بتصدِّيهم للمجاهدين من المؤمنين، وتعويقِهم قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[٣].

وقد قدح في ذهني سؤال وهو هل النَّبي ﷺ أذن للمنافقين لمَّا استأذنوه بالعودة إلى منازلهم بحجَّة أنَّها غير مُحصَّنة، أم لم يأذن لهم؟

يقول ابن عاشور: "لم يذكر المفسرون أنَّ النَّبي ﷺ أذن لهم"[٤]، وقال: "وحين استأذنه المنافقون في الرُّجوع عن الأحزاب فلم يأذن لهم"[٥].

ولكن أرى أنَّ النَّبي ﷺ أذن لهم وعادته أنَّه يأذن، ولا يردُّ؛ والدَّليل على ذلك نزول آية تكذيب المنافقين فيما استأذنوا فيه النَّبي ﷺ بحُجَّة أنَّ بيوتهم كانت عورة، وما هي بعورة، وجيء أيضًا بالفعل المضارع: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ ﴾، الذي يفيد التَّجديد، وطلب الإلحاح في الاستئذان، وأيضًا مما يدلُّ على أنَّ النَّبي ﷺ أذن لهم هو ما نزل في شأن المنافقين حين فرُّوا من القتل قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[٦]، والأهمُّ من ذلك مجيء الأمر مرَّتين في السُّورة بالنَّهي عن طاعة المنافقين بعد حدوث هذه الحادثة قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ

---

[١] سورة الأحزاب: ١٤.

[٢] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٣٩.

[٣] سورة آل عمران: ١٦٧.

[٤] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٠٧.

[٥] المصدر ذاته، ج٢١، ص ٢٨٤.

[٦] سورة الأحزاب: ١٦.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[١]، مع العلم أنَّ النَّبي ﷺ لم يكن ليطيع المنافقين، وخاصَّةً وهو في أمَسِّ الحاجة لمن يصطفُّ معه في قتال العدوِّ، وإنَّما أذن لهم لعدم علمه بنيَّتهم، فحكم على ظاهر كلامهم حتى نزل تكذيبهم، وإلَّا فلم سمُّوا منافقين؟

ولهذا فإنَّ النَّبي ﷺ حين أذن لهم في تبوك نزل عليه قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٢]، فلم يأذن بعدها ﷺ لمنافق من التَّخلُّف، والقعود عن القتال إلاَّ أصحاب الأعذار الذين نصَّ عليهم القرآن بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[٤]. والله أعلم.

٣ ـ التَّعويق وتثبيط المقاتلين مع النَّبي ﷺ، وكانت هذه عادتهم، وشأنهم في كل غزوة خرجوا فيها مع المؤمنين كما في غزوة أحد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٥]، وأيضًا في غزوة تبوك حيث قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾[٦]، أمَّا في الأحزاب فقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٧].

---

[١] سورة الأحزاب: ١و ٤٨.

[٢] سورة التوبة: ٤٣.

[٣] سورة التوبة: ٩١.

[٤] سورة الفتح: ١٧.

[٥] سورة آل عمران: ١٥٦.

[٦] سورة التوبة: ٨١.

[٧] سورة الأحزاب: ١٨.

وقد فضح الله مكرهم عندما وقفوا مثبِّطين إخوانهم من أهل النِّفاق عن نُصرة رسول الله ﷺ، وكانوا ينادونهم بأن قرِّبوا أنفسكم إلينا واتركوا محمدًا وشأنه، وكانوا لا يــأتون الحــرب إلا إتيانًا قليلاً، فيحضرون ساعةً رياءً يقفون قليلاً مقدار ما يُرَى شهودهم ثم ينصرفون[١].

"وهذه عادة المنافق عند الشِّدَّة، والمِحنة لا يثبت إيمانُه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة"[٢]، فهو كما وصفهم الحقُّ ﷻ في الأحزاب بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وقولــه: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٣].

وسبب قلّة حضورهم في مشاهد الغزو، والقتال هو قلّة الإيمان الذي في قلوبهم.

ثانيًا: وصفٌ لحالهم وسلوكهم تجاه النَّبي ﷺ.

لقد وصف الله حال هؤلاء المنافقين وإخوانهم من المرجفين شرَّ وصف لمَّا قابلوا النَّبــي ﷺ بها، وفي الآية التَّالية بيانٌ لوصف أعينهم، وألسنتهم، وأيديهم في تعاملهم مع النَّبي ﷺ.

أوَّلاً: عدم التــأدُّب واللَّباقة في نظرهم إلى النَّبي ﷺ، فقد كان نظرهم له حــال الخــوف كنظر المغشي عليه من الموت فعابَ الله عليهم ذلك فقال: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[٤]، فهم ينظرون إليك في تلك الحالة ويُحدِّقــون النَّظر كما ينظر المغشيِّ عليه من معالجة سكرات الموت حذراً، أو خوراً ولواذاً بك[٥].

ثانيًا: في حال الأمن يُسلِّطون ويبسطون أيديهم، وألسنتهم بالسُّوء على النَّبي ﷺ وأصحابه قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[٦]، أي: "غلبوكم بالألسنة، وآذوكم بكلامهــم يقولون: نحن الذين قاتلنا، وبنا انتُصِرتم وكسرتم العدو، وقَهرتم، ويُطالبونكم بالقِسْم الأوفر مــن الغنيمة"[٧].

---

[١] انظر: النسفي، مدارك التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص ص: ٣٠٠ ــ ٣٠١.

[٢] السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ج١، ص٦٦٠.

[٣] سورة الأحزاب: ٢٠.

[٤] سورة الأحزاب: ١٩.

[٥] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٣٧.

[٦] سورة الأحزاب: ١٩.

[٧] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٧٤.

ثالثًا: شحٌّ أيديهم وشدَّة بخلهم على النَّبي ﷺ وأصحابه كما وصفهم الله في قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، "فهم يُشحُّون بأنفسهم فلا يقاتلون، وقيل: يُشحُّون بأموالهم، وقيل: معناه أشِحَّة عليكم وقت الحرب أي يُشفقون أن يقتلوا"[١]، كما أكَّد شحَّهم في نفس الآية بقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[٢]، قيل: "الخير المال، ويمكن أن يقال معناه أنَّهم قليلو الخير" [٣]، إذن فهم بُخلاء وأشِحَّاء في كل شيء، كما وصفهم الله في غير موضع بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٤].

ثالثًا: بيانُ العاقبة.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى مواقف المنافقين مع نبيِّه ﷺ في أوقات المِحنة والشِدَّة كالتَّخلي عن نصرته، والتماس الأعذار الكاذبة لحمايته، وسوء الأدب في حضرته وغير ذلك، أتبَعَ ذلك ــ سبحانه ــ بأنواعٍ من الوعيد والتَّهديد كتعذيبهم إن لم يتوبوا وينتهوا عمَّا هم فيه، والإغراء بهم، وعدم مجاورة النَّبي ﷺ في المدينة، ولعنهم وتقتيلهم تقتيلاً.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

"وهم النَّاقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه، وعذابه؛ ولكن هم تحت مشيئته في الدُّنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يَلقَوْهُ فيُعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النُّزوع عن النِّفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولمَّا كانت رحمته، ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال:﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾،"[٦].

---

[١] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٥.

[٢] سورة الأحزاب: ١٩.

[٣] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٧٤.

[٤] سورة التوبة: ٥٤.

[٥] سورة الأحزاب: ٢٤.

[٦] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧٧.

وجدَّد الوعيد، والتَّهديد لهم مرَّة أخرى، وأجمله في أواخر السُّورة قائلاً سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[١].

وسبب مجيء الآية في سياق وعيد المؤذين لله ورسوله، والمؤمنين مع بيان تفصيلي في الآية لأوصاف ثلاث وهم: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة هو ما ذكره الفخر الرازي حيث قال: "لمَّا ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله، والمُجاهر الذي يؤذي المؤمنين، ذكر حال المُسِرِّ الذي يُظهر الحق ويُضمر الباطل وهو المنافق، ولمَّا كان المذكور من قبل أقوام ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة وهم: المؤذون الله، والمؤذون الرَّسول، والمؤذون المؤمنين، ذكر من المُسرِّين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة أحدها: المنافق الذي يؤذي الله سرًّا، والثاني: الذي في قلبه مرض وهو الذي يُؤذي المؤمن باتّباع نسائه، والثالث: المُرجف الذي يؤذي النَّبي ــ عليه السَّلام ــ بالإرجاف بقوله غُلِب محمد، وسيُخرج من المدينة، وسيُؤخذ وهؤلاء وإن كانوا قوماً واحداً إلا أنّ لهم ثلاث اعتبارات"[٢].

فالمنافقون قوم مُشِيعُون ومروِّجون لأخبارٍ لا واقع لها، فيُحْدِثون بذلك الاضطراب والتَّزلزل في المجتمع، وكذلك هم مُّرجفون بتلقّي الأخبار، والتَّحديث بها في مجالس ونوادٍ، ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل، ومعنى ذلك أنَّهم يرجفون بما يؤذي النَّبي ﷺ وأصحابه، ويتحدَّثون عن سرايا المؤمنين فيقولون: هُزِمُوا، أو أسرع فيهم القتل، أو نحو ذلك لإيقاع الشَّكِّ في نفوسهم، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ ﴾[٣]، [٤].

---

[١] سورة الأحزاب: ٦٠ ــ ٦٢.

[٢]: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٩٩.

[٣] سورة النساء: ٨٣.

[٤] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٣٢٩.

وتوعَّد الله تعالى هذه الأصناف من المنافقين، والذين في قلوبهم مَّرض، والمرجفين في المدينة إن لَّم ينتهوا عمَّا هم مقيمون فيه بحَضِّ نبيِّه، وتسليطه عليهم ليقتلهم، وذلك بعد تعيينهم له[١].

ومن جملة توعُّده سبحانه لهم أن ينفيَهم، ثمَّ لا يتلبَّثُ نفيُهم هذا من المدينة إلا زمانًا قليلًا، أو جوارًا قليلاً ريثما يتبيَّن حالهم من الانتهاء وعدمه؛ لأنَّ الجلاء ومفارقة جوار الرَّسول ﷺ أعظم ما يصيبهم[٢].

وهم مع نفاقهم في حال مُدَّة إقامتهم في المدينة فترةً زمنيةً قليلةً مَطرُودون من رحمة اللّه مَنبُوذون، وأينما لُقوا من الأرض أخِذوا، وقتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً، وهذا فيه معنى الأمر بقتلهم، وأخذهم إذا كانوا مقيمين على النفاق[٣].

ثمَّ أوضح اللّه تعالى أنَّ هذا الجزاء عامٌّ في جميع المنافقين الغابرين، واللاَّحقين فقال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، أي: "إنَّ هذا الحكم- وهو لعن المنافقين، ونفيهم، وأخذهم، وتقتيلهم، وتسليط المؤمنين عليهم، وقهرهم- هو سنَّة اللّه وطريقته في المنافقين في كلِّ زمان مضى؛ إذا بقوا على نفاقهم، وكفرهم، ولم يرجعوا عمَّا هم عليه، وسنَّة اللّه في ذلك لا تُبدل ولا تُغيَّر، لِقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمَّة، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء على مَمَرِّ التاريخ"[٤].

والسُّؤال الذي يُوقِفُ المتدبِّر في آيات الله سبحانه الآمرة بقتل المنافقين، واستئصالهم في الكثير من الآيات القرآنية مثل الآية التي مرَّت معنًا في أواخر الأحزاب، وفي قوله تعالى في سورتي التوبة والتحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٥]، والتَّصريح بكفرهم في ثلاث مواضع من سورة التَّوبة في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ

---

[١] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج٤، ص ص: ٣٩٩- ٤٠٠. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٠. وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٥.

[٢] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٥.

[٣] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج٢٢، ص٤٨. وانظر: القرطبي: جامع الأحكام، مصدر سابق، ج٤، ص: ٢٤٧.

[٤] الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢٢، ص١١٣.

[٥] سورة التوبة: ٧٣، سورة التحريم: ٩.

كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾[١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢]، ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[٣]، ولم يَرِد عن النَّبي ﷺ في كُتبِ الصِّحاح، أو السُّنن أنَّه نفَّذ حكم القتل فيهم ولعلَّ السَّبب راجع إلى:

١ـ كون المنافق مُبطِن للكفر ظاهر للإيمان، وفي قِتالهم شبهة.

٢ـ عدُم عِلمه ﷺ بهؤلاء المنافقين إلا من أطلعه الله على قلّة منهم [٤]، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[٥]، وقوله أيضًا: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٦].

٣ـ خوفه ﷺ مِن أن تَدُبَّ الفتنة، والقتل في صفوفه ومثاله ما رواه الشيخان عن جَابِر بن عبد اللَّهِ رضي الله عنهما قال: كنا في غَزَاةٍ قال سُفْيَانُ مَرَّةً في جَيْشٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، فقال الْأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقال الْمُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذاك رسول اللَّهِ ﷺ فقال: ما بَالُ دَعْوَى جاهلية. قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ: كَسَعَ رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، فقال: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ فقال: فَعَلُوهَا أَمَا والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[٧]، فبَلَغَ النبي ﷺ فقَامَ عُمَرُ فقال

---

[١] سورة التوبة: ٥٤.

[٢] سورة التوبة: ٨٠.

[٣] سورة التوبة: ٨٤.

[٤] رد بعض العلماء من أن النبي ﷺ لا يعلم من أعيان المنافقين شيئا بمقتضى هذه الآيتان فرد بذلك حديث حافظ سر الرسول ﷺ وهو حذيفة بن اليمان، والحقيقة غير ذلك، فقد كان ﷺ يعلم النفاق من بعضهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً﴾[التوبة:٨٤]. وهذا دليل على معرفته ﷺ الآحاد من المنافقين ممن أطلعه الله عليهم.

[٥] سورة التوبة: ١٠١.

[٦] سورة الأنفال: ٦٠.

[٧] سورة المنافقون: ٨.

يا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المُنَافِقِ، فقال النبي ﷺ: دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاس أَنَّ مُحَمَّـدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[١].

يقول النَّووي في شرح قوله ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ الناس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ [٢]» ما نصُّه: "فيه ما كان عليه ﷺ من الحِلم، وفيه ترك بعض الأمور المختارة، والصَّبر على بعض المفاسد خوفًا من أن تترتَّب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألَّف النَّاس، ويصبر على جفاء الأعراب، والمنافقين، وغيرهم لِتقوى شوكة المسلمين، وتَتِمُّ دعوة الإسلام، ويتمكَّن الإيمان من قلوب المؤلفة، ويرغب غيرهم في الإسلام، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى، ولإظهارهم الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظَّاهر، والله يتولَّى السَّرائر، ولأنَّهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ، ويجاهدون معه إمَّا حميَّة، وإمَّا لطلب دنيا، أو عصبيَّة لمن معه من عشائرهم"[٣].

نخلص من هذا أنَّ المواقف المُخزية تجاه النَّبي ﷺ تتجدَّد في كل عصر مِن قوم لمَّا يدخُلِ الإيمان بعدُ في قلوبهم، فليحذروا بأعمالهم هذه المسيئة أنَّها لن تبشرهم بخير، وسيحيق بهم مَّا حاق بأسلافهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٤]، وقال مبيِّنًا وعيد هذا الاستهزاء بالله، وآياته، ورسوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[٥].

لذا فإنَّ الاستهزاء، والسُّخرية بالنَّبي ﷺ بأيِّ شكل من الأشكال أمرٌ محرَّم في شرع الله، ولا يُسَوَّغ بحقٍّ، وصاحبه معرّض لنفسه للهلاك في الدُّنيا قبل الآخرة.

---

[١] متفق عليه.واللفظ للبخاري. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله: سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم...، ج٤، ص١٨٦١، حديث رقم: ٤٦٢٢].

[٢] عبر النبي ﷺ من أن المنافقين هم أصحابه رغم تصريح القرآن بكفرهم، وخداعهم، وخيانتهم، وقد فسَّرها ابن حجر بقوله: أي أتباعه، ويقصد ــ رحمه الله ــ ربَّما أنهم ليسوا بأتباعه لعدم تصديقهم به، وعدم اتباع النور الذي أنزل معه، وإنما عبر النبي ﷺ بقوله أصحابه إذ المقصود بها المعنى اللغوي من الصحبة، والمرافقة والمزامنة، وقد جاء في هذا الحديث ما يدل على صحبتهم له عليه السلام في سفره في غزوة بني المصطلق.

[٣] النووي، شرح النووي، مصدر سابق، ج١٦، ص ص: ١٣٨ ــ ١٣٩.

[٤] سورة التوبة: ٦٥.

[٥] سورة التوبة: ٦٨.

المطلب الرابع: مقارنة بين طاعة النَّبي ﷺ، وعصيانه من حيث الجزاء في ضوء السُّورة.

بيَّنت سورة الأحزاب كما مرَّ نوعين من النَّاس، نوع يتعامل مع النَّبي ﷺ إيجابًا فهو يمتثل لأمره، ويطيعه، ويتأسَّى به، كما قدَّمت لنا أنموذجًا لهذا النَّوع، ونوع آخر قابَلَ الطَّاعة بالعصيان، والولاء والتَّأسِّي بالإيذاء، كما قدَّمت لنا صورةً واضحةً عن هؤلاء مبيِّنة لعاقبتهم، ومآلهم الوخيم.

ولم تكتف سورة الأحزاب بالتَّوقف عند هذا الحدِّ؛ بل زادت بيانًا لجزاء المطيعين والعاصين للنَّبي ﷺ.

ويتمثَّل هذا الجزاء بالمقارنة بين من آمن به، وبين من كفر به أو آذاه، إذ رتَّب الله جزاء الإيمان بالنَّبي ﷺ أن يُؤتيَه الله أجره مرَّتين، وأمَّا من كفر به ﷺ أو ألحق به الأذى أن يُضاعف له العذاب مرَّتين.

أوَّلاً: إيتاء الأجر مرَّتين جزاءً لمن آمن بالنَّبي ﷺ وصدَّقه:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**﴾[١].

يقول الشنقيطي: "ذكر اللَّه ــ جلَّ وعلا ــ في هذه الآية الكريمة أنَّ من قنت من نِّساء نبيِّه ﷺ للَّه ولرسوله، وعمل عملاً صالحًا أن اللَّه ــ جلَّ وعلا ــ يؤتها أجرها مرّتين، والقُنوت الطَّاعة، وما وعد اللَّه به ــ جلَّ وعلا ــ من أطاع منهنَّ بإيتائها أجرها مرَّتين في هذه الآية الكريمة جاء الوَعْد بنظيره لغيرهنَّ في غير هذا الموضع؛ فمن ذلك وَعْدُه لمن آمن من أهل الكتاب بنبيِّه، ثم آمن بمحمّد ﷺ بإيتائه أجره مرَّتين وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾[٢]"[٣].

لعلَّ قائلاً يقول: هذا خاصٌّ بأهل الكتاب؛ لأنَّهم آمنوا بأنبيائهم، وبالكتب التي أنزلت عليهم، وآمنوا أيضًا بالنَّبي محمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، فاستحقوا بذلك أن ينالوا الأجر

---

[١] سورة الأحزاب: ٣١.

[٢] سورة القصص: ٥١ ــ ٥٤.

[٣] الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٥.

مرَّتين وهذا ما يؤكّده الحديث الصَّحيح أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» ومن بين هؤلاء: «رَجُلٌ من أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِي ﷺ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ، وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ»[١]، لكن نقول لهم: جاء ما يُعمِّم هذا الثَّواب أيضًا لأمَّته ﷺ لمن آمن به؛ فجعل الله ثواب هذا الإيمان بالنَّبي ﷺ زيادة على إيتائه منه تعالى أجره مرتين؛ أن يجعل له نورًا يمشي به ويغفر له قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٢].

يقول الشنقيطي: "واعلم أنَّ ظاهر هذه الآية الكريمة من سورة الحديد الذي لا ينبغي العدول عنه أنَّ الخطاب بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾، عامٌّ لجميع هذه الأمَّة كما ترى، وليس في خصوص مُؤمِني أهل الكتاب كما في آية القصص"[٣].

ثانيًا: مضاعفة العذاب ضعفين لمن كفر بالنَّبي ﷺ، أو ألحق به الأذى.

أ ـ مضاعفة العذاب لمن كفر بالنَّبي ﷺ: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾[٤].

فالآية افتُتِحت باللَّعن من قبل الله، واختُتِمت بطلب اللَّعن الكبير لهم، وتخلَّلها ذكر العذاب السَّعير المقيم الذي لا يجدون منه وليًّا ولا نصيرًا مع تصويرهم بأبشع الصُّور، وهي حالُ تقلّب وجوهِهم وهي تُسعَّر فيها النَّار، وهم يتمنَّون في أثناء ذلك في حين لا ينفع التَّمنِّي، والاعتذار

---

[١] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ج١، ص١٣٤، حديث رقم:١٥٤.

[٢] سورة الحديد: ٢٨.

[٣] الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٦.

[٤] سورة الأحزاب: ٦٤ ــ ٦٨.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[١]، أن لَّوْ كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسولا، فآمنوا بالله وحده لا شريك له، وآمنوا برسوله ﷺ.

وجاءت ألف الإطلاق في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ لا مراعاة للفاصلة؛ بل دلالة على بعدهم عن منْهجِه ﷺ بعدًا كبيرًا، واتّباعهم سبيلاً غير سبيله ﷺ، وكأنَّ الرَّسول في مسلكٍ، وهم في مسلكٍ آخر، والإطلاق جاء أيضًا ليُناسب مدى تحسُّرهم، وتفريطِهم في عدم اتّباعه، كما جاء الإطلاق في السَّبيلا لبُعدهم عن سبيل الحقِّ أيّما إبعاد حين أطاعوا سادتهم وكبرائهم، فلذلك هم ضلُّوا وأضلُّوا.

ب ــ مضاعفة العذاب لمن ألحق الأذى بالنَّبي ﷺ:

أوجب الله على نساء النَّبي ﷺ إذا اقترفن فاحشةً أن يُضاعف لهنَّ العذاب ضِعفين نظرًا لإلحاق الأذى والعار بسُمعة النَّبي ﷺ، وكان مضاعفة العذاب لهنَّ يسيرًا على الله صِيانةً لمنزلة النَّبي ﷺ الرَّفيعة، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢]، فهذا النَّوع من التَّهديد بالعذاب، ومضاعفته كَفَاء نِعم الله تعالى على نساء النَّبي ﷺ، وفضله عليهن، فقد ارتبطت حياتُهنَّ ــ رضوان الله تعالى عليهنَّ ــ بحياته ﷺ، فكنَّ أمَّهات للمؤمنين، منازلهنَّ مَهبط الوحي، وفيها تتلى آيات الله تعالى والحكمة، إنَّ هذه النِّعم عليهنَّ تبعث على شكرها لا على كفرها، وإنَّ كونَهُن أزواجه ﷺ لا يعني أنَّهُن بمنأى ومنجى من عذاب الله تعالى [٣].

ويضيف الرَّازي قائلاً: "لمَّا خيَّرهن النَّبي ﷺ، واخترن الله ورسوله أدَّبهن الله، وهدَّدهن للتَّوقي عمَّا يسُوء النَّبي ــ عليه السَّلام ــ، ويقبح بهنَّ من الفاحشة التي هي أصعب على الزَّوج من كلِّ ما تأتي به زوجته، وأوعدهُنَّ بتضعيف العذاب وفيه حكمتان إحداهما: أنَّ زوجة الغير تعذَّب على الزِّنا بسبب ما في الزِّنا من المفاسد، وزوجة النَّبي تُعذب إن أتت به لذلك، ولإيذاء قلبه، والإزراء بمنصبه، وعلى هذا بنات النَّبي ــ عليه السَّلام ــ كذلك؛ ولأنَّ امرأةً لو كانت

---

[١] سورة غافر: ٥٢.

[٢] سورة الأحزاب: ٣٠.

[٣] انظر: حسن محمد باجوده، تأملات في سورة الأحزاب، د.ط، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مطابع الصفا، ١٤٠٣هـ، ص ص:٢٧٩ ــ ٢٨٠.

تحت النَّبي ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النَّبي ــ عليه السَّلام ــ، ويكون ذلك الغيــر خيراً عندها من النَّبي وأولى، والنَّبي أولى من النَّفس التي هي أولى من الغير، فقد نزّلت منْصب النَّبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين"[١].

نخلص من هذا أنَّ من أطاع النَّبي ﷺ استحقَّ أجر تلك الطاعة مرَّتين، وأنَّ مــن آذاه، أو عصاه استحقَّ أن يضاعف له من العذاب ضِعفين، ولو كان من أقرب النَّــاس إليــه: ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا**﴾[٢].

وفي نهاية هذا الفصل يمكن القول إنَّ الإساءة تأتي أحيانًا ممَّن يدَّعي أنَّه من أتباع هــذا النَّبي ﷺ؛ فهؤلاء لا بدَّ عليهم أن يأخذوا بما يجب عليهم تجاه النَّبــي ﷺ مــن حقــوق كواجــب الاتباع، والطَّاعة، والتَّخلق بأخلاقه، وغير ذلك، وأن يذروا ما يحرُم عليهم من عصيانه، حتَّــى يُعطوا الصُّورة الحسنة لمفهوم الإسلام، ومفهوم اتباع النَّبي ﷺ؛ لأنَّ الكثيــرين مــنهم يتــسبَّبُون بأعمالهم الإساءة لشخصه ﷺ بطريقة غير مباشرة، فالواجب عليهم الاتِّباع لا الابتداع، والعمــل الدَّؤوب وفق كتاب الله على منهاج النَّبي ﷺ؛ إذ لا مجال في شرعنا لأجل نــصرة نبيِّنــا ﷺ أن تُحمل الشّعارات الجوفاء، وتُحرق أعلامُ دولٍ من أساء من شعبها إلى نبيِّنا ﷺ، والخــروج فــي المظاهرات، والمسيرات ضدَّ من أساء إلى النَّبي ﷺ؛ لأنَّ مثل هذه الأعمال المُشاغبة لا تزيد إلاَّ إساءةً للنَّبي ﷺ، وهذا من باب قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ**﴾[٣]، وقوله ﷺ: «إنَّ من أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ يا رَسُولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قال: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أمه فيسب أُمَّهُ»[٤]؛ إذن فلا بــدَّ أن نقابل هؤلاء بتقديم الصُّورة الحسنة للإسلام وللقائد الذي نتــَّبعه ﷺ.

---

[١] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٧٩. ذكر الرازي عند قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ التي جاءت في مقابلة قوله تعالى ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ لطيفة وهي: "أنَّ عند إيتاء الأجر ذكر المــؤتي وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يُضَاعِفُ إشارة إلى كمال الرَّحمة والكرم كما أنَّ الكريم الحي عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضُّرِّ لا يذكر نفسه". [المصدر ذاته، ج٢٥، ص ص:١٧٩ــ١٨٠].

[٢] سورة النساء: ١٢٣.

[٣] سورة الأنعام: ١٠٨.

[٤] متفق عليه. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الأدب، بــاب لا يــسب الرجــل والديــه، ج٥، ص٢٢٢٨، حديث رقم ٥٦٢٨].

الفصل الثالث

الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ، وأخلاقه، وبشريَّته، وبيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة في ضوء سورة الأحزاب.

ويشمل المباحث التالية:

المبحث الأول: الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ في ضوء السُّورة.

المبحث الثاني: أخلاق النَّبي ﷺ، وبشريَّته في ضوء السُّورة.

المبحث الثالث: بيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة في ضوء السُّورة.

الفصل الثالث: الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ، وأخلاقه وبشريَّته، وبيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة في ضوء سورة الأحزاب

بقي أن نُجمل في هذا الفصل الأخير من هذه الدراسة باقي الموضوعات المتعلقة بالنَّبي ﷺ لنأتي عليها من كل جوانبها وفق ما تحدثت عنها سورة الأحزاب.

فسورة الأحزاب تناولت جانبًا من خصائص النَّبي ﷺ التي خصَّه الله تعالى بها بحيث لم يشاركه فيها نبي، أو شاركه فيها أنبياء قبله لكن لم تشاركه فيها أمّته.

وفائدة معرفة هذه الخصائص تشعرنَا بمدى أفضليَّة النَّبي ﷺ ومنزلته، وبمدى العناية الربَّانية له بالتَّوسعة عليه في بعض الأمور.

كما أشارت السُّورة إلى جانب من أخلاق النَّبي ﷺ لما بيَّنت لنا أنَّه الأسوة الحسنة، وهذا لنقتدي به، ونتخلَّق بأخلاقه، والذي كان على خلقٍ عظيم.

هذا ومن خلال كلِّ ما رأيناه في بحثنَا من بيان مكانة النَّبي ﷺ في السُّورة، ومع ذلك فإنَّ السُّورة لم تغفل بيان بشريَّة النَّبي ﷺ، وأنَّه يطرأ عليه ما يطرأ على البشر.

كما تطرَّقت حسب ما هو مذكور في آيات السُّورة إلى الوقوف على بيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة سواء أكانت صلة رحم، أو قرب، أو صُحبة، أو مكان، ليتم بذلك تتبُّع واستقصاء جميع ما يتعلَّق بالنَّبي ﷺ من أمور في ضوء سورة الأحزاب.

المبحث الأول: الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ في ضوء السُّورة.

تعريف الخصائص:

لغة: تقول: خَصّه بالشيء يَخُصّه خَصَّاً وخُصوصاً وخَصُوصِيَّةً، أي: أفْرَدَه به دون غيره، ويقال: اخْتَصَّ فلانٌ بالأمر وتخصّص له إذا انفرد[١].

وقال صاحب القاموس المحيط: "خصّه بالشيء خصًّا وخصوصًا وخصوصيّة: فضَّله"[٢].

أمَّا اصطلاحًا: فيتبيَّن لنا من خلال المعنى اللُّغوي: أنَّ مفهوم خصائص النَّبي ﷺ هي: تلك الأمور التي انفرد بها، وفُضِّل بها إمَّا على إخوانه من الأنبياء، وإمَّا على سائر البشر [٣].

---

[١] انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج٧، ص٢٤. مادة: خ ص ص.

[٢] محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، أبو طاهر (ت: ١٣٢٩هـ)، القاموس المحيط، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج٢، ص٣١٢.

[٣] انظر: الصادق بن محمد بن إبراهيم، خصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء، ج١، ص١١.

وقد وردت آياتٌ في سورة الأحزاب دالّة على خصوصيَّة النَّبي ﷺ مصرِّحة بذلك على علوِّ منزلته وقدره، فمن هذه الآيات آياتٌ نصَّت على خصائص اختصَّ بها رسول اللّه ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصَّلاة والسَّلام ــ كختم الأنبياء والمرسلين به ﷺ، وندائه بنداء النُّبوَّة والرِّسالة في القرآن دون سائر الأنبياء، وهذا قد مرَّ معنا في الفصل الأول في كِلا المبحثين الأول والثاني.

وسنكمل البحث بالخصائص والأحكام التي اختُصّ بها ﷺ دون أمَّته.

المطلب الأول: الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ في حياته.

امتنَّ الله على نبيِّه محمد ﷺ بجملة من الأحكام خصَّها به سبحانه توسعةً عليه ورفعًا لقدره وإعلاءً لدرجته، فناداه سبحانه بنداء النُّبوَّة قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴾[١].

يتبيَّن من مفهوم الآيتين أنَّ للنَّبي ﷺ خصائص اختص بها دون أمَّته وهي:

١ ــ أنَّ الله ﷻ أحلَّ لنبيِّه ﷺ الزَّواج والجمع بين أكثر من أربع نسوة، يقول الشنقيطي: "ثبتت خصوصيَّته ﷺ مثل جواز جمعه بين أكثر من أربع نسوة بالنِّكاح لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾، وكن أكثر من أربع"[٢].

---

[١] سورة الأحزاب: ٥٠ ــ ٥١.

[٢] الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٨، ص٣٩.

٢ ــ اختُصَّ النَّبي ﷺ بعدم زواجه بالكتابيَّات، وذلك مستنبط من قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، بخلاف أمَّته فإن الزَّواج بالكتابيات أمرٌ حلال لها بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

يقول ابن العربي: "وهذا تقييد من طريق التَّخصيص بالتَّعليل والتَّشريف لا من طريق دليل الخطاب، وفي هذا الكتاب في أمثال هذا الكلام أنَّ الكافرة لا تحل له، والصَّحيح عندي تحريمها عليه وبهذا يتميَّز علينا فإنَّه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظُّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر، فجوَّز لنا نكاح الحرائر من الكتابيات، وقصر هو لجلالته على المؤمنات، وإذا كان لا يحلُّ له من لم يهاجر لنقصان فضل الهجرة، فأحرى ألاَّ تحلَّ له الكتابية الحرَّة لنقصان الكفر"[2].

٣ ــ أما الحكم الثالث الخاصُّ بالنَّبي ﷺ فهو جواز زواجه بالمرأة المؤمنة التي تهب نفسها له، وهذا مستفاد من فقه قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، فالنَّبي ﷺ يحلُّ له التَّزوج بالمرأة المؤمنة التي تهب نفسها له بشرطين: الأول: أن تهب هي نفسها له، أمَّا الثاني: فبشرط إرادة ورغبة النَّبي ﷺ في استنكاحها، وهذا النَّوع من الزَّواج بلفظ الهبة من خصوصياته ﷺ دون سائر المؤمنين، فله الزَّواج بها من غير مهرٍ ولا وليٍّ ولا شهود [3].

---

[1] سورة المائدة: ٥.

[2] ابن العربي، أحكام القرآن، مصدر سابق، ج٣، ص٥٩٥.

[3] انظر: القرطبي، جامع الأحكام، مصدر سابق، ج١٤، ص٢١٠. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠١.

وفي الآية إشاراتٌ واضحةٌ إلى أنَّ إباحة الموهوبة حكم خاصٌ بالنَّبي ﷺ، وأمَّا المؤمنون فلا يحلُّ لهم أن يتزوَّجوا امرأة بمجرَّد هبتها نفسها لهم؛ لأنَّ الله قد أعلمهم بما يحلُّ لهم وبما لا يحل من الزَّوجات وملك اليمين، فما في هذه الآية ممَّا يخالف ذلك فإنَّه خاصٌ لكون الله جعله خطابًا للرَّسول وحده بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ أي: وأبحنا لك يا أيُّها النَّبي ما لم نبح لهم ووسعنا عليك ما لم نوسِّع على غيرك [(١)].

وذكر أبو حيان لفتةً بلاغيةً تقال في مثل هذا الموضع قائلاً: "عدل عن الخطاب إلى الغيبة في النَّبي ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ ثمَّ رجع إلى الخطاب في قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ ﴾ للإيذان بأنَّه ممَّا خُصَّ به وأوثر ومجيئه على لفظ النَّبي للدلالة على أنَّ الاختصاص تكرمة له لأجل النُّبوَّة وتكريره تفخيمٌ له وتقريرٌ لاستحقاقه الكرامة لنبوَّته"[(٢)].

وجاء ختام الآية بقوله تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ وهذا تعليلٌ لما شرعه الله تعالى من خصوصيَّة لنبيِّه ﷺ في مجال أنكِحته.

٤ ــ ومن خصوصيَّاته ﷺ حين أباح الله له التَّزوج بصنوف عديدة من النِّساء من الممهورات، والمملوكات، والأقارب المنصوص عليهنَّ، والواهبات أنفسهنَّ من غير مهر، واجتمعن في عصمته تسع نسوة، خُصَّ أيضًا ﷺ بنفي الجناح عنه في عدم قسمته والعدل بين نسائه، فقال تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴾.

يقول القرطبي في الجامع: "اختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصحُّ ما قيل فيها، التَّوسعة على النَّبي ﷺ في ترك القَسْم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته، وهذا القول هو الذي يناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصَّحيح عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ

---

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ج١، ص٦٦٩.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٣.

قالت: كنت أغَارُ على اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟ فلما أنْــزَلَ الله تَعَالَى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ قلت: ما أُرَى رَبَّكَ إلا يُسَارِعُ في هَوَاكَ [١]،" [٢].

وزاد ابن العربي قائلا: "والمعنى المراد هو أنَّ النَّبي كان مخيَّراً في أزواجه إن شــاء أن يقسم قسَّم، وإن شاء أن يترك القسم ترك؛ لكنَّه كان يقسِم من قبل نفسه دون فرض ذلــك عليــه، فأمَّا وجوب الْقَسْمِ فإنَّ النكاح يقتضيه، ويلزم الزَّوج، فخصَّ النَّبي ﷺ في ذلك بأن جعل الأمر فيه إليه.

فإن قيل: فكيف يقال: إنَّ الْقَسْمِ غير واجب على النَّبي ﷺ وهو ــ عليه الــسَّلام ــ كــان يعدل بين أزواجه في الْقَسْمِ ويقول: "هَذِهِ قُدْرَتِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِــكُ يَعْنِــي قَلْبَهُ"[٣]، لإيثار عائشة دون أن يظهر ذلك في شيء من فعله.

قلنا: ذلك من خلال النَّبي ﷺ وفضله فإنَّ الله ﷻ أعطاه سقوطه، وكان هــو ﷺ يلتزمــه تَطَيُّبًا لنفوسهنَّ، وصوناً لهنَّ عن أقوال الغِيرة التي ربَّما تَرَقَّتْ إلى ما لا ينبغي"[٤].

إذن فالنَّبي ﷺ رغم ما وضع الله عنه من ترك القسمة والعدل بين أزواجــه، إلاَّ أنَّــه ﷺ كان يأخذ بمبدأ العدل والقسْم بين أزواجه، وقد سلك ﷺ في الأخذ بهذه التَّوسعات التي رفــع الله بها قدره مسلك الكمال من عباده وهو أكملهم فلم ينتفع لنفسه بشيء منها فكان عبدًا شكورًا كمــا قال في حديث استغفاره ربه في اليوم استغفارا كثيرًا: «أفلا أكون عبد شكورا»[٥]، [٦].

فالخصائص التي خصَّ الله بها نبيَّه محمدًا ﷺ في حياته من خلال سورة الأحزاب هــنَّ أربع: أحل الله له التَّزوج فوق الأربع، وحظر عليه التَّزوج بالكتابيات، وأحلَّ له التزوج بــالمرأة

---

[١] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ترجي من تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ من تَشَاءُ...، ج٤، ص١٧٩٧، حديث رقم٤٥١٠.

[٢] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص٢١٤.

[٣] لفظ الحديث كما هو مشهور في مظانه هو: عن عَائِشَةَ قالت كان رسول اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ اللهم هذا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ يَعْنِي الْقَلْبَ. [أبو داود، سنن أبــي داود، مــصدر ســابق، ج٢، ص٢٠٨، حديث رقم ٢١٣٦، قال الألباني: ضعيف].

[٤] ابن العربي، أحكام القرآن، مصدر سابق، ج٣، ص٦٠٥.

[٥] متفق عليه. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الكسوف، باب قيــام النبــي ﷺ، ج١، ص٣٨٠، حديث رقم: ١٠٨٧].

[٦] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٩٦.

المؤمنة الواهبة نفسها له من غير مهر ولا وليٍّ ولا شهود، وكذلك رفع عنه الحرج في عدم القسْم بين أزواجه، وهذه الخصائص تعدُّ من قبيل التَّوسعة على النَّبي ﷺ ورفع منزلته.

المطلب الثاني: الأحكام الخاصَّة بالنَّبي ﷺ في حياته وبعد مماته.

وممَّا خصَّ به النَّبي ﷺ في حياته وبعد مماته دون أمَّته أمران يتعلَّقان بأزواجه ﷺ:

١ ــ أزواجه ﷺ أمَّهات المؤمنين.

جعل الله أزواج نبيِّه محمدًا ﷺ أمَّهات للمؤمنين، وفضَّلهن على سائر نساء أمَّته [١]، وفي هذا تشريفٌ لزوجاته ــ رضوان الله عليهنَّ ــ، وإكرامًا وإجلالًا لقدر زوجهنَّ ﷺ، فقال ﷻ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[٢].

يقول القرطبي: "شرَّف الله تعالى أزواج نبيِّه ﷺ بأن جعلهن أمَّهات المؤمنين، أي في وجوب التَّعظيم والمبرَّة والإجلال، وحرمة النِّكاح على الرِّجال، وحجبهن ــ رضي الله تعالى عنهن ــ بخلاف الأمَّهات، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثًا كأمومة التَّبنِّي، وجاز تزويج بناتهن ولا يجعلن أخوات للنَّاس [٣]، واختلف النَّاس هل هنَّ أمَّهات الرِّجال والنِّساء أم أمَّهات الرِّجال خاصَّة على قولين؟ والذي يظهر لي أنَّهنَّ أمَّهات الرِّجال والنِّساء تعظيمًا لحقِّهنَّ على الرِّجال والنِّساء يدلُّ عليه صدر الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرِّجال والنِّساء ضرورةً فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ عائدًا إلى الجميع"[٤].

---

[١] قلت: فضلن على سائر نساء أمته؛ لأن مريم بنت عمران هي المفضلة على سائر نساء العالمين بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢].

[٢] سورة الأحزاب: ٦.

[٣] نفى القرطبي أن تكون بنات أمهات المؤمنين أخوات للمؤمنين؛ لأن هذا ما ذهب إليه بعض العلماء، قال ابن كثير: «وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعي ــ رضي الله عنه ــ في المختصر» [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٦٩].

[٤] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١٢٣.

وتخصيص أزواج النَّبي ﷺ بأنَّهنَّ أمَّهات للمؤمنين دون غيره من أزواجهم، هو حكم الله وقضاؤه الأزليِّ المكتوب في اللَّوح المحفوظ، دلَّت بذلك فاصلة الآية لقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[١].

٢ ــ أزواجه ﷺ لا ينكحن من بعده أبدًا.

أباح الله نكاح أزواج المؤمنين بعد مماتهم إذا انقضت عدَّتهن، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢]، بينما خُصَّ النَّبي ﷺ عن غيره بتحريم نكاح أزواجه من بعده أبدًا، وعدَّ الله إنكاحهن من بعد وفاته ﷺ من إيذائه، الذي عدَّه الله جرمًا وأمرًا عظيمًا عنده، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[٣].

أي: وما كان لكم أيُّها المؤمنون نكاح أزواج النَّبي ﷺ بعد وفاته لأنَّهنَّ أمَّهات المؤمنين، ولا يحلُّ للأولاد نكاح الأمَّهات والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى نكاح أزواجه من بعده: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا وخطبًا هائلاً شديدًا[٤].

وسمِّي نكاحهن بعده عظيماً عنده سبحانه، وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حيّاً وميِّتاً [٥]، وإعلامه بذلك مما يطيب به نفسه، ويُسَرُّ قلبه وتقرُّ عينه، فإنَّ نحو هذا ممَّا

---

[١] سورة الأحزاب: ٦.

[٢] سورة البقرة: ٢٣٤.

[٣] سورة الأحزاب: ٥٣.

[٤] انظر: الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج٤، ص٢٩٨.

[٥] لم أستسغ قول من قال من المفسرين أن حرمة التزوج بأزواجه من بعده سببه لأنه زوج لهن في الآخرة، وإن كان هذا صحيحا عندي أنهن أزواجا له في الجنة، ولكن لا يبقى هو السبب في حرمة التزوج بهن؛ لأن السبب هو ما ذكره القرآن وهو تأذي النبي بمن يتزوج بأزواجه من بعده، ولا نزيد على تفسير النص أشياء تحسب على حسابنا ولنقف دائما عند حد النص وهذا للسلامة؛ إذ كيف يعقل إذا تزوجت المرأة بعد وفاة زوجها رجلا أو بعد هذا الأخير رجلا آخر فمن تكون زوجة له في الجنة يا ترى؟

يُحدِّث الرَّجل به نفسه ولا يُخْلي منه فكره، ومن النَّاس من تفرض غيرته على حرمته حتى يتمنَّى لها الموت لئلا تنكح من بعده [١].

نخلص ممَّا خصَّ به النَّبي ﷺ في حياته وبعد مماته أنَّه: جعل الله أزواجه أمَّهات للمؤمنين، وحرَّم على المؤمنين نكاح أزواجه ﷺ بعد مماته، وهاتان الخاصِّيتان تعدَّان من قبيل الرَّفع من شأنه حيًّا وميِّتًا، وإضافة إلى الخصائص السَّابقة التي ذكرت فإنَّها تعدُّ جميعًا من فضل الله العظيم على نبيِّه: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٢].

المبحث الثاني: أخلاق النَّبي ﷺ، وبشريَّته في ضوء السُّورة.

المطلب الأول: أخلاق النَّبي ﷺ.

زكَّى الله تعالى نبيَّه ﷺ في كتابه الخالد، ونوَّه بشأنه ورفع من قدره، وشهد له سبحانه بالخُلُق العظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، فحاز ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ على مكارم الأخلاق ومعاليها، وترقَّع عن سفاسف الأخلاق ورذائلها، وبالجملة فكلُّ خلق محمود يليق بالإنسان فله ﷺ منه القسط الأكبر، والحظُّ الأوفر، وكلُّ وصفٍ مذموم فهو أسلم النَّاس منه، وأبعدهم عنه، ولهذا لما سئلت عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن خلقه ﷺ فأجابت بقولها: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآن»[٤].

وسورة الأحزاب من السُّور التي أشارت إلى بعض خلقه ﷺ لكن بإشارات خفيَّة غير ظاهرة، مع التَّصريح والإقرار بأنَّه المثل والأسوة الحسنة، فيجب أن يقتدى بالنَّبي ﷺ في أفعاله وأقواله وأخلاقه كما مرَّ معنا.

والأخلاق التي تستنبط من هذه السُّورة هي:

١ــ رأفته ﷺ: كان من خلق النَّبي ﷺ الرَّأفة والرِّفق في كلِّ شيء، ولذلك وصفه ربُّه بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥]، وتمثَّلت رأفته ﷺ يوم الأحزاب مع المنافقين وكان يأذن لمن استأذنه، ويسعفهم ولا يشقُّ عليهم، وهذا بطبيعة الحال:

---

[١] انظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج٣، ص٥٦٣.

[٢] سورة النساء: ١١٣.

[٣] سورة القلم: ٤.

[٤] ابن حنبل، مسند أحمد، مصدر سابق، حديث عائشة رضي الله عنها، ج٦، ص٩١، حديث رقم ٢٤٦٤٥.

[٥] سورة التوبة: ١٢٨.

أوَّلاً: قبل فضح القرآن لهم عن كذبهم وخداعهم؛ لأنَّ آيات الأحزاب نزلت بعد الواقعة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾ التي معناها اذكر حين، والنَّبي ﷺ لا علم له بنوايَا استئذانهم؛ لأنَّه كان مقصدهم من الاستئذان هو ما أخبرنَا عنه علاَّم الغيوب بقوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1]، [2].

ثانيًا: قبل نهيه ﷺ عن الإذن لهم إن استأذنوه؛ لأنَّ هذا النَّهي تأخَّر حتَّى عقب غزوة تبوك، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[3].

٢ ــ صبره ﷺ ومصابرته ومرابطته: وهذا مستفادٌ أيضًا من إدارته ﷺ لأحداث الأحزاب العصيبة أحسن إدارة، لمَّا جاءتهم الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم، وكانوا في قلق وشدَّةٍ وكرب مع الخوف الذي كان يملأ قلوبهم والبرد الذي كان يضرب بعظامهم، حتَّى زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم حناجرهم، في مثل هذا الموقف المهيب برزت شخصيَّة النَّبي ﷺ التي اتَّسمت بالصَّبر والتَّحمل في سبيل الله، ومصابرة أصحابه ــ رضوان الله عليهم ــ بالنَّصر على

---

[1] سورة الأحزاب: ١٣.

[2] لعل إذنه ﷺ للمنافقين؛ لأنه كان لا يعلم المنافق عن غيره من المؤمنين بدليل هذه الحادثة معه، وبدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن الله هو الذي يعلم من تسلل المنافقين، ولهذا كان يأذن على السواء للمؤمنين، وللمنافقين ــ الذين يُعَدُّون ضمن المؤمنين حكما دنيويا ــ، لعدم تمييز النبي ﷺ بينهم لأنهم مبطنون للكفر مظهرون للإيمان، ولهذا يخبره الله بالإذن للمؤمنين لمن استأذنه، بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢]، يقول القرطبي: [قال قتادة: قوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ منسوخة بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٢١. والله أعلم.

[3] سورة التوبة: ٤٣ ــ ٤٥.

الأحزاب، بل بتبشيرهم بفتح مدائن كسرى وقيصر، ومرابطته على الجهاد، فقال تعـالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[١].

يقول ابن كثير: "أمر تبارك وتعالى النَّاس بالتَّأسِّي بالنَّبي ﷺ يوم الأحزاب فـي صـبره، ومصابرته، ومرابطته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربِّه ﷻ صلوات الله وسلامه عليه دائمًـا إلى يوم الدين"[٢].

ويضيف دروزة قائلاً: "لأنَّ النَّبي ﷺ كان قطب الرَّحى في الموقف، وعمـوده الرَّاسـخ الثَّابت الذي لم يتزلزل، مما ينطوي خاصَّةً في هذه الآية التي دعت المسلمين ليكون لهـم منـه الأسوة الحسنة"[٣].

٣ ــ زهده ﷺ: بعد أن مكَّن الله نبيَّه ﷺ والذين آمنوا معه من الذين ظاهروهم من أهـل الكتاب، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم يطئوهـا، فكانـت كـل هـذه الخيـرات والفتوحات والبركات والتي قابلها النَّبي ﷺ بالزُّهد والتَّقشُّف فكان يريد أن يعـيش مثـل معيـشة المساكين، ويفضِّل عيش الآخرة على متع الحياة الدنيا الزَّائلة، وكان يقول: «اللهم لَا عَـيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة»[٤].

لهذا لمَّا رأت زوجات النَّبي ﷺ ما أفاء الله على رسوله وعلى المؤمنين من سَـعةٍ فـي المال والرِّزق، راجعن النَّبي ﷺ طلبًا في التَّوسعة في نفقتهن، لكنَّ النَّبي ﷺ لم يشأ ذلك لأنَّه نـشأ عائلاً ويتيمًا: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[٥]، وأحبَّ تلك المعيشة من تلقاء نفسه، وخاف أيضًا من سؤال الله له علـى تلـك الـنِّعم: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٦]، ووجد النَّبي ﷺ ضيقًا في نفسه جرَّاء هذا الطَّلب الذي طلبنه، لهذا السَّبب جاء الأمر

---

[١] سورة الأحزاب: ٢١.

[٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧٥.

[٣] دروزة، التفسير الحديث، مصدر سابق، ج٧، ص٣٦٣.

[٤] متفق عليه. واللفظ لمسلم. [مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الجهاد والسير، باب غـزوة الأحـزاب وهي الخندق، ج٣، ص١٤٣١، حديث رقم: ١٨٠٤].

[٥] سورة الضحى: ٦ ــ ٨.

[٦] سورة التكاثر: ٨.

من قبل الله ﷻ بأن يخيِّر النَّبي ﷺ أزواجه؛ لأنَّه كان زاهدًا عن الدُّنيا ومُتَعِها وكان يقتصر على القدر الضروري منها.

يقول سيد قطب: "لقد اختار النَّبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد عاش حتى فتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وعمَّ فيئها، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد! ومع هذا فقد كان الشَّهر يمضي ولا توقد في بيوته نار، مع جوده بالصَّدقات والهبات والهدايَا، ولكن ذلك كان اختيارًا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبةً خالصةً فيما عند اللّه، رغبة الذي يملك ولكنَّه يعفُّ ويستعلي ويختار، ولم يكن رسول اللّه ﷺ مكلَّفًا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته، فلم تكن الطيِّبات محرَّمة في عقيدته وشريعته ولم يحرِّمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوًا بلا تكلُّف، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقًا، لا جريًا وراءها ولا تشهيًّا لها، ولا انغماسًا فيها ولا انشغالاً بها، ولم يكلف أمَّته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلاَّ أن يختارها من يريد، استعلاءً على اللَّذائذ والمتاع، وانطلاقًا من ثقلتها إلى حيث الحرِّية التَّامَّة من رغبات النَّفس وميولها.

ولكنَّ نساء النَّبي ﷺ كنَّ من البشر، لهنَّ مشاعر البشر، وعلى فضلهنَّ وكرامتهنَّ وقربهنَّ من ينابيع النُّبوَّة الكريمة، فإنَّ الرَّغبة الطبيعيَّة في متاع الحياة ظلَّت حيَّة في نفوسهنَّ، فلمَّا أن رأين السَّعة والرَّخاء بعد ما أفاض اللّه على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النَّبي ﷺ في أمر النَّفقة، فلم يستقبل هذه المراجعة بالتَّرحيب، إنَّما استقبلها بالأسى وعدم الرِّضى، ولقد بلغ الأسى برسول اللّه ﷺ من مطالبة نسائه له بالنَّفقة أن احتجب عن أصحابه، وكان احتجابه عنهم أمرًا صعبًا عليهم يهون كل شيء دونه، وجاءوا فلم يؤذن لهم" [1].

ولهذا نزل قوله تعالى في تخييرهنَّ بين متع الحياة الدنيا وزينتها، وبين ابتغاء مرضاة الله ورسوله والدَّار الآخرة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2]، فاخترن الله ورسوله والدَّار الآخرة.

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، ج٥، ص ص: ٢٨٥٣ ــ ٢٨٥٤.

[2] سورة الأحزاب: ٢٨ ــ ٢٩.

٤ ــ كرمه ﷺ: لعلَّ الكرم شعبة من شعب الزُّهد، أو هو على الأصحِّ الوجه المقابل للزُّهد؛ لأنَّ الزُّهد انصراف النَّفس عن الشيء، والكرم هو دفع الشيء إلى الغير عن طيب نفس، أما وقد أثبتُّ زهد رسول الله ﷺ فإنَّه من السَّهل الآن إثبات كرمه؛ لأنَّ الأصل الإيماني والنفسي للكرم وهو الزُّهد قد توفَّر في نفس رسول الله ﷺ[1].

ويظهر كرم الرَّسول ﷺ من خلال سورة الأحزاب في جوانب عديدة:

أوَّلاً: إقامة دعوات الوليمة والضِّيافة في بيته الشَّريف ﷺ، وهذا ملتمس من أجواء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾[2].

وقد سبق نزول الآية أوضاعًا صعبةً كان يعيشها بعض الصَّحابة ــ رضوان الله عليهم ــ، فقد كان بعضهم يذهبون إلى النَّبي ﷺ وهو في بيوت أزواجه يسألونه عن بعض أمور دينهم ودنياهم، ويخبرونه بما يستجدُّ؛ لأنَّه هو الرَّئيس الأعلى للدَّولة، وبيده السُّلطة الدنيوية والأخروية، وهذا طبعًا يقتضي أن يذهبوا إلى بيوته، فيستأذنوا ويأذن لهم، فيقضي لهم حوائجهم، فمنهم من يخرج بمجرَّد أن تقضى حاجته، ومنهم من يمكث مستأنسًا لحديثه ﷺ خاصَّة الفقراء منهم.

ومن المعلوم أنَّ في الصَّحابة ــ وخاصَّة المهاجرين ــ فقراء من أهل الصُّفَّة، وأهل الصُّفَّة قوم ليس لهم دورٌ ولا تجارةٌ أو فلاحة تشغلهم، هم مَّاكثون في المسجد دائمًا، يترصَّدون ما ينزل من الوحي ليحفظوه، وإذا أهدي إلى النَّبي ﷺ شيء من تمرٍ أو طعامٍ يعطيهم منه، ومنهم من يذهب إلى بيت النَّبي ﷺ ليسأله عن أمرٍ، ويجد قدرًا يطبخ فيه طعام بيت رسول الله ﷺ، فينتظر حتَّى يطبخ، ويقدم إلى رسول الله ﷺ ليتغدَّى معه، وهذا التَّصرُّف يدلُّ على شدَّة

---

[1] انظر: محمد رواس قلعه جي، دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، ط٢، دار النفائس، لبنان، ١٩٩٦م، ص٨٠.

[2] سورة الأحزاب: ٥٣.

إدلالهم على النَّبي ﷺ، وشدَّة فقرهم واحتياجهم، ومن الطَّبيعي أن تقع مثل هذه الأمور، وأراد الله أن تقع لينزل فيها حكمه وشرعه [(١)].

فلذلك كان باب بيت النَّبي ﷺ مفتوحًا للضِّيافة وأكل طعامه بشرط عدم التَّرصد وتَحَيُّنِ نضج الطَّعام: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾، وأن لاَّ يدخلوا بيته ﷺ إلاَّ بإذنه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وبدعوة منه: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾، ولا بدَّ أيضًا بمجرَّد أن يُطْعموا أن ينتشروا ولا يمكثوا لتبادل أطراف الحديث: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾.

يقول ابن عاشور: "وليس ذكر الدَّعوة إلى طعام تقييدًا لإباحة دخول بيوت النَّبي ﷺ لا يدخلها إلاَّ المدعو إلى طعام، ولكنَّه مثالٌ للدَّعوة، و تخصيصٌ بالذِّكر كما جرى في القضيَّة التي هي سبب النُّزول [(٢)]، فيلحق به كل دعوة تكون من النَّبي ﷺ، وكل إذن منه بالدُّخول إلى بيته لغير قصد أن يُطعَم معه كما كان يقع ذلك كثيرًا" [(٣)].

ثانيًا: ومن جملة كرمه ﷺ إغداقه وإنعامه على زيد بن حارثة بشتَّى أنواع النِّعم، ولهذا لم يقل الله في الآية مباشرةً: وإذ تقول لزيد، ولكنَّه سبحانه أشاد بإنعامه على زيد ولم يبخس ﷻ إنعامه ﷺ عليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾[(٤)].

"فأمَّا ما أنعمت عليه يا رسول الله، فقد أنعمت عليه بالعتق والتَّربية والإيواء، حتَّى جعلته من آل بيتك لما تبنَّيته، وإن كان التَّبنِّي سيبطل فيما بعد، ولكنَّه في ذلك الوقت هو نعمة أنعم الله بها على زيد، فتبنَّاه النَّبي ﷺ، وهذه التي أفرحت أباه وعمّه وأهله، فرضوا أن يبقى ابنهم عند

[(١)] انظر: إبراهيم بن عمر بيوض (ت: ١٤٠١هـ)، في رحاب القرآن، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ٢٠٠٣م، ج١٢، ص ص: ٥٣٨ ــ ٥٣٩.

[(٢)] وسبب نزول الآية، ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ قال: لَمَّا تَزَوَّجَ رسول اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وإذا هو كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فلم يَقُومُوا، فلما رَأَى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَجَاءَ النبي ﷺ لِيَدْخُلَ فإذا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النبي ﷺ أَنَّهُمْ قد انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حتى دخل فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ، ج٤، ص١٧٩٩، حديث رقم: ٤٥١٣].

[(٣)] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٣٠٥.

[(٤)] سورة الأحزاب: ٣٧.

النَّبي ﷺ لمَّا ألحقه بنسبه وأشهد على ذلك، فكان واحدًا من أفراد البيت الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

ثم أنعم عليه النَّبي ﷺ بأن اختار له عقيلة من أكرم عقائل قريش، زينب بنت جحش بنت عبد المطلب، الكريمة النَّسب، الطيِّبة العرق، فزوَّجها إيَّاه.

لم تقتض حكمة الله تعالى أن يخصِّص ما أنعم الله عليه، أو أنعم عليه رسوله؛ لأنَّ نعم الله لا يمكن عدُّها ولا حصرُها، ونِعم النَّبي ﷺ وإن أمكن حصرُها فهي كثيرةٌ، والمهمُّ أنَّ زيدًا توالت عليه النِّعم من الله ورسوله"[2].

ثالثًا: ويظهر كرمه ﷺ من خلال تقديمه التَّمتيع على التَّسريح الجميل لنسائه لمَّا أمره الله ﷻ بتخيير نسائه بين زهرة الحياة الدنيا أو بالبقاء في كنفه ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[3]، إذ الأصل أن يقع التَّسريح أوَّلاً ثم يَعْقبُه التَّمتيع، لأنَّ تقديم النَّبي ﷺ التَّمتيع على التَّسريح يعدُّ من باب الكرم وحسن الخلق [4].

٥ ــ حياؤه ﷺ:

كان بعض المؤمنين يتحيَّنون نضج طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون بيوته، ويتناولون ذلك الطَّعام المنتظرين إناه، مسترسلين ومستأنسين في حديث بعضهم البعض، غير مبالين بشيء من أحوال النَّبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يضيق صدره بفعلِهم وحديثهم في بيته؛ لكنَّ حياؤه ﷺ غلب عليه أن يمنعهم ويأمرهم بالخروج، لأنَّ هذا الأمر يشقُّ عليه، فتولَّى الله عن نبيِّه ﷺ إرشادهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[5].

---

[1] سورة الأحزاب: ٣٣.

[2] بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٤١.

[3] سورة الأحزاب: ٢٨.

[4] انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٧٢. وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١٠١. وانظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٨٨.

[5] سورة الأحزاب: ٥٣.

والنَّبي ﷺ لكرم نفسه لا يستطيع أن يقول لأصحابه: اخرجوا، وهذا من شدَّة حيائه (والحياء من الإيمان)[١]، وكان بإمكانه أن يأمر بذلك، ولو فعل لكان ذلك حقًّا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، [٢].

ولهذا يقول أبو سعيد الخدري ﵁: «كان رسول اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً من الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا وكان إذا كَرِهَ شيئا عَرَفْنَاهُ في وَجْهِهِ [٣]»[٤].

فهذه هي أخلاق النَّبي ﷺ من خلال سورة الأحزاب، وقد ظهرت هذه الأخلاق في وقت الشَّدائد والعسر؛ لأنَّ أخلاق الرِّجال تعرف في مثل هذه المواطن الحرجة، لذا نحكم على هذه الأخلاق أنَّها أصيلة في نفس النَّبي ﷺ لظهورها في أجواء وخضمِّ سورة الأحزاب.

لذا فعلى الأمَّة الإسلاميَّة وهي تمرُّ بمرحلة الشَّدائد عليها أن لا تفقد أخلاقها، وأن لا تنسلخ من قِيمها راكضة وراء من لاَ خلاق له، لأنَّ الأمم تبنى بالأخلاق، وعليها التَّحلي بخلق الرَّأفة، والصَّبر، والمصابرة، والمرابطة، والزُّهد، والكرم، والحياء؛ لأنَّها هي أصول الأخلاق وجماعها، وزَادُ الدُّعاة والمربِّين.

المطلب الثاني: بشريَّة النَّبي ﷺ.

اقتضت حكمة الله أن يبعث الرُّسل إلى البشر وأن يجعلهم من البشر أنفسهم، ولو افترض أنَّه سبحانه أرسل إلى البشر ملكًا رسولًا لجعله في هيئة البشر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٥].

---

[١] مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، باب شعب الإيمان، ج١، ص٤٦، حديث رقم:١٦٣.

[٢] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠٦. وانظر: بيوض، في رحاب القرآن، مصدر سابق، ج١٢، ص٥٤٢.

[٣] معنى الحديث: العذراء البكر..، والخدر ستر يجعل للبكر في جنب البيت. ومعنى عرفنا الكراهة في وجهه أي: لا يتكلم به لحيائه بل يتغير وجهه فنفهم نحن كراهته. وفيه فضيلة الحياء وهو من شعب الإيمان وهو خير كله ولا يأتي إلا بخير. [انظر: النووي، شرح النووي، مصدر سابق، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، ج١٥، ص٧٨].

[٤] متفق عليه. واللفظ لمسلم. [مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، ج٤، ص١٨٠٩، حديث رقم: ٢٣٢٠].

[٥] سورة الأنعام: ٩.

وسيِّدنا رسول الله ﷺ هو بشرٌ كسائر البشر، وهذا ما صرَّح به وأعلنه مراراً على قومه، ونفى عن نفسه ادِّعاء أيِّ صفةٍ من الصِّفات التي تخرجه عن طور البشريَّة إلى غيرها؛ فما هو بملكٍ، وليس بإله، ولكنَّه بشر رسول، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٢].

وسورة الأحزاب من السُّور التي أكَّدت تلك البشريَّة بوجود غرائز وصفات بشريَّة فيه ﷺ، ومنها:

١ـ تزوُّج النِّساء: لقد أودع الله تعالى نبيَّه ﷺ فطرة النِّكاح فيه، شأنه في ذلك شأن سائر البشر، فهو ممَّن تزوَّج النِّساء، لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾[٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾، وخلَّف من بعضهن أولادًا، فقال تعالى: ﴿وَبَنَاتِكَ﴾، بل وأكثر من ذلك فقد أحلَّ له التَّزوُّج بأصناف عديدةٍ من النِّساء، وأحلَّ له ﷺ بعض النِّساء لم تحل لأمَّته، وقد جمع أيضًا ﷺ في عصمته تسع نسوة ومات عنهن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤].

في الآية خطاب للنَّبي ﷺ بشأن أنكِحَتِه على سبيل التَّشريع يؤذن فيه أنَّ الله قد أحلَّ له الأصناف المذكور في الآية[٥].

---

[١] سورة الكهف: ١١٠.

[٢] سورة الإسراء: ٩٣.

[٣] سورة الأحزاب: ٣٢.

[٤] سورة الأحزاب: ٥٠.

[٥] انظر: دروزة، التفسير الحديث، مصدر سابق، ج٧، ص٣٩٩.

٢ ــ الأكل والشُّرب: استبعد كفَّار قريش أن يكون الرَّسول ﷺ من جنس البــشر الــذي يأكل الطَّعام وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[١]، فردَّ الله تعالى علـــيهم مخبرًا بذلك نبيَّه ﷺ وأمَّته أنَّه لم يُرسل رسولًا قبل محمَّد إلاَّ كان بشرًا يأكل الطَّعام، قال تعـــالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢].

لذلك فالنَّبي ﷺ من قبيل البشر الذي يجوع فيأكل، ويعطش فيشرب، وقد جاء مـــا يـــدلُّ على هذا فـــي قولـــه تعـــالى: ﴿ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[٣]، فالآية دليل على أنَّ النَّبي ﷺ كان يقصد الأسواق ويشتري الخضار ثم تطبخ في بيتـــه الشَّريف، ولهذا جاء النَّهي عن ترقُّب أَوَان نضج طعام النَّبي ﷺ واستوائه في بيته.

٣ ــ عدم علمه بالغيب: يخبرنا القرآن بأنَّ النَّبي ﷺ في أمور علم الغيب شأنه في ذلـــك شأن سائر البشر، فهو لا يعلم شيئًا من غيب الله كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤]، إلا ما أطلعه الله عليه من علمه سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٥].

ولهذا نجد أنَّ الله أمر نبيَّه ﷺ في غير موضع من القرآن بأن يُعلن عدم علمه بالغيب إلَّا ما أعلمه الله إيَّاه، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ

---

[١] سورة الفرقان: ٧.

[٢] سورة الفرقان: ٢٠.

[٣] سورة الأحزاب: ٥٣.

[٤] سورة النمل: ٦٥.

[٥] سورة الجن: ٢٦ ــ ٢٧.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[١]، وقوله أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

وسورة الأحزاب من السُّور التي تدلُّ على أنَّ النَّبي ﷺ لا يعلم علم غيب السَّاعة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٣].

يقول صاحب تيسير التَّفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾: "يسألك المشركون استهزاءً بقيام السَّاعة وإنكارًا، والمنافقون تعنُّتًا، واليهود امتحانًا لعلمهم من التَّوراة أنَّها ممَّا أخفى الله ﷻ، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لا عند ملكٍ مقرَّب، ولا نبيٍّ مرسل؛ وذلك إثبات لها على منكريها، وإقناطٌ لليهود على أن يتكلم فيها بشيء يخالف الإخفاء، فيقولوا: لو كُنتَ نبيًّا لم تتكلم فيها، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما يُصَيِّرُك داريًا عالمًا بوقتها، لعلَّ السَّاعة تحدث في زمان قريب"[٤].

٤ ـــ موته ﷺ: والنَّبي محمد ﷺ ولد كما يولد سائر البشر، وقضى أجلاً معيَّنًا في حياته، ثمَّ جاء أجل معين محدَّد يموت فيه كما يموت سائر البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٥].

وقد جاء أيضًا في القرآن عقب غزوة أحد بأنَّ النَّبي ﷺ جائزٌ عليه أن يموت ميتةً طبيعيَّةً، أو أن يقتل كما قتل بعض إخوانه من الأنبياء السَّابقين ـــ عليهم السَّلام ـــ، فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[٦].

"وحاصل المعنى أنَّ محمَّدا ليس إلا بشرًا رسولاً قد خلت ومضت الرُّسل من قبله فماتوا، وقد قتل بعض النبيِّين كزكريا ويحيى فلم يكن لأحدٍ منهم الخلد، وهو لا بدَّ أن تحكم عليه

---

[١] سورة الأنعام: ٥٠.

[٢] سورة الأعراف: ١٨٨.

[٣] سورة الأحزاب: ٦٣.

[٤] محمد بن يوسف اطفيش (ت: ١٣٣٢هـ)، تيسير التفسير، ت: طلاي إبراهيم بن محمد، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ٢٠٠١م، ج١١، ص٣٥١ ـــ ٣٥٢.

[٥] سورة الزمر: ٣٠.

[٦] سورة آل عمران: ١٤٤.

سنَّة الله بالموت فيخلو كما خلوا من قبله، إذ لا بقاء إلا لله وحده، ولا ينبغي للمؤمن الموحِّد أن يعتقده لغيره"(١).

ولهذا جاءت إشاراتٌ في حياته ﷺ أنَّه سيموت، ومنها ما جاء في سورة الأحزاب بأن وضع الله تعالى له بعض الأحكام المتعلّقة بأزواجه والتي تكون بعد مماته ﷺ فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ**﴾(٢)، وفي الآية إشارةٌ إلى أن النَّبي ﷺ سيموت، وستظلُّ أزواجه من بعده.

يقول سعيد حوَّى: "أي وما صحَّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، ولا نكاح أزواجه من بعد موته"(٣).

نخلص في النِّهاية إلى أنَّ سورة الأحزاب أكَّدت على بشريَّة النَّبي ﷺ، وصوَّرت لنا هذه البشريَّة من خلال ما يطرأ على جميع البشر من صفاتٍ بشريَّة ممَّا لا يستثنى أحد منها: كالتَّزوُّج بالنِّساء، والأكل والشرب، وعدم معرفة الغيب، والموت الذي ينتظر كلَّ البشر.

ويكفي دلالة على بشريَّة النَّبي ﷺ من خلال اسم السُّورة وهي الأحزاب: أنَّه ﷺ لم يَرُدّ ويَكْفِ عن نَّفسه وأصحابه شرَّ جموع الأحزاب؛ لأنَّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا قوَّةً إلا بالله، فالله وحده هو الذي كفاهم شرَّ هذه الجموع قائلاً عن نفسه سبحانه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾(٤)، وقال: ﴿**وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾(٥).

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج٤، ص ص: ١٣٢ ــ ١٣٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٣) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط٦، دار السلام، مصر، ٢٠٠٣م، ج٨، ص٤٤٧٠.

(٤) سورة الأحزاب: ٩.

(٥) سورة الأحزاب: ٢٥.

المبحث الثالث: بيان منزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة في ضوء السُّورة.

أقصد بمنزلة من تربطه بالنَّبي ﷺ صلة، من لَوْلا النَّبي ﷺ لم يكن لهم فضل على غيرهم، ولَمُحِي اسمهم واندرست شُهرتهم ولم تكن لهم مِيزَة يمتازون بها على غيرهم، ومثال ذلك: جميع من صاحب الرَّسول ﷺ من رجال ونساء لو لم يكُن الرَّسول بُعث في زمانهم لم نَكُن لنسمع عن فضائلهم، وبطولاتهم، وحياتهم إلّا الشيء اليسير أو اللاّشيء، ومثالٌ آخر: لو لم تتزوَّج عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ بالرَّسول ﷺ أيكون لها نفسُ السُّمعة والذّكر في العالمين، علمًا أنَّ الآلاف من الصَّحابيات عِشْن معها، لكِنْ لم تكُن لَهُنَّ نفس المِيزة، ولا نعرف أسماء الكثيرات منهُنَّ إلا إذا كن قريبات من محيط الرَّسول ﷺ، فزواجها بالرَّسول ﷺ هو الذي خلَّد اسمها، وأكْسَبَها تلك المكانة.

المطلب الأول: منزلة أزواج النَّبي ﷺ.

قلت إنَّ زوجات النَّبي ﷺ لم يكنَّ معروفات قبل الزَّواج به، فلمَّا تزوَّجنه صِرن في مرتبةٍ ومكانةٍ خصَّها الله بهنَّ، وما ذاك إلا لارتباطهنَّ برسول الله ﷺ.

وسورة الأحزاب تناولت قِطاعًا من جانب بيت النُّبوَّة وخاصَّةً زوجاته ﷺ في العديد من المواضيع، وسنسوقها لنبيِّن منزلتهن وهذا من جهتين:

الجهة الأولى: إضافة الأزواج إلى الضَّمائر المتَّصلة العائدة إلى النَّبي ﷺ:

١ــ قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[١]، والسُّؤال الذي يمكن ذكره هو: لماذا خصَّهن الله بأنَّهنَّ أمَّهات المؤمنين؟ والجواب يسير: لأنَّهنَّ أزواج النَّبي ﷺ.

يقول القرطبي: "شرَّف الله تعالى أزواج نبيِّه ﷺ بأن جعلهنَّ أمَّهات المؤمنين، أي: في وجوب التَّعظيم والمبرَّة والإجلال وحرمة النِّكاح على الرِّجال وحجبهن ــ رضي الله تعالى عنهن ــ بخلاف الأمَّهات"[٢].

ومن تشريف الله لهنَّ كزوجات للنَّبي ﷺ: أن يُقتدى بهن، وأن يُأخذ عنهنَّ الدِّين وخاصَّة فيما يتعلَّق بفقه النِّساء وأحكامهن، وما يتعلَّق بداخلية النَّبي ﷺ فيما يعترَّض له من أحكام مع

---

[١] سورة الأحزاب: ٦.

[٢] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١٢٣.

زوجاته وبيوته، لأنَّهنَّ الأدرى بأحوال ذلك، ولهذا قال تعالى عنهنَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[1].

٢ ــ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾[2].

وفي الآية إشارةٌ ظاهرة إلى أنَّ للنَّبي ﷺ حرمة بعد موته، والمتمثّلة في توقير وتعظيم أزواجه من أن ينكحهن أحد بعد موته، فلذلك تُعامل أزواجه ﷺ وكأنَّ حرمته حيَّة ــ حرمته حيًّا وميّتًا سواء ــ.

يقول ابن عاشور: "إنَّ حكم أمومة أزواج النَّبي ﷺ للمؤمنين حكمٌ دائمٌ في حياة النَّبي ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ أو من بعده، ولذلك اقتصر هنا على التَّصريح بأنَّه حكم ثابت من بعد؛ لأنَّ ثبوت ذلك في حياته قد عُلم من قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾"[3].

٣ــ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[4]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾[5]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾[6].

توجيه الخطاب إلى أزواج النَّبي ﷺ لإظهار الاعتناء بنصحهنَّ، ونسبتهنَّ إليه ﷺ نسبة تشريفٍ وتكريمٍ، وبدأ بهنَّ في الخطاب في الآية الأخيرة؛ لأنَّهنَّ أولى النَّاس بالشَّفقة، ولملازمتهنَّ له ﷺ في أغلب أوقاته.

الجهة الثانية: إضافة الأزواج إلى لفظة النَّبي ﷺ:

١ــ قال تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ

---

[1] سورة الأحزاب: ٥٣.
[2] سورة الأحزاب: ٥٣.
[3] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٣١٧.
[4] سورة الأحزاب: ٢٨.
[5] سورة الأحزاب: ٥٠.
[6] سورة الأحزاب: ٥٩.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[(١)]، "ونحن نستطيع أن نَّتبيَّن من طريقة خطاب الآية الكريمة لأزواجه ﷺ، المنزلة العالية الرَّفيعة لهنَّ عند بارئهنَّ، ولا يبدو ذلك من ندائهنَّ فقط، ولكن من إضـــافتهنَّ إلى النَّبي ﷺ" [(٢)].

وفي الآية إخبارٌ من الله تعالى لنساء نبيِّه أنَّ من جاءت منهنَّ بفاحشة، أن يضاعف لهـــا العذاب ضِعفين لشرف منزلتهن وفضل درجتهن وتقدُّمهن على سائر النِّساء أجمع[(٣)].

٢ـــ قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾[(٤)].

فإضافة النِّساء إلى النَّبي ﷺ دليلٌ على أنَّ لهنَّ منزلة وفضلاً وشرفًا يتميَّـــزن بهـــا عـــن سائر جماعات النِّساء الأخرى، لكن هذه الفضيلة مشروطة بشرط التَّقوى، لما منحهنَّ اللّـــه مـــن شرف الزوجيَّة لرسول الله ﷺ وعظيم المحلِّ منه، ونزول القرآن فـــي حقهـــنَّ، وهـــذه درجـــةٌ عالية[(٥)].

إلى غير ذلك من المقامات التي حظين بها لمَّا كنَّ تحت كنف النَّبي ﷺ، وخاصَّـــةً لمَّـــا اخترنه على متع الحياة الدنيا، إذ قابل الله حسن صنيع هذا الاختيار بخمسة أشياء مـــذكورة فـــي نفس السُّورة وهي:

ـــ جَعَلَهن الله أمَّهات للمؤمنين.

ـــ فضَّلهنَّ الله على سائر نساء أمَّته ﷺ.

[(١)] سورة الأحزاب: ٣٠.

[(٢)] باجوده، تأملات في سورة الأحزاب، مرجع سابق، ص٢٧٧.

[(٣)] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١٧٤. وانظر: الـــشوكاني، فـــتح القـــدير، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٦.

[(٤)] سورة الأحزاب: ٣٢.

[(٥)] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١٧٧. وانظر: الألوســـي، روح المعـــاني، مصدر سابق، ج٢٢، ص٣. وانظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج٢٢، ص١٢.

ــ مدحهنَّ الله بأن أدخلهنَّ ضمن أهل بيت النَّبي ﷺ، فأذهب عنهنَّ الرِّجس، وطهـــرهنَّ تطهيرًا[١].

ــ حظر عليه طلاقهنَّ والاستبدال بهنَّ [٢].

ــ حرَّم الله التَّزوُّج بأيَّة واحدةٍ منهنَّ بعد وفاته ﷺ.

المطلب الثاني: منزلة أهل بيت النَّبي ﷺ:

خُصَّ بيت آل النَّبي ﷺ بمحطِّ العناية الرَّبَّانية له، وبوجوب التَّوقير والاحترام له بموجب نصوص السنَّة الصَّحيحة الثابتة في ذلك، ومما جاء بعلوِّ منزلة أهل بيت النَّبـــي ﷺ فـــي ســـورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣].

"والمراد بالرِّجس هنا الإثم والذَّنب المُدنِّسان للأعراض الحاصلان بسبب ترك مـــا أمـــر الله به، وفعل ما نهى عنه فيدخل تحت ذلك كل ما ليس فيـــه لله رضًـــا، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: يطهِّركم من الأرجاس، والأدران تطهيرًا كاملًا، وفي استعارة الرِّجس للمعصيَّة والتَّرشـــيح لهـــا بالتَّطهير تنفيرٌ عنها بليغٌ وزجرٌ لفاعلها شديد"[٤].

واختلف العلماء في تحديد من هم أهل بيت النَّبي ﷺ المقصودين في الآية على مذهبين:

المذهب الأول: وهم بعض الشِّيعة الذين يرون أنَّ أهل البيت هم من كان لهم نسبٌ إلـــى النَّبي ﷺ فأقصوا بذلك جميع أزواج النَّبي ﷺ.

يقول الطُّوسي: "روى أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأم سلمة وواثلـــة بـــن الأسقع أنَّ الآية نزلت في النَّبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ــ عليهم السَّلام ــ، فـــروي عن أمِّ سلمة أنَّها قالت: إنَّ النَّبي ﷺ كان في بيتي فاستدعى عليًّا وفاطمـــة والحـــسن والحـــسين، وجلَّـــلهم بعباءةٍ خيبريَّة، ثمَّ قال: اللَّهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرِّجس وطهِّرهم تطهيـــرًا،

---

[١] سيأتي الكلام على هذه النقطة بعد هذا المطلب مباشرة، لنبين أن أزواج النبي داخلات في خطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قولا واحدا.

[٢] ولو أن العلماء رجحوا أن آية إحلال التزوج ناسخة لآية حظر التزوج عليهن، فإنه عليه الصلاة والسلام لـــم يثبت أنه زاد التزوج بواحدة بعد نزول آية الحظر.

[٣] سورة ألأحزاب: ٣٣.

[٤] الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٨.

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فقالت أمُّ سلمة قلت: يا رسول الله هل أنا من أهل بيتك؟ فقال: لا، ولكنَّك إلى خير.

وقال عكرمة هي في أزواج النَّبي خاصَّة، وهذا غلط؛ لأنَّه لو كانت الآية فيهنَّ خاصَّة لكنّى عنهنَّ بكناية المؤنَّث، كما فعل في جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذكر جميع ذلك بكناية المؤنَّث، فكان يجب أن يقول: إنَّما يريد الله ليذهب عنكنَّ الرِّجس أهل البيت ويطهركنَّ، فلمَّا كنَّى بكناية المذكَّر دلَّ على أنَّ النِّساء لا مدخل لهنَّ فيها.

وفي النَّاس من حمل الآية على النِّساء ومن ذكرناه من أهل البيت هربًا ممَّا قلناه، وقال: إذا اجتمع المذكَّر والمؤنَّث غلب المذكَّر، فكنَّى عنهم بكناية المذكَّر، وهذا يبطل ممَّا بينَّاه من الرِّواية عن أمِّ سلمة، وما يقتضيه من كون من تناولته معصومًا، والنّساء خارجاتٌ عن ذلك"[١].

ويؤكد الطَّباطبائي أنَّ أهل بيت النَّبي ﷺ لا تشمل أزواجه قائلاً: "إنَّ الآية نزلت في النَّبي ﷺ وعلي وفاطمة والحَسَنيْن ــ عليهم السَّلام ــ خاصَّة لا يشاركهم فيها غيرهم... وبالبناء على ما تقدم تصيير لفظ أهل البيت خاصًّا ــ في عرف القرآن ــ بهؤلاء الخمسة وهم: النَّبي وعلي وفاطمة والحسنان ــ عليهم الصَّلاة والسَّلام ــ لا يطلق على غيرهم، ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صحَّ بحسب العرف العام إطلاقه عليهم"[٢].

المذهب الثاني: وهو مذهب الجمهور القائل بدخول أزواجه وذرِّيته وصهره.

يعقب دروزة على كلام الشِّيعة في هذا الباب محتجًّا بدليل سياق الآيات، وباستعمال القرآن للفظة الأهل، وباللغة قائلاً: "تقف وبخاصَّة أمام من يخرج نساء النَّبي ﷺ من مدلول تعبير أهل البيت منها، والذي يتمسك به الشِّيعة تمسُّكًا شديدًا موقف الحيرة بل التَّحفظ والتَّوقُّف إزاء دلالة الآيات الصَّريحة وسياقها، ولا سيما أنَّ الآية التي جاءت بعد الجملة هي استمرار للخطاب الموجَّه إلى نساء النَّبي بحيث لا يمكن أن يصرف التَّعبير في هذا المقام إلى غيرهنَّ، هذا فضلاً عن أنَّ تعبير أهل البيت قد ورد في آياتٍ أخرى كناية عن الزَّوجة، منها آيات سورة هود هذه في سياق قصَّة إبراهيم: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ

---

[١] محمد بن الحسن الطوسي، أبو جعفر (ت: ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، ت: أحمد حبيب قصير العاملي، ط١، مكتب الأعلام الإسلامي، ١٣٠٩هـ، ج٨، ص ص: ٣٣٩ ــ ٣٤١.

[٢] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٢٢، ص ص: ٣١٧ ــ ٣١٨.

ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾[١]، وآية سورة النمل هذه: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾[٢]، بل لقد روى الشيخان والترمذي حديثًا جاء فيه أنَّ النَّبي ﷺ كان يمرُّ على حجرات زوجاته فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»[٣].

وممَّا يتمسَّك به الشِّيعة في سبيل تدعيم تأويلهم استعمال ضمير المخاطب لجمع المذكَّر في الجملة مع أنَّ الجملة التي قبلها وبعدها استعمل فيهما ضمير الجمع المخاطب المؤنَّث، وليس في هذا حجَّة ما، فضمير الجمع المخاطب المذكَّر استعمل أيضًا في حكاية الخطاب الموجَّه إلى زوجة إبراهيم وزوجة موسى ــ عليهما السَّلام ــ في آيات سورتَي هود والنَّمل التي أوردناها آنفًا"[٤].

أما ابن كثير فيردُّ عليهم بسبب النُّزول قائلاً: "فهذه الآية نصٌّ في دخول أزواج النَّبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنَّهنَّ سبب نزول هذه الآية [٥]، وسبب النُّزول داخل فيه قولاً واحدًا إمَّا وحده على قول أو مع غيره على الصَّحيح، وروى ابن جرير عن عكرمة أنَّه كان ينادي في السُّوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة"[٦].

يقول القرطبي: "والذي يظهر من الآية أنَّها عامَّة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنَّما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ ﴾؛ لأنَّ رسول الله ﷺ وعليًّا وحسنًا وحسينًا كان فيهم، وإذا اجتمع

---

[١] سورة هود: ٧١ ــ ٧٣.

[٢] سورة النمل: ٧.

[٣] البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله: لا تدخلوا بيوت النبي، ج٤، ص١٧٩٩، حديث رقم: ٤٥١٥.

[٤] دروزة، التفسير الحديث، مصدر سابق، ج٧، ص ص: ٣٨١ ــ ٣٨٢.

[٥] أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصص. [انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٣]. هذا على فرض وجود مخصص، ولا وجود للمخصص في الآية.

[٦] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٨٤.

المذكَّر والمؤنَّث غُلِّب المذكَّر فاقتضت الآية أنَّ الزَّوجات من أهل البيت؛ لأنَّ الآية فيهنَّ والمخاطبة لهنَّ يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم"[١].

ويقول الرازي: "وخاطب بخطاب المذكَّرين بقوله ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأوْلى أن يقال: هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم؛ لأنَّه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النَّبي ــ عليه السَّلام ــ وملازمته للنَّبي"[٢].

والرَّاجح كما اتَّضح بدليل سياق الآيات، وباستعمال القرآن للفظة الأهل، والتَّوجيه اللُّغوي، ودليل سبب النُّزول الصَّحيح الصَّريح أنَّ أهل البيت يشمل أزواج النَّبي ﷺ، وأولاد النَّبي ﷺ ليسوا إلا بضعةً منه ومن زوجاته، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[٣].

المطلب الثالث: منزلة أصحاب النَّبي ﷺ:

ربّى النبي ﷺ رجالاً بعد أن كانوا في جاهليَّة عمياء، فارتقى بهم بمنهجه التَّربوي وأسلوبه الدَّعوي إلى مدارج الكمال، وهيَّأهم لتحمُّل مسئولية ثقل أمانة الدِّين فحملوها وبلَّغوها أحسن تبليغ، فشهد الله لهم بذلك بأنَّهم خير أمَّة أخرجت للنَّاس، وأثنى عليهم بجميل أخلاقهم في مواطن كثيرة كالإيثار على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وحبّ الإنفاق، والجهاد في سبيل الله، ورضيَ الله عنهم في كتابه الخالد، وخلّد بعضًا من مواقفهم البطولية النَّادرة كالتّي في سورة الأحزاب.

ولقد سعد الصَّحابة أيّما سعادة بصحبة النَّبي ﷺ فآمنوا به، وآزروه، وعزَّروه، ونصروه، وفَدَوْه بأموالهم وأنفسهم.

والذي أردت أن أقوله هو أنَّ النبي ﷺ كان له النَّصيب الأوفر، والسَّبب المباشر في إعداد هؤلاء الصَّحابة في شتَّى الميادين كالتَّفقه في الدِّين، والتَّخلق بالأخلاق الفاضلة، وممارسة القضاء، وإدارة الحروب وغير ذلك بتربيتهم ونصحهم والصَّبر معهم حتَّى ظفروا وتبوّؤوا المكانة التي صاروا بها خير القرون.

---

[١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج١٤، ص١٨٣.

[٢] الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج٢٥، ص١٨١.

[٣] سورة النحل: ٧٢.

ولهذا كابد النَّبي ﷺ مع أصحابه حتَّى أوصلهم إلى درجة استحقُّوا بها ثناء الله عليهم بأن وصفهم رجالاً في موضعين من السُّورة:

الأول: قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[١].

"والإخبار عنهم برجال زيادة في الثَّناء؛ لأنَّ الرَّجُل مشتق من الرِّجل وهي قوَّة اعتماد الإنسان"[٢].

فهنيئًا لهؤلاء الذين شهد الله تعالى لهم بالإيمان وبالرُّجولة وبالوفاء بالعهد، وبحبِّ الشَّهادة، وبالثبات.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾[٣]، وموضع الشَّاهد من الآية أنَّ الله نفى أن يكون محمد أبًا لأحد من الصَّحابة الذين سمَّاهم الله رجالاً، بما فيهم زيد بن حارثة.

المطلب الرابع: منزلة المدينة المنوَّرة [٤].

حظيت المدينة المنوَّرة بأن أقام بها خير البريَّة محمد ﷺ، ودفن فيها، ولهذا فإنَّ للمدينة فضلاً وميزةً ولها حَرَمٌ كما لمكَّة حرمُها، قال ﷺ في الحديث الصَّحيح الذي رواه الشيخان وغيرهما: عن أَنَسِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَعَ له أُحُدٌ فقال: هذا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، اللَّهم إِنَّ إبراهيم حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أُحَرِّمُ ما بين لَابَتَيْهَا [٥]»[٦].

---

[١] سورة الأحزاب: ٢٣.

[٢] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢١، ص٢٧٧.

[٣] سورة الأحزاب: ٤٠.

[٤] ذكر الله تعالى اسمين من أسماء المدينة المنورة في سورة الأحزاب وهما: يثرب، والمدينة.

[٥] لابتيها: أي المدينة يعني حرتيها من جانبيها، واللابة الحرة ذات الحجارة السود. [ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج١، ص١٨٤].

[٦] متفق عليه. واللفظ للبخاري. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم...، ج٦، ص٢٦٧٢، حديث رقم: ٦٩٠٢].

وفضائل المدينة المنوَّرة ــ على ساكنها أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم ــ كثيرةٌ، وهي ثابتة في الأحاديث الصَّحيحة فليُرجع إليها، وأكتفي بالإشارة بما في قوله تعــالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١].

فالآية فيها وعيد للمنافقين وأضرابهم بشتَّى أنواع العقوبات ومنها العقوبة النَّفسية، وهي: عدم مجاورة الرَّسول ﷺ في المدينة؛ لأنَّ الخروج من المدينة أعظم شيء يصيبهم، لشدَّة مفارقة الوطن، وشدَّة مفارقة جوار الرَّسول ﷺ، ولو لعدم حبِّهم له [٢].

"وكأنَّ وعيد إجلاء المنافقين من المدينة كما أجلى من قبلهم من بنــي قريظــة، وبنــي النَّضير، وبني قينقاع أراد بذلك أن تكون المدينة طاهرة طيِّبة؛ لأنَّ فيها النَّبي ﷺ أكرم خلق الله، والله تعالى يريد أن يطهِّر حرمه من الأرجاس والأدناس"[٣].

ولهذا قال النَّبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قــال: «إنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إلى الْمَدِينَةِ كما تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا»[٤].

يقول العيني شارحًا لمعنى الحديث: "قوله: (إنَّ الإيمان) أي: أهل الإيمان، والــلام فــي (ليأرز) للتَّأكيد، وقال المهلب فيه: إنَّ المدينة لا يأتيها إلاَّ مؤمن، وإنَّمــا يــسوقه إليهــا إيمانــه، ومحبَّته في النَّبي ﷺ، فكان الإيمان يرجع إليها كما خرج منها أوَّلاً ومنها ينتشر كانتــشار الحيَّــة من جحرها، ثم إذا راعها شيء رجعت إلى جحرها" [٥].

ولهذا نَصَّ الحديث على أنَّ المدينة يأرز المؤمنون إليها، ونصَّت الآية بعــدم مجــاورة المنافقين فيها إلاَّ قليلاً؛ لأنَّه لا يجتمع إيمان مع نفاق بمحالة، ولهذا ناسب دخول الإيمــان إلــى المدينة بخروج النِّفاق منها، والله أعلم.

---

[١] سورة الأحزاب: ٦٠.

[٢] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٧، ص١١٥. وانظر: اطفيش، تيسير التفسير، مصدر سابق، ج١١، ص٣٤٩.

[٣] بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، مصدر سابق، ج١٢، ص٦٤٤.

[٤] متفق عليه. واللفظ للبخاري. [البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، كتاب الحج، أبواب فضائل المدينــة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، ج٢، ص٦٦٣، حديث رقم: ١٧٧٧].

[٥] محمود بن أحمد العيني، أبو محمد (ت: ٨٥٥هـ)، عمدة القاري، دط، دار إحياء التــراث، بيــروت، د.ت، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، ج١٠، ص٢٤٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفّقني لإتمام هذه الدِّراسة، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمــد ﷺ الــذي حبان الله بدراسة شخصه الكريم ﷺ في ضوء سورة الأحزاب، وعلى آله وأصــحابه أجمعــين؛ وبعد:

فإنَّ لكل جهد ثمرته، ولكل عمل نتائجه، وهذا نتاج الدِّراسة والتي ارتأيــت أن أضــعها مرتبة حسب تسلسل مواضيع الرِّسالة.

تبيَّن من خلال مبحث تعريفات السُّورة أنَّه: يمكن إيجاد أسماء اجتهادية للــسُّورة غيــر التَّوقيفيَّة، إذ نحن مخاطبون ومطالبون بالتَّدبر والتعمُّق في آيات الله: فسمَّينا السُّورة بالفاصلة.

نستنتج من سبب تسمية السُّورة بالأحزاب ليس فقط بتحزُّب الأحزاب علــى النَّبــي ﷺ وتدبير المكائد له وإيذائه، بل التَّسمية تشمل التَّحزب حتَّى على الأحكام الواردة في السُّورة، فهي محلٌّ تحزب الجميع من قبل أعداء الإسلام، من منافقين وأهل كتاب في هــذا العــصر الحــديث كقضيَّة حجاب المرأة، وتبرُّجها، وزينتها، وعملها وخروجها، وقضيَّة أنكحة النَّبي ﷺ، وغير ذلك من الأحكام التي تناولتها سورة الأحزاب، وكأنَّ الله يخبرنا بأنَّه سيأتي زمان ويتحزَّب أعداء هذا الدِّين على الأحكام الواردة في سورة الأحزاب كتحزُّبهم على النَّبي ﷺ يوم الأحزاب.

وجوب التَّوسُّع في إبراز العلاقة بين السُّورة المراد دراستها ومع التي تــسبقها والتــي تليها من كلِّ الوجوه، وعدم الاقتصار على ذكر المناسبة في النَّظر بين الاختتام والافتتاح فقــط؛ لأنَّ في هذا تأكيد لوحدة الرِّسالة القرآنية في أهدافها وموضوعاتها.

إنَّ السَّبيل الأهمّ للتَّوصل إلى معرفة الموضوع الرَّئيس للسُّورة لا يتــأتَّى إلا بالاهتمــام بعلم المناسبات، وتحليل موضوعات السُّورة، لذا فالموضوع الرَّئيس لــسورة الأحــزاب الــذي توصَّلت الدِّراسة إليه هو: النَّبي ﷺ وما يتعلَّق به.

اكتشفت الدِّراسة أنَّ هناك تشابهاتٌ في السُّور مع سورة الأحزاب، كالتَّشابه في المقاطع والمضامن وكان ذلك مع سورة الفتح، مع وجود ترابطٍ بينهما، والتَّشابه في الافتتــاح والاختتــام وكان ذلك مع سورة المزَّمِّل، مع وجود روابط مشتركة بينهما.

إنَّ نداء الله ﷻ لنبيِّه ﷺ بنداء النُّبوَّة خمس مرَّاتٍ في السُّورة مؤذنٌ بمقامٍ عظــيمٍ عنــده سبحانه، بخلاف الأنبياء جميعهم فإنَّهم نودوا بأسمائهم المجرَّدة في القرآن.

إنَّ أيَّ سورة جاء فيها ذكر " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ** " أو " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ** " فهي مدنيَّة باتِّفاق.

وهذه السُّور هي على التَّرتيب: المائدة، الأنفال، التَّوبة، الأحزاب، الممتحنة، الطَّلاق، التَّحريم.

وأيُّ سورةٍ ورد فيها ذكر: " عَبْدِهِ" أو " بَشَرٌ" أو " رَجُلٌ" أو " صَاحِبُكُمْ " (والمقصود فيها النَّبي ﷺ)، أو " ٱلْمُزَّمِّلُ " أو " ٱلْمُدَّثِّرُ"، فهي مكِّية باتِّفاق، باستثناء سورة الحديد وهي مدنية في الرَّاجح.

وهذه السُّور هي على التَّرتيب: الأعراف، يونس، الإسراء، الكهف، الفرقان، سبأ، فصلت، النَّجم، المزمل، المدثر، التكوير.

تجسَّدت مكانة النَّبي ﷺ عند الله ﷻ من خلال سورة الأحزاب في أمورٍ عديدة:

١ ــ في اقتران اسم الجلالة فيما لا ينفرد به سبحانه ويستقلُّ لوحده مع اسم نبيِّه ﷺ في أمورٍ كثيرة: كالطَّاعة، والمعصية، والتَّكذيب، والصدق والوعد، وغير ذلك، وفي هذا إيذانٌ بأنَّه: من كذَّب بالرَّسول فقد استلزم تكذيبه لله، ومن أطاعه فقد أطاع الله وهكذا.

٢ ــ كانت نسبة رسالة النَّبي ﷺ إلى الله ﷻ في السُّورة بارزة، وكان هذا ملائمًا لجوِّهَا، نظرًا لتصاعد كيد المنافقين، وتعاظم خطر اليهود، وهذا ممَّا يزيد المُرسل يقينًا وطمأنينةً.

٣ ــ جاءت صلاة الله ﷻ على نبيِّه ﷺ لرفع ذكره والتَّنويه من شأنه، وهي تعتبر مكافأة لجهوده العظيمة في سبيل إقامة الدَّولة الإسلامية، وكان مجيء الصَّلاة في أجواء سورة الأحزاب كمنحة إلهيَّة له، فما أجمل المِنحة بعد المِحنة.

٤ ــ تمثَّلت رعاية الله ﷻ لنبيِّه ﷺ بتوجيهه بتوجيهاتٍ ربَّانية هي جماع كلِّ خير، وهذا لإكمال إعداده كقائد، ومُرَبٍّ، وأسوة، ولكونه نبيًّا قبل كلِّ شيء.

٥ ــ خُصَّت سورة الأحزاب عن باقي السُّور بتجلِّي الألطاف الإلهية على نبيِّه ﷺ، كالتَّخفيف عنه، ونفي الجناح والحرج عنه.

٦ ــ اشتملت سورة الأحزاب على ذكر أكثر صفات النَّبي ﷺ وأجمعِها.

تميَّزت مكانة النَّبي ﷺ بين إخوانه من الأنبياء ــ صلوات الله عليهم أجمعين ــ، بتقديمه عليهم، وبخَتم الرِّسالة السَّماوية به، فكانت مكانته بينهم كمكانةِ الإمام بين المأمومين، فلذلك هو ﷺ سيِّد ولد آدم من باب أولى، ولا فخر.

إنَّ بعض القضايا المشكلة التي تناقلها العلماء في كتب تفسيرهم كبعض المرويَّات التي دخلتها الإسرائليات، وبعض القضايا التي أُخِذت عبر الأجيال وكأنَّها مسلمَّات، بل في الحقيقة

تحتاج إلى إعادة نظر لتصويبها وذلك بالبحث والوقوف عليها حسب الدراسات الحديثة الموضوعيَّة.

بينت الدِّراسة أنَّ قدر النبي ﷺ عند الله ﷻ عالٍ ورفيع، فلا تنقص الإساءة من قدره ولا تضرُّه في شخصه مادامت هذه المنزلة والمكانة محفوظة ومصونة بحفظ الله لكتابه الخالد، لذا فلا يُؤبه ولا ينظر ولا يلتفت إلى من أساء إلى النَّبي ﷺ أو آذاه بأيِّ نوعٍ من الأذى، لأنَّ مَثَلَهم في ذلك كمثل الذي أراد أن يُطفئ نور الله بفيه.

إن التَّوسُّع في إطراء ومدح النَّبي ﷺ بصنوف المدح لا يزيده منزلة وعلوًّا بعد المنزلة التي أثبتها الله له في السُّورة.

ـ أثبتت الدِّراسة أنَّ للنَّبي ﷺ حقَّان على أمَّته:

١ ـ حقٌّ واجبٌ أداؤه والمتمثل في: حقِّ ولايته وتقديمه على النَّفس، وحقِّ التَّأسِّي به، وحقِّ طاعته، والامتثال لأمره، وحقِّ الصَّلاة عليه.

٢ ـ حقٌّ واجب تركه: والمتمثِّل في عصيانه، والتَّخيير في أوامره، وإيذائه.

كما أكَّدت الدِّراسة أنَّ من أطاع النَّبي ﷺ استحقَّ أجر تلك الطَّاعة مرَّتين، وأنَّ من آذاه أو عصاه استحقَّ أن يضاعف له من العذاب ضِعفين، ولو كان من أقرب النَّاس إليه.

توصَّلت الدِّراسة إلى أنَّ أيَّ سورة ذكر فيها اشتقاق فعل "أطاع" المنسوب إلى الرَّسول ﷺ مثل: ﴿أَطِيعُواْ، يُطِعِ، أَطِعْنَ، أَطَعْنَا﴾ فإنَّ السُّورة مدنيَّة.

وهذه السُّور هي على التَّرتيب: آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، المجادلة، التغابن.

كما توصَّلت الدِّراسة إلى أنَّ الاقتداء بالنَّبي ﷺ والالتفاف حوله أمرٌ مفروغ منه، لكنَّ ذلك الاقتداء والالتفاف حول القائد يكون آكِدًا في حال الخوف والشَّدائد وتكالب الأعداء، وهذا مأخوذٌ من جميع الغزوات التي وردت في القرآن حيث أُكِّد في خضمِّ وسياق آيات الغزو على تشديد التَّمسُّك في اتِّباع النَّبي ﷺ.

أسفرت غزوة الأحزاب والتي كان موضوعها الرَّئيس النَّبي ﷺ وما يتعلَّق به، على أربع نتائج.

النتيجة الأولى: قدَّمت السُّورة أنموذجًا رائعًا وفريدًا للمؤمنين في ثباتهم وصدقهم للنَّبي ﷺ ولدينه، فكان جزاء هذه النُّصرة والثَّبات أن خلَّد الله ذكرهم الطيِّب في كتابه، ووعدهم بالثَّواب عنده، ونصرهم سبحانه بنصره بأن كفى الله القتال عنهم، ورزقهم من حيث لم يحتسبوا بأن أورثهم أموال أهل الكتاب وديارهم وأرضهم، وأرضًا لم يطئوها.

النتيجة الثانية: كما قدَّمت لنا السُّورة صورةً عن المنافقين المتخاذلين عن نُصرة الرَّسول ﷺ وخاصَّةً في أوقات الشِّدَّة فكشفت عن تحرُّكاتهم، وبيَّنت حالهم وسلوكهم، فكان جزاؤهم أن يعذبهم الله إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى رشدهم، وأن يُغري بهم النَّبي ﷺ بقتلهم وإجلائهم من المدينة، ويستحقُّوا بذلك اللَّعن أينمَا ثقفوا.

النتيجة الثالثة: وهو بيانٌ لجزاء الكافرين، فقد حال الله بينهم وبين ما يشتهون من قتال النَّبي ﷺ بأن أرسل عليهم ريحًا وجنودًا، فرجعوا إلى ديارهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا.

النتيجة الرابعة: وهو بيانٌ أيضًا لجزاء أهل الكتاب ــ اليهود منهم خاصَّةً ــ أهل الغدر والخيانة فقد أسر فريقًا منهم، وقُتِل الباقون، مع مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم.

من خلال هذا العرض للنَّتائج الختامية للغزوة، كان لا بدَّ للقارئ المتدبِّر أن يدرك حتمًا أنَّ هذه النَّتائج التي وقعت هي نفسها النَّتائج التي ستقع في عصرنا الحاضر ــ والذي كان فيه استهداف للنَّبي ﷺ ــ؛ لأنَّ هذه هي سنة الله فلن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، فالذين آمنوا به واتَّبعوا سنته ونصروه سينصرون حتمًا، وهم كأصحاب النَّتيجة الأولى، أمَّا الذين يتلَوَّنُون بصبغة الإسلام ويقدحون في سنَّة النَّبي ﷺ ويستَخِفُّون ببعض الأحكام الثَّابتة الواردة عنه ﷺ فنتيجتهم من الصنف الثَّاني، أمَّا الذين أساءوا إلى النَّبي ﷺ علنًا بأن قدحوا في شخصه برسومٍ كاركاتورية، أو أعلنوها حربًا علنيَّةً ضد منهجه وسنَّته فأولئك هم أعداء الإسلام من المشركين وأهل الكتاب فهؤلاء سيحيق بهم مَّا حاق بأصحاب النتيجة الثالثة والرابعة.

المنهج القرآني عالج قضيَّة الإساءة تجاه الأنبياء بالإعراض عن الإساءة وعدم ترويجها، في مقابل ذلك إظهار منزلة وحقيقة من أسيئ إليهم من الأنبياء.

أيقنَّا من التفسير الموضوعي للنبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب أمران مهمَّان:

أولهما: إدراك عظمة هذا القرآن من حيث أنَّه لا يشبع العلماء منه، ولا تنفذ كلمات المفسِّرين له، فهذا موضوع النَّبي ﷺ في سورة الأحزاب أفردت له رسالة مستقلة، دون غيره من عشرات الموضوعات من السُّورة نفسها.

ثانيهما: مدى اعتناء الوحي بالذي نزل عليه هذا الوحي ﷺ، فقد رأينا فقط من خلال سورةٍ واحدةٍ وهي الأحزاب كم مرةً ذكر فيها النَّبي ﷺ والأمور المتعلقة به من أحكام وأخلاق وصفات وغير ذلك، دون غيرها من السُّور، فإن دلَّ هذا على شيء فإنَّما يدلُّ على الاهتمام التَّام من كل النَّواح بالرَّسول ﷺ من قبل الله ﷻ.

خُصَّ النَّبي ﷺ بخصائص منها ما هو في حياته، ومنها ما هو في حياته وبعد مماته:

أمَّا التي في حياته: فقد خصَّه الله بأن أحلَّ له التَّزوُّج فوق الأربع، وأن لاَ يتزوَّج بالكتابيات، وأحل له التَّزوُّج بالمرأة المؤمنة الواهبة نفسها له، وأبيح له أيضًا عدم قسمته بين أزواجهن وهذه الخصائص تعدُّ من قبيل التَّوسعة للنَّبي ﷺ.

أمَّا التي كانت في حياته واستمرَّت بعد مماته فقد جعل الله أزواجه أمَّهات للمؤمنين، وحرَّم الله نكاح أزواجه من بعده، وهاتان الخاصِّيتان تعدَّان من قبيل الرَّفع من شأنه حيًّا وميِّتًا.

كان النَّبي ﷺ على أعلى قدر من الخُلق، ومن أخلاقه المذكورة في السُّورة: خلقُ الرَّأفة، والصَّبر والمصابرة والمرابطة، والزُّهد، والكرم، وأخيرًا الحياء الذي من الإيمان والذي لا يأتي إلاَّ بخير، وكانت هذه الأخلاق متأصِّلة في نفس النَّبي ﷺ نظرًا لجوِّ السُّورة؛ لأنَّ أخلاق الرِّجال تظهر في الشَّدائد.

بيَّنت السُّورة في اعتدال من غير غلوٍّ في وصف النَّبي ﷺ، ومن غير استخفافٍ بحقِّه، أنَّ النَّبي ﷺ هو من قبيل البشر، وتمثلت هذه البشريَّة من خلال السُّورة في كونه: يتزوَّج، ويأكل ويشرب، ولا يعلم من الغيب إلاَّ ما أطلعه الله عليه، وأنَّه سيموت كما يموت جميع البشر.

كان لمن له علاقة بالنَّبي ﷺ منزلة رفيعة، ولولا مقام نبوَّته ﷺ لم يكن ليُعرف لهم ذلك، وتمثَّلت هذه العلاقة بالنَّبي ﷺ من خلال السُّورة في أربعةِ أمور: في أزواجه، في أهل بيته، في أصحابه، في المدينة المنوَّرة، مع بيان خصائص هذه المنزلة.

ويمكن أن أوصي بأشياء أهمُّها:

أوصي بدراسة الموضوعات الأخرى المتبقِّية من خلال سورة الأحزاب، دراسة موضوعية، كموضوع النِّفاق، وموضوع زوجات النَّبي ﷺ، وموضوع الأحكام الواردة في السُّورة؛ لأنَّ جميع الموضوعات في السُّورة إمَّا هي أحزاب (كالمنافقين، والمشركين، وأهل الكتاب)، أو هي محل تحزب عليها (كالنَّبي ﷺ، والمؤمنون، وزوجات النبي ﷺ، وأحكام النِّساء).

وأوصي أيضًا بدراسة موضوع النَّبي ﷺ من خلال السُّور المتبقِّية كسورة: آل عمران، النِّساء،الأنفال، التَّوبة، النُّور، الحجرات، وغير ذلك، لتوضع في الأخير في مجلَّد واحد يُعَنون بـ: النَّبي ﷺ في القرآن الكريم ــ دراسة موضوعية ــ.

كما أوصي بدارسة الحوادث وتناميها كظاهرة النِّفاق، والتَّدرج في علاج بعض القضايا لمحاربة بعض الآفات الاجتماعية، وفق ترتيب النُّزول، لما فيها من التَّوصُّل إلى نتائج وحلول دقيقة وأشياء كثيرة مفيدة تقال في مواطنها.

وفي الختام... فإنِّي أحمد الله تعالى وأشكره شكرًا جزيلاً على أن وفَّقني لإتمام هذه الرِّسالة، وأسأله تعالى أن يجعلها خالصةً لوجهه، وأن ينفع بها الأمَّة، ولا أزعم أنِّي استطعتُ الوفاء بكل ما التزمتُ به، كما لا أدَّعي أنِّي استكملتُ جميع جوانب ما يتعلَّق بالنَّبي ﷺ في ضوء سورة الأحزاب، لأنِّي أشعر بالتَّقصير دائمًا في حقِّ الله وقرآنه، وفي حقِّ رسوله ﷺ، وفي حقِّ غيرهم؛ لأنَّ الكمال لله ﷻ وحده والنَّقص والقصور من طبعي، لكن حسبي أنِّي بذلتُ طاقتي واستفرغتُ وُسعي، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن جانبت الصَّواب فمن نَّفسي والشَّيطان وأستغفر الله وأتوب إليه، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

قائمة المصادر والمراجع

١ــ المصادر:

ــ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١ــ إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، أبو الحسن (٨٨٥هــ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، حققه عبد الرزاق غالب المهدي، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٢ــ إبراهيم بن عمر بيوض (١٤٠١هــ)، في رحاب القرآن، د. ط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ٢٠٠٣م.

٣ــ أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر (٤٥٨هــ)، سنن البيهقي الكبرى، حققه محمد عبد القادر عطا، د. ط، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.

٤ــ أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر(٤٥٨هــ)، شعب الإيمان، حققه محمد السعيد بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هــ.

٥ــ أحمد بن حنبل، أبو عبد الله (٢٤١هــ)، مسند الإمام أحمد، حققه شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.

٦ــ أحمد بن شعيب النسائي، أبو عبد الرحمن (٣٠٣هــ)، سنن النسائي الكبرى، حققه عبد الغفار سليمان وغيره، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

٧ــ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل (٨٥٢هــ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، حققه محب الدين الخطيب، د. ط، دار المعرفة، بيروت.

٨ــ أحمد بن عمرو البزار، أبو بكر (٢٩٢هــ)، البحر الزاخر المشهور بمسند البزار، حققه محفوظ الرحمن زين الله، ط١، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٩هــ.

٩ــ أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين (٣٩٥هــ)، معجم مقاييس اللغة، حققه عبد السلام محمد هارون، د. ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

١٠ــ أحمد بن محمد الثعلبي، أبو إسحاق (٤٢٧هــ)، الكشف والبيان، حققه أبو محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

١١ــ أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة (١٢٢٤هــ)، البحر المديد، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٢ــ أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، أبو بكر (٣٢٤هــ)، السبعة في القراءات، حققه شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٤٠٠هــ.

١٣ــ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط١، شركة ومطبعة البابي حلبي وأولاده، مصر، ١٩٤٦م.

١٤ــ اسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء (٧٧٤هــ)، تفسير القرآن العظيم، د. ط، دار الفكر، بيروت.

١٥ــ الحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، حققه عبد العزيز سيد الأهل، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٠.

١٦ــ الحسين بن محمد المشهور بالراغب الأصفهاني، أبو القاسم (٥٠٢هــ)، المفردات في غريب القرآن، حققه محمد سيد كيلاني، د. ط، دار المعرفة، لبنان، د ت.

١٧ــ الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠هــ)، معالم التنزيل، حققه محمد عبد الله النمر وآخرون، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

١٨ــ جابر بن موسى بن عبد القادر، أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ٢٠٠٣م.

١٩ــ سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط٦، دار السلام، مصر، ٢٠٠٣م.

٢٠ــ سليمان بن أحمد الطبراني، أبو القاسم (٣٦٠هــ)، المعجم الأوسط، حققه طارق بن عوض الله، وعبد المحسن بن إبراهيم، د. ط، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هــ.

٢١ــ سليمان بن أحمد الطبراني، أبو القاسم (٣٦٠هــ)، المعجم الكبير، حققه حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة الزهراء، الموصل، ١٩٨٣م.

٢٢ــ سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داود (٢٧٥هــ)، سنن أبي داود، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ط، دار الفكر، بيروت، د. ت.

٢٣ــ سيد قطب (١٩٦٦م)، في ظلال القرآن، ط٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٤ــ عبد الحق بن غالب بن عطية، أبو محمد (٥٤٢هــ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، حققه عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٣م.

٢٥ــ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هــ)، أسرار ترتيب القرآن، حققه عبد القادر أحمد عطا، د. ط، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.

٢٦ــ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هــ)، الإتقان في علوم القرآن، حققه سعيد المندوب، ط١، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٦م.

٢٧ــ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هــ)، طبقات المفسرين، ت: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هــ.

٢٨ــ عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، أبو زيد (٨٧٦هــ)، الجواهر الحسان في تفسير القــرآن، د.ط، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٩ــ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦هــ)، تيسير الكريم الــرحمن فــي تفــسير كــلام المنان، حققه عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٠ــ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (٤٠٣هــ)، حجة القراءات، ت: سعيد الأفغاني، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هــ.

٣١ــ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، أبو الفرج (ت: ٧٩٥هــ)، جــامع العلــوم والحكــم، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هــ.

٣٢ــ عبد الله بن أحمد النسفي، أبو البركات (٧١٠هــ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، د. ط، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥.

٣٣ــ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، أبو بكر (٢٣٥هــ)، مصنف ابن أبي شيبة، حققــه كمــال يوسف الحوت، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هــ.

٣٤ــ عبد الله بن عمر البيضاوي، أبو الخير (٦٨٥هــ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويــل، د. ط، دار الفكر، بيروت، د. ت.

٣٥ــ عبد الملك بن هشام، أبو محمد (٢١٣هــ)، السيرة النبوية، حققه طه عبد الرؤوف ســعد، د.ط، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هــ.

٣٦ــ علي بن أحمد الواحدي، أبو الحسن (٤٦٨هــ)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيــز، حققــه صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، دمشق، ١٤١٥هــ.

٣٧ ــ علي بن أحمد بن حزم الظاهري، أبو محمد (٤٥٦هــ)، المحلي، حققتــه لجنــة إحيــاء التراث العربي، د. ط، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.

٣٨ــ علي بن عبد الملك الهندي، الشهير بالمتقي (٩٧٥هــ)، كنز العمال، حققه محمــود عمــر الدمياطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٣٩ــ محمد الأمين بن محمد الشنقيطي (١٣٩٣هــ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بــالقرآن، حققه مكتب البحوث والدراسات، د ط، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هــ.

٤٠ــ محمد الطاهر بن محمد بن عاشور (١٣٩٣هــ)، التحرير والتنوير، ط١، مؤسسة التــاريخ العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٤١ــ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (٧٢١هــ)، مختار الــصحاح، حققــه محمــود خاطر، د. ط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٢ــ محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (٩٧٧هــ)، السراج المنير، د.ط، دار الكتــب العلميــة، بيروت، د.ت.

٤٣ــ محمد بن أحمد القرطبي، أبو عبد الله (٦٧١هـــ)، الجــامع لأحكــام القــرآن، د.ط، دار الشعب، القاهرة، د.ت.

٤٤ــ محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي، (٧٤١هــ)، التسهيل لعلوم التنزيل، ط٤، دار الكتــاب العربي، لبنان، ١٩٨٣م.

٤٥ــ محمد بن أحمد جلال الدين المحلى (٨٦٤هــ)، وعبد الرحمن بن أبي بكر جــلال الــدين السيوطي (٩١١هــ)، تفسير الجلالين، ط١، دار الحديث، القاهرة.

٤٦ــ محمد بن اسماعيل البخاري، أبو عبد الله (٢٥٦هــ)، الجامع المسند الــصحيح المختــصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، حققه مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامــة، بيروت، ١٩٨٧م.

٤٧ــ محمد بن الحسن الطوسي، أبو جعفر (٤٦٠هــ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمــد حبيب قصير العاملي، ط١، مكتب الأعلام الإسلامي، ١٣٠٩هــ.

٤٨ــ محمد بن بهادر الزركشي، أبو عبد الله (٧٩٤هــ)، البرهان في علوم القرآن، حققه محمــد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هــ.

٤٩ــ محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر (٣١٠هــ)، جامع البيان عن تأويل آي القــرآن، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هــ.

٥٠ــ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (٣٥٤هــ)، صحيح ابن حبــان، حققــه شعيب الأرناؤوط، ط٢، دار الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

٥١ــ محمد بن خليفة بن علي التميمي، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة، ط١، أضواء السلف، الرياض، ١٩٩٧م.

٥٢ــ محمد بن عبد الله بن العربي، أبو بكر (٥٤٣هــ)، أحكام القرآن، حققه محمد عبد القــادر عطا، د.ط، دار الفكر للطباعة، لبنان، د.ت.

٥٣ــ محمد بن عبد الله النيسابوري، أبو عبد الله (٤٠٥هــ)، المستدرك على الصحيحين، حققــه مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هــ.

٥٤ــ محمد بن الحسين السلمي، أبو عبد الرحمن (ت: ٤١٢هــ)، حقــائق التفــسير، ت: ســيد عمران، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٢١هــ.

٥٥ــ محمد بن علي البلنسي، أبو عبد الله (٧٨٢هــ)، تفسير مبهمات القرآن الموسوم بصلة الجمع وعائذ التذييل، حققه حنيف بن حسن القاسمي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

٥٦ــ محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هــ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٥٧ــ محمد بن عمر الرازي (٦٠٤هــ)، مفاتيح الغيب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هــ.

٥٨ــ محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى (٢٧٩هــ)، سنن الترمذي، حققه أحمد محمد شاكر وآخرون، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.

٥٩ــ محمد بن محمد العمادي، أبو السعود (٩٥١هــ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت.

٦٠ــ محمد بن مكرم بن منظور، أبو الفضل (٧١١هــ)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، د.ت.

٦١ــ محمد بن محمد الزبيدي، أبو الفيض (ت: ١٢٠٥هــ)، تاج العروس من جواهر القاموس، د.ط، دار المعرفة، د.م، د.ت.

٦٢ــ محمد بن يزيد بن ماجه، أبو عبد الله (٢٧٥هــ)، سنن ابن ماجه، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٦٣ــ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، أبو طاهر (١٣٢٩هــ)، القاموس المحيط، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت.

٢٤ــ محمد بن يوسف اطفيش (١٣٣٢هــ)، تيسير التفسير، حققه طلاي إبراهيم بن محمد، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ٢٠٠١م.

٦٥ــ محمد بن يوسف بن علي أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هــ)، البحر المحيط، حققه عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

٦٦ــ محمد سيد طنطاوي، االتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د.ط، مطبعة السعادة، ١٩٨٥م.

٦٧ــ محمد رشيد بن علي رضا (١٣٥٤هــ)، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٦٨ــ محمد عزة دروزة (١٤٠٤هــ)، التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٦٩ــ محمود بن أحمد العيني، أبو محمد (٨٥٥هــ)، عمدة القاري، د.ط، دار إحيــاء التــراث، بيروت، د.ت.

٧٠ــ محمود بن عيسى الألوسي، أبو الفضل (١٢٧٠هــ)، روح المعاني فــي تفــسير القــرآن العظيم والسبع المثاني، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.

٧١ــ محمود عمر الزمخشري، أبو القاسم (٥٣٨هــ)، الكشاف عن حقــائق التنزيــل وعيــون الأقاويل في وجوه التأويل، حققه عبد الرزاق المهدي، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.

٧٢ــ مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسين (٢٦١هــ)، صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.

٧٣ــ مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، أبو الحسن (١٥٠هــ)، تفسير مقاتل بن ســليمان، ت: أحمد فريد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هــ.

٧٤ــ منصور بن محمد السمعاني، أبو المظفر (ت: ٤٨٩هــ)، تفسير القــرآن للــسمعاني، ت: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٩٩٧م.

٧٥ــ نصر بن محمد السمرقندي، أبو الليث (٣٦٧هــ)، بحر العلوم، حققه محمــود مطرجــي، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٧٦ــ وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ط ٢، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤١٨م.

٧٧ــ يحي بن شرف النووي، أبو زكريا(٦٧٦هــ)، شرح النووي على صحيح مسلم، ط٢، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٩٢هــ.

٢ ــ المراجع:

٧٨ــ حسن محمد باجوده، تأملات في سورة الأحزاب، د.ط، مطبوعات نــادي مكــة الثقــافي، مطابع الصفا، ١٤٠٣هــ.

٧٩ــ صفي الرحمن المباركفوري (١٤٣٠هــ)، الرحيق المختوم، ط١٧، دار الوفاء للطباعــة، مصر، ٢٠٠٥م.

٨٠ــ عبد الحميد محمود طهماز (١٤٣١هــ)، من موضوعات سور القرآن الكــريم، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م.

٨١ــ فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٧م.

٨٢ــ محمد الصادق ابراهيم عرجون، محمد رسول الله ﷺ مــنهج ورســالة، ط٢، دار القلــم، دمشق، ١٩٩٥م.

٨٣ــ محمد الغزالي، فقه السيرة، ط٢، دار الدعوة، الاسكندرية.

٨٤ــ محمد بن عبد الله دراز (١٣٧٧هــ)، النبأ العظيم، د.ط، اعتنى به أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم، ٢٠٠٥م.

٨٥ــ محمد رواس قلعه جي، دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمــد ﷺ، ط٢، دار النفــائس، لبنان، ١٩٩٦م.

٨٦ــ محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ط ١١، دار الفكر، دمشق.

٨٧ــ محمد عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هــ)، مناهل العرفان فــي علــوم القــرآن، ط١، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٦م.

ABSTRACT

The prophet in the light of Surat Al-Ahzab
–Thematic Study–

The study deals with the verses of sura Al-Ahzab, has been related to the prophet Mohammed (p.b.u.h) This study has been divided into few topics addresses according to the dictates Sura then analyzed and studied scientific academy. Trickle-extrapolation and analysis.

The subject was important in my research because it has been mentioned many times in the holy Quran and the research was mad in this ears were few, as well as the appearance of recent events in the present time, which harm the personality of the Prophet.

The study included an introduction, three chapters, and conclusion.

The introductory chapter, talks about the Quranic science in Surat al-ahzab , from the definitions point of view , events, and topics.

The first chapter dealt with stat of the prophet in surat al ahzab ,

The second chapter dealt with the Prophet s over his nation,

Chapter three, dealt with the of the rights of the Prophet, his characteristics, morals, humanity, in comparative with others, in the light of Sura al ahzab.

The most important findings are: that the prophets have high stats in the sight of Allah

And harming the prophet will not affect the prophet, and in the hereafter will receive the punishment.
era of the Prophet, and also those in this world will face the same fate.
and also explained that the Prophet have certain rights over us we must comply with

The study recommends: To complete the study about the prophet through studying the remaining sura such as al anfal and altawba...., also recommends that the study of other subjects of the same sura such as hypocrisy.